إيثار

رواية

إسحاق الجابري

إيثار

رواية

إسحاق الجابري

عنوان الكتاب

إيثار

تأليف

إسحاق الجابري

الطبعة

الأولى 2025

التدقيق اللغوي والإخراج الداخلي:
الحذقة لخدمات ما قبل الطباعة

Whats: +967779284583

©جميع الحقوق محفوظة
يسمح بنشر محتوى هذا الكتاب بأي شكل من أشكال النشر الإلكتروني فقط مع تضمين وسم: (#إيثار).
ولا يجوز اقتصاص أي جزء من هذا الكتاب بهدف إهدار حقوق الملكية الفكرية أو إعادة إنتاجه بشكل مادي أو معنوي إلا بموافقة المؤلف.

إهداء

إلى كلّ الذين بنوا عوالم كاملة في دواخلهم،
فقط ليهربوا من حطام هذا العالم.
إلى الذين يعرفون أن أقسى المعارك،
هي تلك التي تدور في صمت.
إلى الخيال...
ذلك الملجأ الأخير الذي نلجأ إليه،
عندما يصبح الواقع ثقيلاً جدًّا على حمله.
إلى تلك الندبة التي نظنّ أنها نقطة ضعفنا،
دون أن ندرك أنها...
أصل كلّ قصصنا.

المقدمة

كلّ قصة تبدأ من جرح. هناك، في تلك المساحة الهشّة بين ما حدث وما نتمنّى لو أنه حدث، يولد عالم كامل. عالم من الظلال والهمسات، من المدن التي لا توجد على أي خريطة، ومن الوجوه التي نحبّها ونخشاها في آنٍ واحد. هذا العالم ليس كذبة، بل هو حقيقة أعمق، حقيقة الروح وهي تحاول أن تشفي نفسها. هذه ليست حكاية عن بطل، بل عن إنسان يُدعى إيثار. إنسان ضلّ طريقه، ليس في شوارع مدينة، بل في ممرات عقله المظلمة. تبدأ رحلته من غرفة صامتة، ومن ندبة على صدره، ندبة كانت أكثر من مجرد أثر على الجلد؛ كانت بوابة إلى كلّ ما فقده، وكلّ ما يخشى أن يجده. ما ستقرؤه ليس مجرد أحداث، بل هو غوص في محيط الوعي، حيث تتلاشى الحدود بين الواقع والكابوس، وبين الذاكرة والوهم. إنها دعوة للسير في مدينة بناها الألم، وللاستماع إلى صدى ضمير هارب، ولمواجهة حقيقة أن أعتى الوحوش التي نقاتلها، هي تلك التي تسكن داخلنا. فهل أنت مستعدّ لدخول هذه المتاهة؟ تذكّر، في هذا العالم، ليس كلّ ما تراه حقيقيًّا، ولكن كلّ ما تشعر به... هو الحقيقة كلّها.

تمهيد

يُقال إنّ الروح، عندما تنكسر، لا تُصدر صوتًا.

لكنّها تترك وراءها شرخًا. شرخٌ دقيق في نسيج الواقع، لا تراه الأعين، لكن تشعر به القلوب المتعبة.

من هذا الشرخ، يتسرّب عالم آخر. عالم موازٍ، مصنوع من كلّ ما نخشاه، وكلّ ما نشتاق إليه.

عالم من مدن لا تسكنها الأجساد، بل الذكريات. وشوارع لا تُقاس بالمسافات، بل بعمق الندم.

هناك، في ذلك العالم، لا يموت الناس، بل يتلاشون حين يُنسَون. ولا يولدون، بل يتشكّلون من قوّة حاجةٍ مُلحّة.

هذه ليست قصة عن ذلك العالم،

بل عن رجلٍ سقط في الشرخ.

(1)

صدى الهاوية

في جوف الليل، حيث يذوب الفاصل الهشّ بين الحقيقة والكابوس، وحيث يفقد الزمن معناه، استيقظ وعي إيثار.

لم يكن استيقاظًا حقيقيًّا، بل كان انتقالاً من ظلام إلى ظلام أشدّ وطأة.

وجد نفسه سجينًا في متاهة عقله، والغرفة التي تحيط به لم تكن مجرّد أربعة جدران وسقف صامت، بل كانت مسرحًا حيًّا، امتدادًا ماديًّا لروحه المتهالكة.

الهواء نفسه كان ثقيلاً، راكدًا، يحمل رائحة العفن الخفيفة الممزوجة بذرات الغبار القديم، تلك الرائحة المميزة للأماكن التي طواها النسيان وهجرها الزمن.

كلّ شهقة من أنفاسه اللاهثة كانت ترتدّ إليه كصدى، كدليل مسموع على وحدته، وتؤكّد له حقيقة واحدة، حقيقة جليدية كان يهرب منها في يقظته: لقد سقط بالفعل في الهاوية.

تردّدت كلمات الطبيب في ذهنه، لم تعد مجرّد ذكرى، بل أصبحت صوتًا داخليًّا ساخرًا، همسًا شبحيًّا يطوف في زوايا وعيه المظلمة.

"عقلك يحاول حمايتك من صدمة عميقة يا إيثار، لكنه يفعل ذلك بطريقة مدمّرة".

حماية؟ أيّ نوع من الحماية هذه التي تمزّق نومه وتحوّله إلى جولة تعذيب يوميّة؟

أيّ ملاذ هذا الذي يبدو كسجن لا فكاك منه، جدرانه هي جمجمته نفسها؟

كان يشعر وكأنّ عقله قد انقلب عليه، تحوّل من حصن منيع إلى عدوّ غادر، يستخدم أثمن ذكرياته كأسلحة فتاكة، يعيد عرضها عليه في نُسَخ مشوّهة ومؤلمة.

حاول أن ينهض، أن يتحرّك، لكن جسده كان ثقيلاً كأنه مصنوع من الرصاص.

حاول أن يلملم شظايا ذاكرته المتناثرة، لكنها كانت كقطع زجاج حادّة، كلّما حاول الإمساك بواحدة لتفحّصها، جرحت أصابع روحه وتركَت نزيفًا جديدًا من الألم.

وفي خضمّ هذا التشظّي، لمعت صورة، لم تكن مجرّد ذكرى باهتة، بل كانت إحساسًا حيًّا، مشهدًا كاملاً بكلّ تفاصيله الحسيّة.

كانت الشمس دافئة على وجهه، دفئًا حقيقيًّا يتسلّل إلى مسامه.

وضحكة ليلى... آه، ضحكة ليلى.

كانت تملأ الهواء كأجمل معزوفة عرفتها أذناه، نقية ومعدية، تجبر زوايا شفتيه على الارتفاع رغمًا عنه.

شعرها الأسود الحريري كان يتطاير مع نسيم البحر المالح، خصلات متمرّدة تلامس وجهها فتزيحها بظهر يدها بحركة عفوية ساحرة.

كانت تركض أمامه على الشاطئ، تاركة خلفها آثار أقدام سرعان ما تمحوها الأمواج، كأنها تقول له إنّ اللحظات الجميلة عابرة، يجب أن نعيشها الآن.

كانت هي النور، هي الحياة، هي المحور الثابت الذي يدور حوله عالمه الفوضوي.

في ذلك اليوم، أمسك بيدها، وشعر بتيّار من السعادة النقيّة يتدفّق في عروقه، سعادة كادت أن تكون مؤلمة في كمالها.

نظر في عينيها البنّيتين اللامعتين، ورأى انعكاس صورته فيهما، انعكاس رجل كامل، رجل سعيد.

في تلك اللحظة، كان كلّ شيء في مكانه الصحيح، كان العالم منطقيًّا، دافئًا، وحقيقيًّا.

لكن المشهد، بكلّ دفئه وحياته، تمزّق بعنف، كما تتمزّق لوحة فنيّة ثمينة تحت يد غاضبة، أو كما يحترق فيلم سينمائي فجأة.

حلّ محل دفء الشمس برودة غرفة المستشفى المعقّمة، تلك البرودة التي لا علاقة لها بالطقس، بل برودة تنبع من الجدران البيضاء والأجهزة المعدنيّة واليأس.

وتبدّلت ضحكتها الرنّانة إلى صوت آخر، صوت سيظلّ محفورًا في ذاكرته إلى الأبد:

صوت جهاز القلب وهو يرسم ذلك الخطّ المستقيم والمميت، مصحوبًا بنغمة حادّة ومتصلة، نغمة تعلن النهاية.

صراخ مكتوم في صدره، وجوه شاحبة يكسوها الأسف المهني من حوله، وفراغ هائل أسود ابتلعه في تلك اللحظة.

تلك كانت الصدمة. تلك كانت لحظة الخلق، لحظة ولادة الهاوية التي سقط فيها، وذلك الظلام الذي يتربّص به الآن.

ارتعش جسده بعنف، رعشة عميقة بدأت من نخاعه الشوكي وانتشرت في أطرافه.

لم تكن من برودة الغرفة، بل من يقين جليدي بأنّ شيئًا ما يتربّص به في العتمة.

لم يعد مجرّد شعور بالقلق، بل أصبح حقيقة تتنفّس معه في ذات الحيّز. كان يشعر بوجوده كما يشعر بوجود الجدار بجانبه.

هذا الكيان الذي يطارده في أحلامه، هل هو مجرّد صنيعة عقله المريض، تجسيد لألمه الذي أخذ شكلاً وهيئة؟

أم أنّه شيء أقدم وأكثر شرًّا، كيان طفيلي استيقظ على رائحة حزنه ويأسه، ووجد في روحه المكسورة موطئ قدم، بوابة ليعبر منها إلى عالمه؟

وفجأة، اخترق الصمت المُطبِق صوتٌ خافت، كحفيف ريح تتسلّل من شقّ غير مرئي في الجدار، أو كهمس قادم من بئر سحيقة: "إيثار..."

لم يكن صوتًا عاديًّا، كان يفتقر إلى مصدر محدد.

كان يداعبه من اليمين ثم يباغته من اليسار، يطوّقه من كلّ اتجاه، كأنه ينبع من الهواء نفسه.

"من هناك؟" تساءل بصوت مبحوح أجش، صوت غريب لم يكد يتعرّف عليه، صوت رجل أكبر سنًّا، أنهكه التعب والخوف.

لم يأتِ الرّد. الصمت الذي تلا سؤاله كان أشدّ رعبًا من الصوت نفسه.

ثم عاد الهمس، هذه المرّة أقوى، وتحوّل إلى طنين حادّ ومؤلم في رأسه، كأنه صدى لصرخة لم يُطلقها بعد، صرخة تولد في أعماقه.

أغمض عينيه بقوّة، في محاولة يائسة وطفوليّة لطرد هذا الرعب، للعودة إلى عالم المنطق، عالم يمكن فيه تفسير كلّ شيء.

لكنه حين فتحهما، رأى ما جعل الدم يتجمّد في عروقه.

في زاوية الغرفة، حيث يلتقي الجداران في خطّ عمودي، كان هناك ظلٌّ أسود يتجسّد ببطء.

لم يكن مجرّد غياب للضوء، بل كان كيانًا له كثافة، سواد أكثر سوادًا من الظلام المحيط به.

كان ينمو ويتشكّل، يأخذ هيئة بشريّة فارغة من أيّ ملامح، مجرّد فراغ حالك يمتصّ الضوء الشحيح من حوله، ويبتلع الألوان والأشكال.

كان تجسيدًا حيًّا لكلّ مخاوفه، لكلّ ألمه، لكلّ الظلام الذي نما في روحه بعد رحيل ليلى.

تجمّد إيثار، وشعر بقلبه يقرع ضلوعه بعنف كطبل حرب ينذر بالهزيمة الوشيكة.

أراد أن يصرخ، لكن حبالَه الصوتيّة خانته.

أراد أن يهرب، لكن أطرافه لم تعد تطيع أوامره.

كان مجرّد وعي محاصر داخل جسد متجمّد.

اقترب الكيان بخطوات صامتة، لا صوت لها على الأرضيّة الخشبيّة، حركة انسيابيّة غير طبيعيّة، وكلّ خطوة كانت تسلبه القدرة على الحركة أو الصراخ، وتسرق الهواء من رئتَيه شيئًا فشيئًا.

شعر بالاختناق، وكأنّ العالم يضيق من حوله ليصبح هذا الكيان هو الحقيقة الوحيدة، هو كلّ ما يوجد.

عندما وصل أمامه، توقّف.

ساد صمت رهيب دام لدهر، صمت يمكن سماعه.

ثم مدّت يدٌ سوداء نحوه، يدٌ بدت وكأنّها مصنوعة من دخان متجمّد.

استقرّت على كتفه.

لم تكن لمسة ماديّة، لم يشعر بضغط أو وزن، بل شعر بما هو أسوأ: برودة جليديّة خارقة، برودة غير أرضيّة، سرت في جسده، وتسلّلت إلى روحه، وجمّدت كلّ أمل ضئيل كان قد تبقّى فيه.

ثم عاد الصوت، هذه المرّة لم يكن همسًا، بل كان واضحًا وقاطعًا، يتردّد مباشرة في أذنه كسرٍّ فتاك لا يمكن إفشاؤه:

"أنت ملكي الآن... يا إيثار".

صرخة مدوّية، حيوانيّة، بدائيّة، مزّقت حنجرته، صرخة تحمل كلّ ألمه وخوفه ويأسه.

ليفيق على جسده الذي يرتعش بعنف، وعرقه البارد يبلّل فراشه وملاءاته.

كان في سريره، في غرفته، في عالمه الذي يعرفه.

لكن، هل كان ما حدث مجرّد كابوس؟

لم يستطع التخلّص من أثر البرودة الشبحية على كتفه، أو صدى تلك الكلمات التي حُفرت في ذاكرته كوشم ناريّ لا يزول.

نظر إيثار نحو زاوية الغرفة، حيث كان الظلّ يقف في حلمه.

لم يكن هناك شيء، كلّ شيء بدا طبيعيًّا وهادئًا بشكل مرعب.

لكنه أدرك في تلك اللحظة أن الهاوية ليست مكانًا يذهب إليه، بل هي حالة تسكنه الآن، ضيف مقيم في روحه.

وأنّ هذا الكابوس لم يكن النهاية، بل كان دعوة رسميّة من الظلام الذي استشعره، عالم ينتظره بفارغ الصبر ليصبح ساحة معركته الجديدة.

وهكذا، مع خيوط الفجر الأولى التي تسلّلت خجولة من النافذة، لم تبدّد الظلام في قلب إيثار، بل كشفت له عن بداية رحلة لم يخترها،

رحلة إلى أعماق الجنون، حيث لا مفرّ من مواجهة الكيان الذي أعلن ملكيّته عليه، والذي ينتظره الآن في كلّ ظلّ، وفي كلّ همسة ريح.

(2)

مدينة الأوهام

لم يكن استيقاظ إيثار من الكابوس نهاية للرعب، بل كان مجرّد عبور من مستوى في الجحيم إلى آخر أشدّ عمقًا وتعقيدًا.

فتح عينيه، لا على ضوء الصباح الهادئ، بل على استمراريّة مشوّهة لحلمه.

كانت غرفته، لكنها لم تكن هي.

شيءٌ ما كان مختلفًا بشكل جذري ومقلق.

الجدران الرماديّة الباهتة التي اعتاد عليها كانت الآن تتراقص، تتموّج بألوان خافتة ومريضة، كأنّها جلد كائن حيّ يتنفّس.

الأثاث الخشبيّ الثقيل – خزانته، مكتبه، كرسيّه – بدا وكأنّه يتنفّس ببطء وإيقاع منتظم، ينتفخ وينكمش بشكل شبه محسوس.

لم يكن هذا عالمه الذي يعرفه، بل كان نسخةً فاسدة منه، نسخةً أعاد عقله المريض تصميمها لتناسب حالته الداخليّة.

نهض إيثار من سريره، وشعر بثقل هائل في كلّ عضلة من جسده، كأنّ الجاذبيّة في هذا الواقع الجديد قد تضاعفت.

كلّ خطوة كانت تتطلّب جهدًا جبارًا.

جرّ قدميه نحو النافذة، وتوقّع أن يرى شوارع المدينة المزدحمة، وضجيج الحياة اليوميّة الذي قد يعيده إلى صوابه.

لكن ما رآه جعله يتجمّد في مكانه، وشعر ببرودة تسري في عموده الفقري.

لم تكن هناك مدينة. لقد تحوّلت بالكامل إلى بحرٍ صامت من الضباب الكثيف، ضبابٍ لزج بلون الحليب الفاسد يبتلع كلّ شيء.

كانت أبراجها الشاهقة تلوح من بعيد كأشباح عملاقة، هياكل داكنة بلا تفاصيل، وشوارعها التي كانت تضجّ بالحياة تبدو الآن كأنهار رماديّة تمتدّ إلى ما لا نهاية ضبابيّة.

كانت مدينة الأوهام، وها هي تتجلّى أمامه بكلّ تفاصيلها المرعبة.

كيف دخل إلى هنا؟ لم يكن هناك باب أو بوّابة.

كان الدخول أشدّ خفاءً من ذلك.

لقد حدث الانتقال في تلك اللحظة التي سبقت استيقاظه، في ذروة الكابوس، عندما وضعت يدُ الظلّ الباردة على كتفه وهمست: "أنت ملكي الآن".

تلك الصرخة التي أطلقها لم تكن صرخة إفاقة، بل كانت صرخة الولادة، صرخة عبوره من عالم الواقع إلى هذا العالم الداخلي.

لقد سحبته الصدمة والخوف إلى الداخل، إلى هذا الواقع البديل الذي بناه عقله كحصن، وتحوّل الآن إلى سجن.

بخطوات متردّدة، خرج إيثار من غرفته، ليجد نفسه يتجوّل في شقّة لم يعُد يعرفها.

كانت تتّسع وتضيق مع كلّ خطوة يخطوها.

الممرّ الذي كان طوله لا يتجاوز أمتارًا قليلة، امتدّ أمامه الآن كأنّه نفق لا نهاية له.

الأبواب التي كان يعرف وجهتها أصبحت الآن تؤدّي إلى غرف تتغيّر مع كلّ نظرة، كأنّها مشاهد في عرض سحريّ مريض.

شعر بأنّه فأر في متاهة صمّمها مهندس مجنون، متاهة لا يمكنه الهروب منها لأنّها جزء منه.

في إحدى هذه الغرف المتغيّرة، لمح صورة معلّقة على الحائط.

انجذب إليها بقوّة لا تُقاوَم.

كانت صورة لليلى. لم تكن مجرّد صورة، كانت هي.

عيناها اللامعتان، اللتان كانتا تحملان كلّ حنان العالم، وابتسامتها الدافئة التي كانت قادرة على تبديد أحلك أيّامه.

مدّ يده ببطء، بأصابع مرتعشة، ليلمس وجهها في الصورة، ليختبر دفئها مرّة أخيرة.

لكن قبل أن تلامس أنامله الإطار، تبدّدت الصورة أمامه كأنّها دخان، وتلاشت في الجدار الباهت.

لم تكن صورة، بل كانت طيفًا، شبحًا من الماضي السعيد، يطارده في كلّ مكان ليذكّره بما فقده.

"ليلى..." همس إيثار، لكن صوته ضاع في الصمت المُطبِق للغرفة، ابتلعه الفراغ.

شعر بألم حادّ في صدره، ليس ألمًا جسديًّا، بل ألمًا روحيًّا أعمق وأكثر وحشيّة من أيّ شيء اختبره من قبل.

كان ألم الفقد، ممزوجًا بالذنب اللاذع، والحقيقة التي كان يهرب منها.

وفجأة، عاد الصوت.

صوت الصدى المألوف من كابوسه، لكنه الآن أكثر وضوحًا، كأنه يتحدث من داخل رأسه.

"أنت في مدينة الأوهام يا إيثار. مدينة بنيتها بنفسك... لتحمي نفسك من الحقيقة".

"وما هي الحقيقة؟" صرخ إيثار في الفراغ، صرخة ممزوجة بالغضب واليأس.

وكإجابة على سؤاله، بدأت الجدران من حوله تتشقق، وظهرت تصدعات كخيوط العنكبوت تنتشر بسرعة.

اهتزت الأرض تحته بعنف. شعر إيثار وكأن العالم كله ينهار من حوله.

لم يكن هذا مجرد وهم، بل كان إحساسًا حقيقيًا بالانهيار، حقيقة أن عالمه الداخلي، دفاعاته النفسية، كانت تتداعى.

ركض. ركض بلا وجهة في الممرات المتغيرة، محاولاً الهروب من الانهيار الذي يلاحقه.

لكن كلما ركض، زادت المتاهة تعقيدًا.

كانت الأبواب تختفي أمامه وتظهر خلفه، والجدران تتغير ألوانها من الرمادي المريض إلى الأحمر القاني، ثم الأسود الفاحم.

شعر وكأنه محاصر في حلقة مفرغة، كابوس لا يستيقظ منه، حلقة لا يمكنه كسرها.

في النهاية، بعد أن استُنفدت قواه، وجد نفسه يتعثر ويسقط داخل غرفة كبيرة، لم يرها من قبل.

كانت جدرانها وسقفها وأرضيتها مغطاة بالكامل بالمرايا.

آلاف المرايا التي تعكس آلاف النسخ منه.

لكنها لم تكن صورًا طبق الأصل.

كانت كل مرآة تعكس نسخة مشوهة ومختلفة: نسخة غاضبة بفك مشدود، نسخة حزينة تذرف دموعًا صامتة، نسخة خائفة بعينين متسعتين من الرعب.

كانت هذه الصور جيشًا من مشاعره المكبوتة، كلّ مخاوفه، كلّ ذنوبه، معروضة أمامه.

"أنت لست وحدك يا إيثار".

جاء الصوت الجديد، الهادئ والعميق، من خلفه.

استدار ليرى ذلك الكيان المصنوع من الظلام الخالص، الفراغ الذي يتخذ هيئة إنسان.

"من أنت؟" سأل إيثار، وصوته يرتجف.

مد الكيان يده السوداء ووضعها على كتفه، وشعر إيثار بنفس البرودة الجليدية التي تُجمّد الروح.

"أنا قارئ الظل"، قال الكيان بصوته الهادئ الذي يحمل قوة غامضة.

"أنا الجزء الذي يراقب. الجزء الذي يفهم. وأنا هنا لأشرح لك قوانين سجنك هذا".

نظر إيثار حوله في حيرة ورعب.

"سجني؟ تقصد... هذه المدينة؟"

أومأ قارئ الظل برأسه، رغم أنه لا يملك رأسًا بالمعنى الحرفي.

"هذه ليست مجرد هلوسة عابرة يا إيثار. هذه هي مدينة الأوهام، وهي كيان له وجوده الخاص الآن. لقد بنيتها بنفسك، لكنها تطورت وأصبح لها قوانينها الخاصة".

بدأ قارئ الظل يشرح، وصوته يتردد في الغرفة اللامتناهية، كأنه صوت الحقيقة نفسها.

"كيف نشأت المدينة؟ لقد وُلدت في اللحظة التي انكسرت فيها روحك، في تلك الغرفة البيضاء في المستشفى.

مع كلّ ألم كبتّه، وكلّ دمعة حبستها، وكلّ حقيقة أنكرتها، كنتَ تضع حجرًا في أساس هذه المدينة.

الصدمة كانت هي المهندس، واليأس كان هو العمّال.

لقد بنيتها كحصن لتحتمي فيه من ذكرى موت ليلى، لكن الحصون تتحول دائمًا إلى سجون عندما نغلق أبوابها على أنفسنا".

تجمّد إيثار وهو يستمع. كلّ كلمة كانت منطقية بشكل مرعب.

"وما هي قوانينها؟" سأل إيثار بصوت خافت، شاعرًا بأنه تلميذ في حضرة معلّم قديم.

"هناك ثلاثة قوانين أساسية تحكم هذه المدينة يا إيثار. تجاهلها يعني أن تظل سجينًا هنا إلى الأبد".

"**القانون الأول**: العاطفة تشكّل الواقع.

مشاعرك هي التي ترسم خريطة هذا المكان.

إذا شعرت بالخوف، ستصبح الممرات أطول وأكثر تعقيدًا.

إذا شعرت بالغضب، ستتشقق الجدران وستحمرّ السماء.

وإذا سمحت لليأس بالسيطرة، سيبتلعك الضباب.

أنت لست مجرد ساكن هنا، أنت المهندس المعماري الدائم لهذا العالم".

"**القانون الثاني**: الأشباح هي حرّاس الحقيقة.

الأطياف التي تراها، مثل طيف ليلى، ليست هنا لتعذيبك فقط.

إنها حرّاس الذكريات الحقيقية.

كلما اقتربت من حقيقة مؤلمة، سيظهر طيف مرتبط بها ليمنعك أو ليرشدك.

هروبك من طيف ليلى هو سبب تلاشيه.

لو واجهته، لو تحدّثت إليه، لكان قد كشف لك عن جزء من الحقيقة التي تخفيها عن نفسك".

"**القانون الثالث**: لا يمكن تدمير المدينة، بل يمكن فهمها فقط.

محاولتك للهروب والركض والبحث عن مخرج، هي سبب انهيار الجدران واهتزاز الأرض.

المدينة تقاوم محاولات تدميرها.

السبيل الوحيد للخروج ليس عبر باب مادي، بل عبر فهم كل زاوية فيها.

عليك أن تمشي في كل زقاق مظلم، وتدخل كل مبنى مهجور، وتواجه كل شبح".

عليك أن تقرأ خريطة روحك التي رسمتها بنفسك.

عندها فقط، عندما تفهم كل جزء من هذا السجن، ستختفي جدرانه من تلقاء نفسها.

ساد صمت طويل في غرفة المرايا.

كان إيثار يستوعب هذه القوانين، هذه الحقائق المُروّعة.

لقد بنى سجنه بنفسه، والآن أُعطي له مفتاح الخروج، لكن المفتاح لم يكن سهلاً،

كان يتطلب شجاعة لم يكن يعلم أنه يمتلكها.

"الحقيقة مؤلمة يا إيثار"، كرر قارئ الظل جملته، لكنها الآن تحمل معنًى أعمق.

"لكنها هي السبيل الوحيد للتحرر".

في تلك اللحظة، أدرك إيثار أن رحلته قد تغيرت.

لم تَعُد رحلة هرب، بل أصبحت رحلة استكشاف منظَّمة.

رحلة في أعماق عقله، في شوارع مدينته، رحلة نحو الحقيقة التي كان يخشاها أكثر من أي شيء آخر.

نظر إلى انعكاسه في أقرب مرآة، ورغم أن الوجه كان لا يزال مُحطَّمًا،

إلا أنه رأى شيئًا جديدًا في عينيه: شرارة من التصميم.

وهكذا، واقفًا أمام مرشده الغامض الذي هو جزء منه،

بدأ إيثار رحلته الحقيقية في مدينة الأوهام،

ليس كسجين خائف، بل كمستكشف عازم على فهم قوانين عالمه الداخلي،

ومواجهة كلّ ظل، وكلّ مرآة، وكلّ زقاق في هذه المدينة التي هي... هو.

(3)

أشباح الماضي ومذكرات الحاضر

لم يتبدد مشهد غرفة المرايا فجأة، بل تلاشى ببطء، كأن آلاف الانعكاسات المشوّهة ذابت وتحولت إلى ضباب كثيف وبارد ابتلع كل شيء للحظات.

كان إيثار معلقًا في هذا الفراغ الأبيض، لا يشعر بأرض تحت قدميه ولا يرى سقفًا فوقه.

ثم، وكأن عالمًا جديدًا يولد من العدم، بدأ الضباب ينجلي تدريجيًا ليكشف عن واقع جديد.

وجد نفسه واقفًا عند بداية شارع لم يره من قبل، شارع ضيق مرصوف بحجارة سوداء غير متساوية ومبلّلة، كأن مطرًا أبديًا قد توقّف عن الهطول للتو.

كانت تفوح منه رائحة المطر القديم الممزوج بالتراب والذكريات المنسيّة.

على جانبيه، كانت المباني متراصّة ومتلاصقة، واجهاتها داكنة ومتآكلة، ونوافذها كعيون مغمضة ومظلمة، تحفظ أسرارًا لا تُحصى.

بجانبه، كان "قارئ الظل" يقف صامتًا، وجوده لم يعد مرعبًا كما كان في البداية، بل أصبح أشبه بمرساة ثقيلة في هذا العالم الفوضوي، بوصلة تشير دائمًا نحو الحقيقة المؤلمة، مهما كانت موجعة.

"هذه المدينة ليست مبنية فقط على حزنك الأخير يا إيثار"، قال قارئ الظل، وصوته لم يعد مجرد همس، بل بدا وكأنه صادر من الحجارة نفسها، عميقًا ورصينًا.

"إنها مبنية على كلّ حياتك، على كلّ خوف لم تواجهه، على كلّ جرح تركته دون تضميد.

اليوم، سنطبق القانون الثاني: الأشباح حُرّاس الحقيقة.

لكن ليس كل الأشباح هنا بسبب ليلى. بعضها أقدم بكثير".

سار به قارئ الظل في الشارع، وكانت خطواتهما لا تُصدر صوتًا على الحجارة المبلّلة.

كان إيثار يرى مباني وأزقة تمر بجانبه، ويشعر بأنّ كلّ واحد منها يمثل جزءًا من ماضيه، لكن مرشده لم يتوقف.

تجاوزا مباني شاهقة من الذنب وأزقة ضيقة من الندم، كلها مرتبطة بحبيبته، حتى وصلا إلى زقاق جانبي ضيق جدًا، بالكاد يتّسع لشخص واحد.

كان مدخله معتمًا، كأنه جرح في جسد المدينة، وفي نهايته البعيدة، كان هناك باب صغير، باب بحجم طفل، مطليّ بلون أزرق باهت ومتقشر، يكشف عن خشب قديم تحته.

"بعض الأشباح أقدم من ذلك بكثير"، همس قارئ الظل مشيرًا إلى الباب.

"وهي تحرس الحقائق التي شكّلت شخصيتك، الحقائق التي جعلتك الرجل الذي هرب عندما واجهته المأساة.

هذا الخوف الذي تشعر به الآن، هو أساس هذه المدينة كلّها".

شعر إيثار ببرودة لا علاقة لها بالمدينة، برودة ذكرى قديمة جدًا، إحساس منسيّ بالضعف والعجز.

تردّد للحظة، وشعر بأنّ ساقيه ترفضان التقدّم نحو ذلك الباب.

لكنه أجبر نفسه على المضيّ قدمًا، فكلّ خطوة في هذا الزقاق الضيّق كانت كأنّها غوص أعمق في بئر منسيّة في روحه.

دفع الباب الصغير، الذي أطلق صريرًا حزينًا، ودخل.

وجد نفسه في نسخة طبق الأصل من غرفة نومه عندما كان طفلاً.

التفاصيل كانت دقيقة بشكل مؤلم: الأثاث الخشبي الصغير، ورق الجدران الذي يحمل رسومات باهتة للديناصورات، والنافذة الكبيرة التي كانت تطل على شجرة بلوط ضخمة، كانت أغصانها في الليل تتحوّل في مخيّلته إلى أذرع وحش.

وفي زاوية الغرفة، كان يجلس طفل صغير، شبح شفّاف لإيثار في السابعة من عمره.

كان الطفل يحتضن ركبتيه بقوة، ويهز جسده إلى الأمام والخلف بإيقاع صامت، وينظر بخوف مطلق نحو خزانة الملابس الخشبيّة القديمة، التي كان بابها مواربًا قليلاً، ويكشف عن شقّ من الظلمة الحالكة.

اقترب إيثار الحقيقي من شبح طفولته، وتحرك بحذر حتى لا يخيفه أكثر.

لم يكن هذا الشبح مكسورًا بالذنب كشبح المستشفى، بل كان متجمّدًا من الخوف النقيّ، خوف بدائيّ لا يعرف المنطق.

"ما الذي تخاف منه؟" سأل إيثار بصوت حاول أن يجعله حنونًا ودافئًا قدر الإمكان.

لم يرد الطفل، بل أشار بإصبعه المرتجف نحو الخزانة.

نظر إيثار نحوها، وشعر بنفس الخوف الطفوليّ اللزج الذي نسيه منذ زمن.

الخوف من الوحش في الخزانة، الخوف من المجهول الذي يتربص في الظلام.

أدرك في تلك اللحظة أن هذا الخوف لم يختفِ أبدًا، بل كبر معه، تحوّر وتغير شكله.

تحوّل من خوف من وحش الخزانة إلى خوف من مواجهة الحياة، خوف من الفشل، خوف من الحقيقة.

هذا هو الخوف الذي جعله يبني هذه المدينة بأكملها.

"لا يوجد شيء هناك"، قال إيثار للطفل، لكن الكلمات بدت جوفاء حتى في أذنيه هو.

"لكنه سيأخذني"، همس الشبح الصغير بصوت مرتعش، صوت طفل على وشك البكاء.

"أسمعه يتنفس في الليل".

أدرك إيثار أن الكلمات لن تفيد. عليه مواجهة هذا الخوف الأصلي، ليس من أجل الطفل فقط، بل من أجله هو.

سار بثبات نحو الخزانة، وكلّ خطوة كانت حربًا ضد غرائزه التي تصرخ به ليتراجع.

شعر بأن قلبه يخفق بقوة، وأن العرق البارد بدأ يتكوّن على جبهته.

وضع يده على مقبض الباب النحاسي البارد وفتحه على مصراعيه.

لم يكن هناك وحش. كانت الخزانة فارغة تمامًا، باستثناء رائحة الخشب القديم وبعض الملابس المنسيّة.

عندما استدار، كان شبح الطفل يقف الآن، وينظر إليه بعينين واسعتين.

لم يعد الخوف يسيطر عليهما، بل شيء يشبه الامتنان.

ابتسم ابتسامة باهتة قبل أن يتلاشى ببطء، كالهمس، تاركًا وراءه شعورًا غريبًا بالخفة والدفء في صدر إيثار.

لقد واجه أحد أقدم أشباحه، وفهم جزءًا جديدًا من نفسه.

"أحسنت"، قال قارئ الظل الذي ظهر بجانبه بهدوء.

"لقد فهمت أن بعض جدران سجنك أقدم ممّا كنت تظن. والآن، حان الوقت لتجد شيئًا لم تبنه أنت".

تغيّر المشهد من حوله مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يكن التغيير عنيفًا، بل كان انسيابيًا، كأن الغرفة تذوب وتتشكل من جديد.

وجد نفسه أمام مبنى مختلف تمامًا عن بقية مباني المدينة.

لم يكن قديمًا أو متداعيًا، بل كان يبدو... عاديًا.

مبنى سكني بسيط بواجهة نظيفة، يشبه تمامًا مباني الواقع.

"ما هذا المكان؟" سأل إيثار.

"هذا المكان ليس من صنعك بالكامل"، أجاب قارئ الظل.

"لقد سحبته روحك إلى هنا عندما بنيت المدينة، لأنه كان مهمًّا جدًّا، ومرتبطًا بها ارتباطًا وثيقًا. هذه شقة ليلى".

شعر إيثار بصدمة، كأن تيارًا كهربائيًا سرى في جسده.

دخل ببطء، وكل شيء كان كما يتذكره بدقة مؤلمة: ألوان الجدران الهادئة، مجموعة الكتب المبعثرة على طاولة القهوة، رائحتها الخفيفة التي كانت مزيجًا من الياسمين والورق القديم، والتي بدت حقيقية بشكل لا يُطاق.

لم يكن هذا المكان مشوّهًا كبقية المدينة، كان واحة من الواقعية، قطعة من العالم الحقيقي مزروعة في قلب الوهم.

على مكتبها الصغير بجوار النافذة، كان هناك دفتر مذكرات جلدي بنيّ لم يره من قبل.

تردّد، شاعرًا بأنه ينتهك حُرمة مقدسة، بأن هذا الدفتر هو الجزء الوحيد منها الذي لم يكن يعرفه.

لكن قارئ الظل همس من خلفه:

"الحقيقة التي تبحث عنها ليست كلها بداخلك يا إيثار. بعضها كان بداخلها هي".

بيدين مرتجفتين، فتح إيثار الدفتر.

كانت الصفحات مليئة بخط يد ليلى الأنيق والمائل قليلاً.

لم تكن مذكرات عادية تسرد الأحداث اليومية، بل كانت مليئة بالأفكار، الأحلام، والمخاوف.

وفي الصفحات الأخيرة، تغيّرت النبرة بشكل ملحوظ:

"... أشعر بالتعب مؤخرًا. ليس مجرد إرهاق عمل، بل شيء أعمق، شيء يسكن في عظامي.

الأطباء يقولون إنه الإجهاد، لكنني أشعر به كظل يتبعني، ليس في الخارج، بل في داخلي.

لم أخبر إيثار. كيف يمكنني أن أضيف همًّا جديدًا إلى عالمه؟

هو يرى العالم بالفعل مكانًا قاسيًا، وأنا أريد أن أكون نوره، لا ظلامه...

... اليوم، قال الطبيب إن عليّ إجراء المزيد من الفحوصات.

هناك شيء في نبرة صوته، شيء لا يريدون إخباري به بوضوح.

أشعر بالخوف. ليس من الموت، بل من ترك إيثار وحيدًا.

أعرف خوفه من العالم، خوفه الذي يحمله منذ طفولته، والذي رأيته اليوم في عينيه عندما تحدّثنا عن المستقبل.

أخشى أن ينهار بدوني.

أحيانًا أشعر أن حبّي له هو كل ما يُبقيه متماسكًا..."

أغلق إيثار الدفتر، وشعر بأن الأرض تميد به.

لقد كان يعيش في وهم مزدوج.

لم يكن يهرب من ذنبه في الحادث فقط، بل كان يهرب من حقيقة لم يكن يعرفها أصلاً:

حقيقة أن ليلى كانت مريضة، وأنها كانت تخوض معركتها الخاصة بصمت، وأنها كانت تخفي عنه كلّ ذلك خوفًا عليه.

لقد كان يرى نفسه كالحامي الذي فشل، بينما كانت هي في الحقيقة من تحميه بصمتها، بجدار من الحب والأسرار.

نظر إيثار من نافذة شقة ليلى إلى مدينته الضبابية.

لم تعد مجرد انعكاس لألمه، بل أصبحت الآن انعكاسًا لجهله أيضًا.

لقد بنى سجنًا من حزنه، بينما كانت هناك قصة كاملة، قصة ليلى، تحدث في الظل ولم يرها قط.

"الحقيقة مؤلمة يا إيثار"، قال قارئ الظل للمرة الأخيرة في ذلك اليوم. "وأحيانًا، تكون أكثر تعقيدًا مما نتخيّل".

لم يكد قارئ الظل ينهي جملته، حتى اهتزّت الأرض تحت قدمي إيثار بعنف.

لم يكن اهتزازًا كالذي شعر به من قبل، لم يكن نابعًا من غضبه أو خوفه.

كان اهتزازًا خارجيًا، كأنّ المدينة نفسها تتفاعل مع هذه الحقيقة الجديدة.

تشقّقت جدران شقة ليلى، وبدأ الضباب في الخارج يتكثّف ويأخذ لونًا داكنًا، محمرًّا، كلون الدم الجاف.

"ماذا يحدث؟" صرخ إيثار، ممسكًا بالمكتب ليحافظ على توازنه.

"المدينة تتغيّر"، أجاب قارئ الظل، وصوته لأول مرة يحمل نبرة تشبه القلق.

"لقد كشفتَ عن حقيقة لم تكن جزءًا من تصميمك الأصلي. لقد أدخلت متغيّرًا جديدًا، وهذا يزعزع استقرار هذا العالم.

هناك شيء يستيقظ الآن... شيء أقدم من ذنبك وخوفك".

من بعيد، من قلب الضباب المتصاعد، سمع إيثار صوتًا لم يسمعه من قبل.

لم يكن همسًا أو صدى، بل كان هديرًا منخفضًا وعميقًا، هدير كائن ضخم يستيقظ من سبات طويل،

كأن قلب المدينة المظلم قد بدأ ينبض.

"إنه حارس المدينة"، قال قارئ الظل، مشيرًا بيده التي بلا أصابع نحو النافذة.

"الكيان الذي تغذّى على كلّ ألمك بصمت.

لم يكن يمانع وجودك طالما كنت سجينًا يائسًا.

لكن الآن، أنت تبحث عن الحقيقة، والحقيقة تهدّد وجوده. إنها تهدّد بتدمير مملكته".

نظر إيثار عبر النافذة، ورأى شيئًا يتحرّك في الضباب المحمرّ.

لم يكن يراه بوضوح، لكنه رأى هيئة ضخمة، أكبر من أي مبنى، كأنها جبل يمشي.

كانت تتحرك ببطء، وكل خطوة من خطواتها كانت تسبّب الاهتزازات العنيفة التي شعر بها.

"يجب أن نخرج من هنا!" صرخ إيثار، ممسكًا بدفتر المذكرات وكأنه أثمن ما يملك.

"لا يمكنك الهروب منه داخل المدينة"، قال قارئ الظل بصرامة.

"لكن يمكنك الاختباء.

هذه الشقة، لأنها جزء من ذكريات ليلى الحقيقية، هي نقطة عمياء بالنسبة له.

إنه لا يراها بوضوح. إنها واحتك الآن، لكنها لن تصمد طويلًا".

اهتز المبنى مرة أخرى بعنف أشد، وسقطت الكتب من على الرفوف.

ظهر شرخ كبير في السقف، وبدأت قطع من الجص تتساقط.

كان الهدير الآن أقرب، وأكثر تحديدًا، يحمل في طيّاته غضبًا بدائيًا.

أدرك إيثار في تلك اللحظة أن رحلته لم تعد مجرد استكشاف لعقله.

لقد تحوّلت إلى معركة من أجل البقاء.

اكتشافه لحقيقة ليلى لم يكن نهاية الطريق، بل كان بداية فصل جديد وأكثر خطورة.

لم يعد يواجه أشباحه الشخصية فحسب، بل أصبح عليه الآن مواجهة حارس هذا السجن، الكيان الذي استيقظ للدفاع عن مملكته.

وهكذا، انتهى اليوم الأول من رحلة إيثار الاستكشافية.

لم يجد الخلاص، بل وجد أسئلة جديدة وألغازًا أعمق، وعدوًّا حقيقيًا يتربّص به في الخارج.

لم يعد الأمر يتعلّق بذنبه فقط، بل أصبح يتعلّق بالحقيقة الكاملة لماضي ليلى،

وبدأ يدرك أن تحرير نفسه من هذه المدينة يتطلّب مواجهة هذا العدو، وليس مجرد ظلال في عقله.

لقد أصبح الآن سجينًا ومحاربًا في آنٍ واحد،

محاصرًا في واحة صغيرة من الحقيقة، بينما الوحش الذي خلقه يأسه يطوف في الخارج، جائعًا، وغاضبًا.

(4)

حراس التوازن

الهدير العميق لحارس المدينة لم يكن مجرد صوت، بل كان قوة مادية، موجة صدمة اهتزّت لها أساسات شقة ليلى الهشّة.

تشقّقت الجدران كأنها عروق جافّة، وتساقط الغبار من السقف كثلج رمادي، بينما كان الضباب في الخارج يزداد قتامة، يتحوّل من الرمادي إلى لون الدم الجاف، لون يوحي بالخطر والغضب.

كان إيثار ممسكًا بدفتر المذكرات، يشعر بأن وزنه لا يقتصر على الورق والحبر، بل يحمل ثقل حياة كاملة لم يكن يعرفها، ثقل تضحية صامتة جعلت من مأساته تبدو أنانية بشكل مؤلم.

"يجب أن نخرج من هنا!" صرخ إيثار، وصوته ضاع وسط صوت اهتزاز جديد، أشدّ عنفًا من سابقه، صوت كشط الصخور العملاق الذي جعل أسنانه تصطك.

"لا يمكنك الهروب منه داخل المدينة"، قال قارئ الظل بصرامة، وهو يشير بيده التي بلا أصابع نحو النافذة، حيث كانت هيئة جبلية ضخمة وغير واضحة المعالم تتحرك ببطء وسط الضباب.

"لكن يمكنك الاختباء. هذه الشقة، لأنها جزء من ذكريات ليلى الحقيقية، هي نقطة عمياء بالنسبة له. إنه لا يراها بوضوح. إنها واحتك الآن، لكنها لن تصمد طويلاً".

وكأن كلماته كانت نبوءة، انشقّ جدار الشقة فجأة، ليس بانهيار، بل كأن ستارة تمزّقت.

اندفع عبر الشقّ مجسّ ضخم مصنوع من الظلام المتجسّد والحجارة المتآكلة التي تشكّل شوارع المدينة.

لم يكن مجسَّا حقيقيًا، بل كان امتدادًا لإرادة الحارس، أداة استشعار عمياء تبحث وتتحسّس الفراغ بحثًا عن الخلل، عن الحقيقة التي تسرّبت إلى هذا العالم.

تجمّد إيثار في مكانه، قلبه يخفق بعنف كطائر محبوس، لكن قارئ الظل دفعه بقوة نحو باب خلفي في المطبخ، باب لم يلاحظه من قبل، كان يبدو عاديًا جدًا لدرجة أنه لم يكن ينتمي إلى هذا المكان.

"هناك طريق آخر. طريق لا يعرفه الحارس لأنه ليس من صنعك وحدك. إنه ينتمي إلى نظام أقدم".

دفع إيثار الباب واندفع عبره، ليجد نفسه ليس في ممر عادي، بل في فضاء غريب، ممرّ يتحدى قوانين الفيزياء.

كانت الأرضية والجدران والسقف مصنوعة من ضوء باهت ومتغيّر، كأنه يسير داخل شعاع من ضوء القمر المتجمّد.

كان الهواء هنا هادئًا وباردًا، وهدير الحارس بدا بعيدًا ومكتومًا، كأنه صوت عاصفة رعدية تحدث على بعد أميال.

شعر إيثار بالسكينة النسبيّة، لكنه شعر أيضًا بأنه غريب، دخيل على هذا المكان الهندسي النقي.

"أين نحن؟" همس إيثار، وهو يلهث ويستند إلى أحد الجدران المضيئة، التي شعر بأنها باردة وصلبة تحت يده.

"نحن في الممرات البينية"، أجاب قارئ الظل وهو يسير بجانبه، وهيئته السوداء بدت أكثر قتامة على خلفية الضوء الأبيض.

"هذه الممرات هي بقايا المنطق في عالمك المنهار. إنها الهيكل العظمي لهذا الواقع، تربط بين الأماكن التي تحمل حقيقة موضوعية، مثل غرفة طفولتك أو شقة ليلى. إنها شرايين النظام في قلب الفوضى التي خلقتها".

سارا في صمت عبر الممرّ المضيء، الذي كان يمتد أمامهما في خط مستقيم لا نهاية له.

لم يكن هناك أي صوت سوى همهمة خفيفة ومنتظمة، كأنها طنين كهربائي هادئ.

كان هذا التناقض الصارخ مع فوضى المدينة وهدير الحارس مربكًا ومريحًا في آنٍ واحد.

بعد ما بدا وكأنه دهر من المشي، بدأت تظهر نهاية للممر، لم تكن بابًا، بل كان الضوء يزداد سطوعًا حتى تحوّل إلى فتحة دائرية بيضاء.

عبرا من خلالها، ليجدا نفسيهما في ساحة دائرية واسعة، هادئة بشكل مهيب.

كانت الأرضية مصقولة كالمرآة السوداء، والسقف كان قبة شاهقة مرصّعة بما يشبه النجوم، لكنها كانت ثابتة وباردة.

في وسط الساحة، كانت تقف ثلاثة أشكال غريبة.

لم يكونوا كائنات حيّة بالمعنى التقليدي، بل كانوا تماثيل ضخمة، أطول من الإنسان بمرّتين، منحوتة من مادة شفافة تشبه الكريستال، لكنها كانت تتوهّج من الداخل بضوء أبيض نقي وهادئ.

كانت أشكالهم تشبه البشر، لكن ملامحهم كانت مجردة تمامًا، خالية من أي تعابير، وجوه ناعمة كالمرايا المصقولة.

"من هؤلاء؟" سأل إيثار، شاعرًا برهبة عميقة تجعله يخفض صوته إلى همس.

"هؤلاء هم حُرّاس التوازن"، أجاب قارئ الظل. "هم ليسوا جزءًا من ألمك أو ذنبك. هم تجسيد للقوانين الكونية التي تحاول فرض النظام على الفوضى التي خلقتها. إنهم بقايا عقلك العقلاني، القوة التي قاومت الجنون الكامل، والتي استيقظت الآن بسبب الخطر الذي يهدد هذا الواقع بأكمله".

اقترب إيثار ببطء من التماثيل، وكل خطوة كانت تزيد من شعوره بالهالة الغريبة التي تنبعث منهم.

كانت هالة من الهدوء والسكينة، لكنها كانت تحمل في طياتها شعورًا بالثقل، بمسؤولية كونية، ببرودة المنطق الخالي من العاطفة.

عندما وصل إلى مسافة قريبة، توقف التوهج الخافت، وبدأت أصوات خافتة تنبعث منهم، أصوات متناغمة تشبه الهمس، لكنها كانت واضحة تمامًا في الصمت المُطبِق للساحة، وكانت تحمل في طياتها حكمة قديمة وباردة.

"لقد ضللتِ طريقك يا إيثار"، قال التمثال الأول، وصوته كان عميقًا ورنانًا، كأنه قادم من أعماق الأرض، يهتز في صدر إيثار نفسه.

"لقد بنيتَ جدرانًا حول نفسك، جدرانًا من الوهم، لتحمي نفسك من حقيقة بسيطة. والآن، استيقظ حارس سجنك، الكيان الذي هو نِتاج مباشر لفوضاك".

"لقد فقدتَ توازنك"، قال التمثال الثاني، وصوته كان حادًّا وواضحًا، كأنه صوت زجاج يتكسر، كل كلمة كانت دقيقة كَشفرة.

"لقد سمحتَ للعاطفة الخام أن تسيطر عليك، أن تُغذّي الوحش الذي ينام في أساسات هذا العالم.

اكتشافك لحقيقة ليلى لم يكن مجرد معرفة، بل كان حدثًا زعزع أركان هذا الواقع. لقد أدخلتَ قوة - حبها وتضحيتها - لا تنتمي إلى معادلة الألم التي بنيتَ عليها كل شيء".

"والآن، حان وقت الاختيار"، قال التمثال الثالث، وصوته كان هادئًا ومنطقيًّا، خاليًا من أي عاطفة، لكنه كان يحمل في طياته قوة لا تُقاوَم، قوة الحقيقة المُطلقة.

"إما أن تظل هاربًا، وتنتقل من واحة حقيقة إلى أخرى حتى يلتهمك الحارس ويستوعبها في فوضاه، أو أن تستعيد توازنك، وتواجه الحقيقة، ليس لتحرير نفسك فقط، بل لهزيمة ما خلقته".

شعر إيثار وكأن كلماتهم تخترق روحه، لا لتكشف عن مخاوفه وذنوبه كما فعلت أشباحه، بل لتقدم له تحليلاً باردًا وموضوعيًا لموقفه.

لقد كان يهرب، لكن هروبه الآن لم يعد خيارًا استراتيجيًّا.

"ماذا يجب أن أفعل؟" سأل إيثار، وصوته هذه المرة لم يكن مليئًا باليأس، بل بالبحث عن استراتيجية، عن خطة عمل.

"عليك أن تتذكر"، قال التمثال الأول.

"تذكّر كل شيء. ليس فقط ألمك، بل قوتك أيضًا. تذكّر اللحظات التي كنتَ فيها متوازنًا، اللحظات التي كنتَ فيها منطقيًّا وحاسمًا. تلك هي الأسلحة التي نسيتها، وهي موجودة في مبانٍ أخرى في مدينتك، مبانٍ لم تجرؤ على زيارتها".

"وعليك أن تقبل"، قال التمثال الثاني.

"اقبل أن ليلى كانت أقوى مما ظننت. اقبل أن حزنك ليس العاطفة الوحيدة هنا. هناك حبها، وشجاعتها، وتضحيتها. هذه حقائق جديدة، ومصادر قوة جديدة لك. يجب أن تدمج حقيقتها مع حقيقتك لتكتمل الصورة".

"وعليك أن تتحرر"، قال التمثال الثالث.

"تحرر من دور الضحية. أنت لستَ ضحية، أنت خالق هذا العالم، وبالتالي، أنت الوحيد القادر على تدميره أو السيطرة عليه.

الحارس يتغذى على فوضاك، على حزنك وغضبك وخوفك. استعد توازنك، استخدم المنطق والهدوء، وسوف تُجوِّعه، تُضعفه".

بينما كان حُرّاس التوازن يتحدثون، بدأت الساحة من حولهم تتغير.

لم تعد هادئة، بل بدأت جدرانها الكريستالية تعرض صورًا وهلاوس، ليست هلاوس إيثار العشوائية والمشوّهة، بل كانت منظمة وواضحة.

رأى وجه ليلى يبتسم، ثم رأى شبح طفولته الخائف، ثم رأى انعكاسه المكسور في المرآة.

كانت الصور تتراقص، تتداخل، كأن الحُرّاس يعرضون عليه كل مكونات روحه على شاشة عملاقة.

لكن هذه المرة، لم يهرب إيثار. لم يُغمض عينيه.

بل واجه الصور، نظر إليها مباشرة، وبدأ يرى الروابط بينها.

خوف طفولته هو ما جعله يعتمد على قوة ليلى. وفقدانه لقوتها هو ما حطم صورته عن نفسه.

وبدلاً من أن يخشى هذه الصور، بدأ يفهمها، يُحلّلها كما لو كانت معادلة رياضية معقدة.

"لا تخف يا إيثار"، قال قارئ الظل، الذي كان يقف في الظل كعادته.

"هذه الهلاوس ليست أعداءك، بل هي مرآة لروحك".

"والحُرّاس يعلمونك الآن كيف تقرأ ما فيها، كيف تفصل بين المتغيرات والثوابت".

في تلك اللحظة، شعر إيثار بقوة غريبة تنبعث من داخله. لم تكن قوة عاطفية كالغضب أو الحزن، بل كانت قوة عقلية، قوة الوضوح والإرادة، شعورًا بالهدوء البارد في عين العاصفة.

كان مستعدًا لمواجهة كل شيء، ليس باندفاع عاطفي، بل بخطة.

توقّف عرض الصور، وعاد الهدوء إلى الساحة. نظر إيثار إلى الحُرّاس، الذين عادوا إلى توهّجهم الصامت. لقد انتهى الدرس.

"الحارس يبحث عنك الآن"، قال قارئ الظل.

"إنه يطوف في شوارع ذنبك وغضبك، الأماكن التي يعرفها جيدًا.

لكنك الآن تعرف شيئًا جديدًا. أنت تعرف أن هناك أماكن لا يستطيع الوصول إليها، وتعرف أن لديك أسلحة غير الحزن".

وهكذا، استمر إيثار في رحلته، لكنها لم تعد رحلة هائمة.

خرج من ساحة الحُرّاس عائدًا إلى الممرات البينيّة، برفقة قارئ الظل، وتحت أنظارهم الصامتة.

لم يعد هاربًا، بل أصبح متسللاً في مملكته.

كانت الرحلة لا تزال طويلة، ومليئة بالمخاطر، لكنه لم يعد وحيدًا أو ضائعًا.

كان لديه مرشد، وكان لديه هدف، والأهم من ذلك، كان لديه بداية لخطة:

أن يجد المزيد من واحات الحقيقة، وأن يستخدمها ليس فقط للاختباء، بل لشن هجوم مضاد على الظلام الذي خلقه، باستخدام سلاح جديد لم يكن يعلم أنه يمتلكه: التوازن.

(5)

جسور الذكريات

بعد أن غادر ساحة حُرّاس التوازن، لم يعد إيثار مجرّد هارب في مملكته، بل أصبح متسلّلاً له هدف.

قاده قارئ الظل عبر الممرّات البينيّة المضيئة، ذلك الهيكل العظميّ المنطقيّ الذي يتخلّل فوضى المدينة.

كان يسير داخل ممرّ لا نهائيّ من الضوء الأبيض المتجمّد، بينما كان هدير الحارس الغاضب يتردّد من بعيد، ليس كصوت واضح، بل كاهتزاز عميق يشعر به في باطن قدميه، نبض قلب العالم المريض الذي تركه خلفه.

"الحارس يبحث عنك في شوارع حزنك"، قال قارئ الظل، وصوته كان هادئًا وثابتًا، يمتصّ الضوء من حوله.

"إنه يمشّط كلّ زقاق من الغضب وكلّ ساحة من اليأس. لكنه لا يستطيع دخول هذه الممرّات. الآن، حان الوقت لتطبيق ما تعلّمته. حان الوقت لتتذكّر، وتقبل، وتتحرّر. حان الوقت لتسليح نفسك قبل أن تجدك فوضاك".

قاده قارئ الظل إلى مخرج جديد، فتحة ضوئيّة أفضت بهما إلى منطقة لم يرها من قبل.

كانت منطقة مهيبة وهادئة، عبارة عن مكتبة ضخمة لا نهائيّة، تمتدّ في كلّ الاتجاهات حتى تضيع في الأفق.

لم تكن الرفوف تحمل كُتبًا، بل كانت تحمل مكعّبات كريستاليّة متوهّجة، كلّ مكعّب يعرض صورة ثابتة، قرارًا من ماضي إيثار، كأنّها عيّنات محفوظة من لحظات حاسمة.

كان الهواء هنا باردًا ورقيقًا، ورائحته تشبه رائحة الأوزون بعد عاصفة رعديّة.

"أين نحن؟" همس إيثار، مبهورًا بالمشهد الذي يبعث على الرهبة والسكينة في آنٍ واحد.

"هذا مبنى القرارات المنسيّة"، أجاب قارئ الظل. "هنا لا يوجد حزن أو فرح، بل فقط المنطق والقوّة. لقد نصحك الحُرّاس بأن تتذكّر قوّتك. في هذه المكعّبات توجد كلّ اللحظات التي كنتَ فيها حاسمًا، قويًّا، متوازنًا. لحظات دفنتَها ونسيتَها تحت وطأة حزنك، معتقدًا أنك لم تكن سوى رجلٍ ضعيف يعتمد على قوّة الآخرين".

بدأ إيثار يسير ببطء بين الممرّات الشاهقة، التي كانت تشبه الأخاديد في جبلٍ من الكريستال.

كان ينظر إلى المكعّبات، وكلّ واحدٍ منها كان نافذة على نسخة منسيّة من نفسه.

رأى نفسه في صورة وهو يرفض عرضَ عملٍ مُغرٍ لكنه غير أخلاقيّ، متحمّلاً العواقب الماليّة بكرامة.

رأى نفسه في صورة أخرى وهو يواجه متنمّرًا في الجامعة دفاعًا عن صديق، على الرغم من الخوف الذي كان يشعر به.

رأى نفسه وهو يتّخذ قرارًا صعبًا بإنهاء علاقة صداقة سامة كانت تستنزفه.

كلّ مكعّب كان يمثّل لحظة قوّة، قرارًا صحيحًا اتّخذه في الماضي.

بدأ يشعر بشيء غريب، شيء لم يشعر به منذ زمنٍ طويل: الاحترام لنفسه.

لم تكن هذه ذكريات عاطفيّة، بل كانت أدلّة، براهين ماديّة على قدرته على الصمود.

[انتقال مرآة]

في غرفة المستشفى، حيث يرقد جسد إيثار الحقيقي، تغيّرت قراءة جهاز مراقبة القلب.

استقرّت نبضاته، وأصبحت أكثر انتظامًا وقوّة.

لاحظت الممرّضة التغيّر على الشاشة، وعلت وجهها نظرة حيرة. تفحّصت الأجهزة، ثم دوّنت ملاحظة في الملف: "استقرار ملحوظ وغير مبرّر في المؤشّرات الحيويّة. النبض وضغط الدم يشيران إلى حالة من الهدوء والتركيز، لا حالة غيبوبة".

كانت تنظر إلى وجهه الهادئ، وتشعر بأن هناك معركة تدور رحاها خلف تلك العينين المغمضتين، معركة بدأ يربح فيها.

توقّف إيثار أمام مكعّبٍ معيّن كان يتوهّج بقوّة أكبر من البقيّة، ينبض بضوء دافئ.

تردّد للحظة، ثم لمسه.

غمرته الذكرى، ليس كصورة، بل كتجربة كاملة.

لقد كانت ليلة قبل الحادث بأسابيع؛ كان يجلس مع ليلى في شرفتهما الصغيرة، والمدينة تمتدّ تحتهما بأضوائها المتلألئة.

كان يتحدّث معها عن مخاوفه من المستقبل، عن خوفه من الفشل الذي ورثه عن طفولته، الخوف من وحش الخزانة الذي تحوّل إلى خوف من فواتير البنك وضغوط الحياة.

لكن في تلك الليلة، حدث شيء مختلف. بدلاً من الاستسلام للخوف، نظر في عينيها اللتين كانتا تعكسان أضواء المدينة، ورأى فيهما ثقة مطلقة به.

استمدّ من تلك الثقة قوّة لم يكن يعلم أنّه يمتلكها، وقال بصوت ثابت: "مهما حدث، سنجد طريقة. أنا وأنتِ، معًا".

في تلك اللحظة، شعر إيثار بقوّة تلك الكلمات، بقوّة قراره بأن يكون سندًا لها، لا عبئًا عليها.

أدرك أن القوّة لم تكن شيئًا تمنحه ليلى له، بل كانت شيئًا يمتلكه بالفعل، شيئًا أيقظه حبّه لها.

ومع هذا الإدراك، شعر بأن جزءًا من توازنه المفقود قد عاد إليه، كأنّ عمودًا فقريًا من الفولاذ قد تشكّل في روحه.

"لقد تذكّرتَ قوّتك"، قال قارئ الظل. "والآن، حان وقت قبول قوّتها هي".

تغير المشهد حوله، ووجد نفسه مرة أخرى في شقة ليلى، واحة الواقعية في قلب الوهم. لكن هذه المرة، لم تكن الشقة هادئة. كان هدير الحارس مسموعًا من الخارج، أقرب من ذي قبل، والجدران تهتز بشكل خفيف ومنتظم، كأن وحشًا ضخمًا يتنفس بجوار المبنى.

"إنه يطوّق هذا المكان"، قال قارئ الظل. "لقد شعر بوجود هذه الحقيقة التي لا تنتمي إليه، ويريد ابتلاعها. ابحث بسرعة يا إيثار. هناك شيء آخر هنا، حقيقة أعمق لم تكتشفها بعد".

بينما كان الحارس يضرب بجسده الضخم على حدود هذه الواحة، مسببًا اهتزازات عنيفة جعلت الأطباق تهتز في المطبخ، بدأ إيثار يبحث

بشكل محموم. قاده حدسه إلى خزانة ملابسها. خلف صف من الفساتين التي ما زالت تحمل رائحتها الخفيفة، وجد صندوقًا خشبيًا صغيرًا لم يره من قبل. فتحه، ليجد بداخله ليس فقط المزيد من المذكرات، بل مجموعة من علب الأدوية الفارغة وتقارير طبية مطوية بعناية.

رأى الأسماء على العلب، وبحث عن تشخيص المرض في التقارير. كانت الكلمات معقدة، لكن المعنى كان واضحًا بشكل مدمر. لم يكن مرضًا بسيطًا أو إجهادًا. لقد كان مرضًا خطيرًا، مرضًا كان يفتك بها ببطء، وكانت تتلقى علاجًا تجريبيًا قاسيًا، علاجًا كانت آثاره الجانبية تشمل الدوار والإرهاق الشديد.

[انتقال مرآة]

في غرفة المستشفى، دخل الطبيب المسؤول وهو يراجع ملف إيثار. توقف عند ملاحظة الممرضة عن استقرار حالته المفاجئ. ثم نظر إلى ملف آخر كان يحمله، ملف ليلى. تنهد بحزن وهو يقرأ التشخيص النهائي الذي وصل بعد وفاتها، والذي أكد أن العلاج التجريبي لم يكن لينقذها، وأن الحادث المأساوي قد أنهى معاناة كانت ستطول وتصبح أكثر إيلامًا.

"لو عرف الحقيقة فقط"، همس الطبيب لنفسه وهو ينظر إلى إيثار. "ربما كان سيجد السلام. ربما كان سيفهم أنها لم تتركه، بل أنقذته من رؤية النهاية الحتمية".

في مدينة الأوهام، سقط إيثار على ركبتيه، والأوراق متناثرة حوله. الحقيقة الكاملة كانت كالصاعقة. لم تكن ليلى تخفي عنه مرضها فحسب، بل كانت تخوض حربًا يائسة بمفردها. والآن، فهم سبب الحادث بشكل

مختلف. لم يكن مجرد حادث، بل كان نتيجة حتمية لمعركتها الصامتة. هل كان إرهاقها من العلاج هو ما جعلها تفقد التركيز على الطريق؟

لقد قبل حقيقة مرضها، والآن عليه أن يقبل حقيقة أن ذنبه كان أكثر تعقيدًا وجهلاً مما تصور. لم يكن ذنب فشله في حمايتها من حادث، بل ذنب فشله في رؤية معركتها التي كانت تخوضها أمام عينيه.

"لقد قبلت الحقيقة"، قال قارئ الظل، بينما كان صوت ارتطام عنيف يهز الشقة بأكملها، وصوت زجاج النافذة يتشقق. "والآن، عليك أن تتحرر بإرادتك".

فجأة، انهار أحد جدران الشقة بالكامل، وكشف عن وجه الحارس. لم يكن وجهًا بالمعنى الحرفي، بل كان دوامة من الظلام والحجارة المتكسرة، وفي مركزها عين حمراء واحدة، مشتعلة بالغضب والكراهية الخالصة.

لم يهرب إيثار. لم يصرخ. لقد تذكر قوته، وقبل حقيقتها. نهض على قدميه، ووقف في الفجوة التي أحدثها الحارس، بين واقع شقة ليلى وفوضى مدينته.

"أنت تتغذى على حزني"، قال إيثار بصوت هادئ وبارد، صوت لم يكن يعرف أنه يمتلكه. "لكن هناك ما هو أكثر من الحزن الآن. هناك حبها. هناك قوتي. وهذه أشياء لا يمكنك هضمها".

مدَّ الحارس مجسًّا ظلاميًّا نحوه، لكن إيثار لم يتراجع. ركَّز على صورة ليلى في ذهنه، ليس صورتها المريضة، بل صورتها القوية التي كانت تحميه بصمتها. ركز على شعوره بالقوة عندما قرر أن يكون سندًا لها. ومن هذا المزيج من الذاكرة والحب، وُلدت قوة جديدة: إرادة صلبة كالفولاذ.

مد يده إلى الأمام، وتخيَّل درعًا من الضوء الأبيض النقي، نفس ضوء حراس التوازن، يتشكل أمامه. اصطدم المجس بالدرع، ليس بصدام مادي، بل بصدام بين إرادتين. ولأول مرة، لم يخترق الظلام دفاعات إيثار. بل تراجع، مُصدرًا هديرًا من الإحباط والألم، كأن الضوء قد أحرقه.

تراجع الحارس خطوة إلى الوراء، وأعاد بناء الجدار المنهار، ليس ليحمي إيثار، بل ليعزل هذه الواحة الخطيرة، ليحتوي هذا التهديد الجديد الذي لم يعد يفهمه.

وقف إيثار يلهث، يشعر بإرهاق لم يشعر به من قبل، لكنه كان إرهاق المنتصر. لقد واجه الحارس، ولو للحظة، ونجا. لم يعد سجينًا، بل أصبح قوة يُحسب لها حساب.

"لقد بدأت تفهم"، قال قارئ الظل، وصوته يحمل نبرة نادرة من الإعجاب. "الرحلة لم تنتهِ، لكن موازين القوى قد بدأت تتغير".

وهكذا، في قلب شقة ليلى، التي أصبحت الآن قلعته، أدرك إيثار أن المعركة القادمة لن تكون معركة هرب، بل معركة استعادة. استعادة مدينته، واستعادة نفسه، قطعةً قطعة، من براثن الوحش الذي خلقه.

(6)

حرب الواحات

الهدوء الذي شعر به إيثار بعد صدّ هجوم الحارس كان مؤقتًا وهشًّا، كالزجاج الرقيق الذي يُوشك أن يتشقق. كان يقف في شقة ليلى، التي أصبحت الآن قلعته ومركزه، ويشعر بأن المدينة بأكملها تحبس أنفاسها. لم يعد الهدير مسموعًا، لكن الصمت كان أثقل وأكثر تهديدًا، كأنه صمت مفترس يعيد تقييم فريسته، يدرس نقاط ضعفها قبل الانقضاض التالي.

"لقد تراجع، لكنه لم يُهزم"، قال قارئ الظل، الذي كان يقف كظل أعمق في زاوية الغرفة، يمتص الضوء الخافت المنبعث من ذكريات المكان. "لقد أدرك أن الهجوم المباشر على واحة حقيقية يُكلفه الكثير من الطاقة. سيُغيّر تكتيكاته الآن. سيبدأ حرب استنزاف".

"ماذا تقصد؟" سأل إيثار، وهو يمسك بدفتر مذكرات ليلى كأنه تميمة، أصابعه تتحسس الجلد البارد للغلاف.

"سيبدأ بمهاجمة الأماكن الأضعف في وعيك. الذكريات التي لم تُحصِّنها بعد، المخاوف التي لم تُواجهها. سيحاول تسميم مدينتك من الداخل، ليقطع عليك الطريق إلى واحات الحقيقة الأخرى، ويُجبرك على البقاء محاصرًا هنا حتى تضعف وتنهار. إنه يريد أن يخنقك في هذه الواحة، أن يُحوِّل ملاذك إلى قبر".

وكأن كلماته كانت إشارة البدء، شعر إيثار بوخز حاد في ذهنه. نظر من النافذة، ورأى الضباب في الخارج يتغير. لم يعد مجرد ضباب رمادي، بل أصبح يعرض صورًا مشوهة، كأنه شاشة سينما عملاقة ورطبة. رأى وجه والده الغاضب يصرخ فيه بسبب درجاته المنخفضة في المدرسة، والصوت بدا مكتومًا ومشوّهًا، لكن خيبة الأمل في عينيه كانت حادة كالشفرة. رأى

زملاء عملٍ سابقين يسخرون من فكرة قدمها في اجتماع، ضحكاتهم كانت تتعالى وتتردد في أرجاء المدينة. كانت ذكريات صغيرة ومؤلمة، إخفاقات وإهانات دفنها منذ زمن طويل، والآن يعرضها الحارس عليه، مكبرة ومشوهة، لتذكيره بأنه كان دائمًا فاشلاً في نظره، وأن فقدانه لليلى لم يكن سوى الفشل الأكبر في سلسلة طويلة من الإخفاقات.

"إنه يستخدم ماضيك ضدك"، قال قارئ الظل. "يجب أن تتحرك. يجب أن تصل إلى واحات الحقيقة الأخرى قبل أن يُفسدها، قبل أن يُحيطها بذكرياتك المسمومة ويجعلها غير قابلة للوصول".

نظر إيثار إلى مبنى "القرارات المنسية" الذي كان يلوح من بعيد، كأنه منارة كريستالية في بحر من الظلام، ثم إلى غرفة طفولته التي كانت تظهر وتختفي في الضباب. كانت هذه هي واحات الحقيقة التي يعرفها، لكنها كانت معزولة ومنفصلة، جُزرًا في محيط من اليأس.

"كيف أصل إليها وهو يسيطر على الشوارع؟"

"لا تستخدم الشوارع. الشوارع هي شرايينه، هي ملكه. استخدم ما تعلّمته من الحراس. استخدم التوازن. إذا كانت هذه الواحات هي جُزر الحقيقة، فعليك أن تبني جسورًا بينها. جسورًا من الضوء، مصنوعة من إرادتك وحدها".

أغمض إيثار عينيه، متجاهلاً الصور المسمومة التي يعرضها الحارس. ركّز على الشعور بالقوة الذي استمده من مبنى القرارات، وعلى شعور الحب والتضحية الذي وجده في شقة ليلى. مزج بين القوتين، قوة المنطق الباردة وقوة العاطفة الدافئة، وتخيل جسرًا من الضوء الأبيض النقي، نفس ضوء

درعه، يمتد من نافذة شقة ليلى، مخترقًا الضباب السام، ومتجهًا نحو مبنى القرارات المنسية. في البداية، لم يحدث شيء.

شعر بمقاومة، كأنه يدفع ضد جدار غير مرئي. كان الضباب يقاوم، يحاول إطفاء شرارة الضوء قبل أن تتكوّن. لكنه ثابر، مُركّزًا كل إرادته في تلك الصورة، مستمدًّا القوة من ذكرى وجه ليلى الواثق ومن قراراته الصائبة. ببطء، بدأ خيط رفيع من الضوء يتشكّل خارج النافذة، ثم ازداد سماكةً وقوةً، حتى أصبح جسرًا حقيقيًّا، متينًا ومضيئًا، يقطع الظلام كالسيف.

"أحسنت"، همس قارئ الظل. "الآن، اعبر".

سار إيثار على الجسر، وشعر بالدفء والأمان ينبعثان منه، بينما كانت أصوات السخرية والاتهام تتلاشى كلما ابتعد عن الشوارع المسمومة. وصل إلى مبنى القرارات، ودخل مرة أخرى إلى مكتبة قوته المنسية.

لكن هذه المرة، قاده قارئ الظل إلى قسم أعمق في المكتبة، قسم كان مخفيًّا خلف جدار من الكريستال المصقول. هنا، لم تكن المكعبات تعرض قراراته، بل كانت تعرض قرارات ليلى. رأى مكعبًا يعرض قرارها بالبدء في العلاج التجريبي، ورأى مكعبًا آخر يعرض قرارها بإخفاء الأمر عنه، وفي تلك الصورة كانت تبكي بصمت.

"لماذا؟" سأل إيثار، وصوته مليء بالألم. "لماذا أخفت كل هذا عني؟ ألم تثق بي؟"

"الثقة لم تكن المشكلة أبدًا"، قال قارئ الظل، مشيرًا إلى مكعب ثالث، كان مُعتِمًا وباردًا، كأنه قطعة من ليل لا نجوم فيه. "انظر جيدًا".

لمسه إيثار، وغمرته ذكرى ليست من ذكرياته هو، بل من ذكريات ليلى. رأى نفسها تقف أمام مرآة، تنظر إلى وجهها الشاحب، وإلى خصلات

شعرها التي بدأت تتساقط. لم تكن تفكّر في نفسها، بل كانت تفكّر فيه هو. كانت ترى مستقبله بدونها، ورأت سيناريوهين بوضوح مرعب:

سيناريو يراها فيه تذبل وتموت ببطء، فيتحطّم هو تحت وطأة العجز والحزن، ويقضي بقية حياته كرجل مكسور، تطارده ذكرى معاناتها. وسيناريو آخر، يموت فيه حبها فجأة، فيتألم، لكنه ينجو في النهاية، محافظًا على ذكرى قوية ومشرقة لها، ذكرى امرأة أحبّها، لا امرأة أشفق عليها. لقد اختارت السيناريو الثاني. لقد كان قرارها الأخير، تضحيتها الأخيرة.

"لقد بنت جزءًا من وعيها هنا، في مدينتك، لأنها كانت تعرفك"، قال قارئ الظل بهدوء. "كانت تعرف أنك ستبني هذا السجن لنفسك. لقد تركت لك هذه الأدلة، هذه الواحات، ليس لتنجو فقط، بل لتفهم. لتغفر لنفسك، ولتغفر لها قرارها بحمايتك من الحقيقة".

شعر إيثار بأن عالمه ينقلب رأسًا على عقب. لم تكن مجرد ضحية، بل كانت مهندسة مشاركة في خلاصه. نظر إلى قارئ الظل، الذي كان يقف صامتًا كعادته، لكن صمته الآن بدا مختلفًا، بدا وكأنه يحمل ثقلاً وانتظارًا.

"وأنت...؟" سأل إيثار. "هل كنت تعرف كل هذا طوال الوقت؟ من أنت حقًّا؟"

لأول مرة، التفت قارئ الظل نحوه بالكامل. لم تكن هيئته مجرد ظل، بل بدت وكأنها تحمل عمقًا، كأنها فضاء مُرصّع بالنجوم، مجرّة مصغّرة على شكل إنسان.

"أنا لست جزءًا من عقلك يا إيثار"، قال الكيان بصوت بدا قديمًا قدم الزمن، صوت كان مزيجًا من همس ليلى وقوة الحراس. "أنا لست صدى

ضميرك. أنا جزء منها هي. أنا الوعي الذي تركته خلفها لتحرص على أن تجد طريقك. أنا... قارئ ظلها هي، أرسلتني لأقرأ ظلك أنت".

هذه الحقيقة كانت أكبر من أي شيء واجهه إيثار. مرشده، ثابته الوحيد في هذا الجنون، لم يكن منه، بل كان منها. كان وصيتها الأخيرة، دليل حبها الذي تجاوز الموت.[انتقال مرآة] في غرفة المستشفى، بدأ جهاز تخطيط أمواج الدماغ، الذي كان شبه مسطّح، يظهر نشاطًا معقدًا ومفاجئًا. ارتفعت المؤشرات بشكل حاد، مما أثار قلق الأطباء. لم يكن نشاطًا عشوائيًّا، بل كان منظمًا، كأن دماغين يتحدثان، كأن وعيين يتّحدان في شبكة عصبية واحدة.

نظر الطبيب إلى الشاشة في حيرة تامة، وقال: "هذا مستحيل علميًّا".

في تلك اللحظة، اهتزت المدينة بأكملها بعنف غير مسبوق. لم يكن هجوم الحارس، بل كان شيئًا أعمق. لقد أدّى هذا الكشف النهائي إلى زعزعة أساسات الواقع نفسه. أمامه، ظهر خياران، لم يكونا بابين أو طريقين، بل كانا شعورين، إحساسين مطلقين يشدّانه في اتجاهين متعاكسين.

الأول كان شعورًا بالدفء والضوء، شعورًا بالعودة.

شعر بجسده الحقيقي في المستشفى، شعر بثقل الأغطية، وسمع صوت الأجهزة الخافت، وشمّ رائحة المطهّر الخفيفة. أدرك أنه يستطيع العودة الآن. يستطيع الاستيقاظ. لكن العودة تعني مواجهة الحقيقة النهائية: حقيقة عالمٍ بدون ليلى، حقيقة حياةٍ يجب أن يعيشها وحده، مسلّحًا بالذكريات فقط.

الثاني كان شعورًا بالقوة المطلقة، بالسيطرة. شعر بأنه يستطيع البقاء هنا، في هذه المدينة التي فهِمها الآن. يستطيع أن يهزم الحارس، وأن يصبح

هو الحارس الجديد لهذا العالم، يعيش إلى الأبد مع وعي ليلى، مع ذكراها الحيّة، في عالمٍ من صُنعهما معًا، لكنه عالمٌ وهمي، سجنٌ أبديّ وجميل.

العودة إلى الواقع المؤلم، أو البقاء في الوهم الكامل.

نظر إيثار إلى "قارئ الظل"، الذي كان ينتظر قراره بصمت. لقد أعطاه كل الأدوات، وكشف له كلّ الحقائق. والآن، جاء وقت الخيار المصيري، القرار الذي سيحدّد معنى كل ما مرّ به، ومعنى تضحية ليلى.

(٦)

فجر الذكرى

كان إيثار معلّقًا في الفراغ بين عالمين، بين خيارين مطلقين يشدّانه بقوة جاذبية كونية. العودة كانت نداءً دافئًا وحسّيًا من جسده، وعدًا بشمسٍ حقيقيةٍ تلسع الجلد وهواءٍ نقيّ يملأ الرئتين، لكنها كانت أيضًا وعدًا بفراغٍ مؤلم حيث كانت ليلى تقف، صمتٍ يصمّ الآذان في شقّتهما، وبرودةٍ في الجانب الآخر من السرير.

البقاء كان عرضًا مغريًا بالقوة والخلود، فرصةً للعيش في عالمٍ مثاليٍّ ومصقول مع وعي حبيبته، أن يصبح إلهًا على مملكته الخاصة، لكنه كان وهمًا، سجنًا ذهبيًا سيقضي فيه الأبدية هاربًا من الحقيقة، ومن معنى التضحية التي قدّمتها هي.

نظر إلى "قارئ الظل"، الذي كان الآن أكثر من مجرد ظل، كان حضورًا حيًّا، مجرةً مصغّرة من الذكريات والحب، وصيّة ليلى المتجسّدة. كان ينتظر، لا ليحكم، بل ليشهد على القرار الأخير الذي سيصقل روحه.

"لقد عرض عليّ الحراس خيارين"، قال إيثار، وصوته كان هادئًا، يحمل ثقل قراره ووضوحه. "لكن كلاهما شكل من أشكال الهزيمة. أحدهما هروبٌ إلى واقعٍ ناقص، والآخر هروبٌ إلى وهمٍ كامل. كلاهما يتجاهل ما بنيناه هنا. ما بنته هي من أجلي".

تحرّك إيثار، ليس نحو بوابة العودة الدافئة أو نحو عرش السيطرة البارد، بل نحو قلب المدينة نفسها، نحو الساحة المركزية التي كان يطوف فيها الحارس.

"أنا أرفض الخيارين. أنا أختار طريقًا ثالثًا".

"وما هو هذا الطريق؟" سأل قارئ الظل، وصوته الذي كان دائمًا هادئًا، حمل للمرة الأولى نبرةً تشبه الفضول، كأنّ هذا الاحتمال لم يكن مسجّلاً في برمجته الأصلية.

"ليس العودة أو البقاء. بل التحرير"، قال إيثار، وشعر بالكلمة تتردّد بقوة في أرجاء وعيه، كأنها موجةٌ صوتية تعيد تشكيل هندسة المكان. "هذه المدينة ليست سجنًا من الألم فقط. لقد كانت كذلك، لكنها الآن أيضًا نصبٌ تذكاريٌّ لحبّنا، لقوّتها، لتضحيتها. لن أهدمها، ولن أعيش سجينًا فيها. سأحرّرها. سأحوّلها من سجنٍ صنعه حزني، إلى حديقةٍ بنتها ذكراها".

مع هذا القرار، شعر إيثار بقوةٍ جديدة، قوةٍ لم تكن مجرد توازنٍ بين المنطق والعاطفة، بل كانت قوة الخلق نفسها، إرادةً واعية قادرة على فرض رؤيتها على هذا الواقع المرن.

مدّ يديه، ولم يتخيّل درعًا أو جسرًا، بل تخيّل ضوء الشمس. ليس أيّ ضوء، بل ضوء شمسٍ حقيقي ودافئ، نفس الضوء الذي كان يتسلل عبر ستائر شقة ليلى في الصباح، ويوقظها بلمسةٍ ذهبية.

بدأ الضوء ينتشر من إيثار، لا كشعاعٍ عنيف، بل كموجةٍ لطيفةٍ ودافئة. اجتاح الضوء الشوارع المظلمة، والمباني المتراقصة التي كانت تهتزّ مع كلّ نوبةِ خوفٍ أو غضب، بدأت تستقرّ وتثبت، كأنّها تتجذّر في أرضٍ صلبة.

الضباب السامّ، الذي كان يعرض مخاوفه وإخفاقاته، بدأ يتبدّد، ليس بالاحتراق، بل بالذوبان، كاشفًا عن سماءٍ صافيةٍ وهادئة فوق المدينة. لم تكن سماءً حقيقية، بل كانت سماءً مرسومة بلون الأمل، لونِ عيني ليلى عندما كانت تبتسم.

في وسط المدينة، ظهر الحارس مرةً أخرى، لكنه كان ضعيفًا ومضطربًا. كان النور يُجَوّعه، يُجرّده من قوّته التي استمدّها من الظلام والألم. كان يقف وسط الضوء المتنامي كقطعةٍ من ليلٍ عنيدٍ يرفض الرحيل.

أصدر هديرًا من اليأس، ليس هديرَ غضب، بل هديرَ كائنٍ جريح، واستعد لهجومٍ أخير، هجومٍ يائسٍ بكلّ ما تبقّى له من قوّة.

لكن إيثار لم يهاجمه، بل سار نحوه بهدوء، مخترقًا بقايا الظلام التي كانت تحيط به كوشاحٍ ممزّق.

"لقد فهمتُ الآن من أنت"، قال إيثار وهو يقف أمام الكيان العملاق، غير خائفٍ من حجمه أو من العين الحمراء التي كانت تحدّق فيه.

"أنت لستَ مجرد ألمي. أنت لستَ مجرد غضبي. أنت أيضًا خوفُها".

تجمّد الحارس، وعينه الحمراء الوحيدة اتّسعت، وفقدت جزءًا من توهّجها العدائي، وحلّ محلّه شيء يشبه الحيرة.

"أنت خوفُها من أن أتحطّم بدونها. أنت قلقُها عليّ، الذي تجسّد في عقلي وأصبح وحشًا. لقد تغذّيتَ على حزني، لكن بذرتك كانت من حبّها الحامي. ولهذا السبب، لن أدمّرك. كيف يمكنني أن أدمّر الجزء الذي كان يريد حمايتي؟"

مدّ إيثار يده المضيئة ولمس الحارس. غمرته موجةٌ من الذكريات، لكنها هذه المرة لم تكن ذكرياته هو، بل كانت ذكريات ليلى وهي تفكّر فيه بقلق، وهي تخشى عليه من وحدته، وهي تتمنّى لو تستطيع أن تبني له درعًا يحميه من قسوة العالم بعد رحيلها. لقد كان الحارس هو التجسيد المشوّه والمضخّم لحبّها الحامي.

تحت لمسة إيثار، بدأ الحارس يتغيّر. الظلام والحجارة المتآكلة بدأتا تتلاشيان، وتتحوّلان إلى مادة بيضاء ناعمة ودافئة، كأنها الرخام الذي تدفّئه الشمس. تقلّص حجمه، وتحولت هيئته الوحشية إلى تمثال مهيب وهادئ، تمثال لرجل وامرأة يحتضنان بعضهما البعض، يَحميان شعلة صغيرة من الضوء في وسطهما.

لم يعد حارسَ الألم، بل أصبح حارسَ الذكرى، النصب التذكاري المركزي في هذه الحديقة الجديدة.

مع تحوّل الحارس، اكتمل تحوّل المدينة. أصبحت مكانًا هادئًا وجميلاً، حديقةً من الذكريات الحيّة. مبنى القرارات أصبح مكتبةً مفتوحةً للجميع، وشقةُ ليلى أصبحت منارةً في وسطها، وجسورُ الضوء أصبحت تربط كل أجزائها، والأصواتُ المزعجة تحوّلت إلى همسٍ لطيفٍ للريح بين الأشجار التي بدأت تنمو في الشوارع.

"لقد فعلتها"، قال قارئُ الظل، الذي بدأ ضوؤه يخفت ببطء، كأن مهمته قد استُنفدت طاقتها.

"لقد حرّرتها. مهمتي هنا قد انتهت".

"هل سترحل؟" سأل إيثار، وشعر بوخزةِ حزنٍ حقيقية، حزنٍ على فقدان هذا الصديق والمرشد.

"وعيي سيعود إلى حيث أتى، إلى السكون العظيم. لكن جزءًا مني، وجزءًا منها، سيبقى هنا دائمًا، في هذه الحديقة التي خلقتها. يمكنك زيارتها متى شئت، ليس كهارب، بل كزائرٍ يبحث عن السكينة. والآن... حان وقت عودتك. حان وقت أن تعيش، حقًّا تعيش".

[الختام: المرآة]

في غرفة المستشفى، فتح إيثار عينيه.

الضوءُ الأبيض الساطع للغرفة آلم عينيه في البداية. سمع صوتَ الأجهزة المنتظم، وشمّ رائحة المطهّر. شعر بثقل جسده، بضعف عضلاته. كلّ شيءٍ كان حقيقيًّا بشكل مؤلم.

جلس ببطء، ونظر حوله. كانت الغرفة فارغة. لا يوجد قارئُ ظل، لا توجد مدينةُ أوهام. فقط هو، والواقعُ الصامت.

دخلت الممرضة وهي تحمل مزهرية، وعندما رأته مستيقظًا وعيناه صافيتان، اتّسعت عيناها من الصدمة، وأسقطت المزهرية التي تحطّمت على الأرض، مُحدثةً صوتًا مدوّيًا كسر الصمت الطويل.

بعد لحظاتٍ من الفوضى الهادئة، ودخول الطبيب الذي لم يُصدّق ما يراه، تُرك إيثار وحده مرةً أخرى.

نظر إلى النافذة، ورأى سماءً رماديةً تعد بيومٍ ممطر.

الحزن على فقدان ليلى كان حقيقيًّا، ثقيلاً كالجبل، لكنه لم يكن ساحقًا. كان حزنًا يستطيع أن يحمله، كأنه يحمل حقيبة سفرٍ عزيزة بدلاً من صخرةٍ تسحقه.

ثم، لمح شيئًا على الطاولة بجانب سريره.

لم تكن من بين الزهور التي أحضرها الزوار. كانت زهرةً واحدة، زهرةَ لوتس بيضاء نقيّة، بتلاتها مفتوحة بالكامل، وتتوهّج بضوءٍ خافتٍ وغير واقعي، كأنها قطعة من عالمٍ آخر.

كانت زهرةً غير موسمية، ومن المستحيل أن تكون قد نمت في هذه المدينة.

مدّ يده المرتجفة ولمس بتلاتها الناعمة.

عندما فعل ذلك، لم يرَ شيئًا، لكنه شعر به.

شعر بنسيمٍ هادئٍ يداعب وجهه، وسمع صدى بعيدًا جدًا لضحكةِ ليلى، وشعر بسلامٍ عميقٍ يغمر روحه، سلامٍ لم يكن يعرفه من قبل.

أدرك في تلك اللحظة أن جزءًا من المدينة قد عبر معه. لم تكن وهمًا كاملاً، ولم تكن واقعًا كاملاً. لقد أصبحت جزءًا منه.

لقد حوّل سجنه إلى حديقة، والآن، أصبحت تلك الحديقة ملاذه الداخلي، مكانًا يستطيع أن يزوره في لحظاتِ ضعفه ليجد القوّة والسلام، مكانًا أصبحت فيه ذكراها ليست جرحًا ينزف، بل فجرًا لا ينتهي.

أغلق عينيه، ليس ليعود إلى المدينة، بل ليحملها في قلبه، وابتسم للمرة الأولى منذ زمنٍ طويل.

لقد كانت ابتسامةَ رجلٍ نجا، رجلٍ مستعد لأن يعيش، ليس فقط لنفسه، بل من أجلهما معًا.

(8)

ثمن الفجر

لم يكن تحرير المدينة لحظةَ انتصارٍ صاخبة، بل كان فجرًا هادئًا ومهيبًا. الضوء الدافئ الذي انبثق من إيثار لم يطرد الظلام، بل أقنعه بالرحيل، كاشفًا عن مدينةٍ لم تعد سجنًا، بل حديقةً للذِكرى.

لكن هذا السلام، هذا الخلق، كان له ثمنٌ باهظ. مع كل لحظةٍ تمر، كان إيثار يشعر بأن المدينة نفسها، هذا الواقع الذي أعاد تشكيله، تسحب الطاقة من روحه للحفاظ على وجودها، كأنها طفلٌ حديثُ الولادة يتغذى على قوة والده.

بدأ يلاحظ الأعراض ببطء، كتغيّراتٍ طفيفة في الطقس الروحي للمكان. أزهار الياسمين التي كانت تملأ الهواء بعطر ليلى بدأت تذبل أطرافها، تفقد بياضها الناصع وتتحول إلى لونٍ عاجيٍّ باهت.

ألوان المباني التي كانت زاهية أصبحت أقلّ حيوية، كأن طبقةً رقيقةً من الغبار الرمادي قد استقرّت عليها، غبار الإرهاق.

نظر بقلقٍ نحو تمثال الحبّ في وسط الساحة، ذلك النُصب الذي كان يومًا "الحارس"، ولاحظ بقلقٍ ظهور شقٍّ رفيعٍ كالشعرة يمتدّ على طول الرخام الأبيض، يبدأ من قلب التمثال ويتجه نحو الأسفل، إشارةٌ واضحة إلى هشاشة هذا السلام الذي خلقه.

"لقد حرّرتَ هذا العالم من سجنك الشخصي"، همس قارئُ الظل، وصوته الآن كخريرِ ماءٍ يتبخّر، حضوره يخفت مع كل كلمة، كأنه هو نفسه جزءٌ من الطاقة التي يتم استهلاكها.

"لكن كلَّ تحريرٍ يكشف طبقةً أعمق... هذه المدينة كانت دائمًا أكثر من مجرد انعكاسٍ لك. إنها تقع عند مفترق طرقٍ، حيث تتشابك الأرواح التي ربطها الألم".

قبل أن يتمكن إيثار من استيعاب معنى هذه الكلمات المقلقة، شعر ببرودةٍ مفاجئةٍ وحادّة، برودةٍ لم تأتِ من الخارج، بل من داخله.

من ظلّه هو، الذي كان طويلاً وهادئًا في ضوء الفجر الجديد، انفصل شكلٌ داكن.

لم يكن مجرد ظلّ، بل تجسّد، آخذًا هيئةَ إيثار نفسه، لكنها كانت نسخةً مشوّهة، "الأنا المُضادّة" التي كانت تنتظر لحظةَ ضعفه، لحظة استنزافه، لتظهر.

"انظر إلى هذا الإله الصغير"، قال الشبيه بسخرية، لكن صوته لم يكن صوتَ إيثار، بل كان يحمل نبرةً مألوفةً ومؤلمة، نبرةَ ليلى عندما كانت قلقةً أو محبطة.

ولتعميق الخيانة، رأى إيثار أن عيني شبيهه ليستا فارغتين، بل كانتا تحملان نفس اللون العسلي لليلى، لكنهما كانتا باردتين وخاليتين من أي دفء، كأنهما جوهرتان ميّتتان.

"لقد حوّلتَ سجنك إلى حديقةٍ جميلة"، تابع الشبيه، وهو يتجوّل في الحديقة، يمرر يده على الجدران التي بدأت تفقد لونها.

"لكن هل تظن أن هذا يغيّر أيّ شيء؟ أنت لا تزال هاربًا. لقد اخترعتَ فقط طريقةً أكثر أناقةً للهروب، مسرحيةً مُتقنة لتشعر بالتحسن تجاه نفسك".

"هذا ليس هروبًا"، ردّ إيثار، محاولاً استجماع قوته التي كانت تتسرّب منه مع كل نفس.

شعر بثقلٍ في أطرافه الأثيريّة. "هذا تكريم".

"تكريم؟" ضحك الآخر، ضحكةً باردةً وجافةً تردّد صداها في الساحة، مما تسبب في اهتزازٍ خفيفٍ في الأرض.

"أنت تكرمها ببقائك في عالم الأموات معها. تذكر يوم أخبرتك فيه أنها تخاف من اعتمادك الكامل عليها؟

أنها كانت تشعر أحيانًا بأنها تخنقك بحبّها، وأنها تحتاج لمساحتها الخاصة؟

والآن أنت تفعل نفس الشيء لذكراها. أنت تخنقها هنا، في هذا الضريح الذي بنيته لأنانيتك".

كانت الكلمات كسياطٍ من جليد، لأنها كانت تستخدم ذِكرى حقيقية، حوارًا دار بينهما ذات ليلة، وقامت بتشويه معناه وتحويله إلى سلاح.

شعر إيثار بأن الشقَّ على التمثال يتّسع قليلاً، ويصدر صوتًا خافتًا كصوت تكسّر الزجاج.

"أنت جبان، وقد قمتَ فقط بطلاء جبنك بألوانٍ جميلة"، استمرّ الشبيه بلا رحمة، مقتربًا منه خطوةً خطوة.

"إذا كنتَ قويًّا حقًّا، فلماذا لم تعد بعد؟ جسدك ينتظر. العالم الحقيقي ينتظر.

أم أنك تخشى أن تكتشف أن هذه "الحديقة" ستتلاشى بمجرد أن تفتح عينيك، وأن كلّ هذا كان مجرد حلمٍ أخير لرجلٍ يحتضر؟"

هذا السؤال الأخير ضربه بقوة.

تردّد إيثار، وفي لحظةِ التردّد هذه، ظهرت دوّامةٌ صغيرةٌ ومظلمةٌ عند قدمي "الأنا المضادّة"، دوّامةٌ من الشكّ واليأس، تدور ببطء وتُصدر صوتًا كصوت الريح في مكانٍ مهجور.

"هيا"، قال الآخر وهو يشير إلى الدوّامة. "هذه هي الحقيقة. هذا هو الفراغ الذي ينتظرك في الواقع. انظر إليه. واجهه إن كنت تستطيع".

نظر إيثار إلى الدوّامة، وشعر بأنها تسحبه. لكن في تلك اللحظة، تدخّل قارئ الظلّ للمرة الأخيرة. كان شبه شفاف، مجرد وميضٍ من الضوء، لكنه مدّ يده التي كانت الآن مجرد خيطٍ من الضوء الأزرق، وأمسك بكتف إيثار.

"لا تستمع إليه"، همس قارئ الظلّ. "إنه يستخدم نصف الحقيقة ليزرع الشكّ الكامل. انظر إلى ما وراء الدوّامة. انظر بعينيك الحقيقيتين، وليس بعيني خوفك".

ركّز إيثار، متجاوزًا الظلام الذي يعرضه شبيهه. في قلب الدوّامة، رأى شيئًا آخر. لم يكن فراغًا، بل كان بابًا صغيرًا، مصنوعًا من خشبٍ داكن، وعليه نقشٌ غريب. لم يكن مجرد نقش، بل كان شعارًا: دائرة، وفي داخلها خطٌّ منكسر يشبه نبضة قلبٍ متوقفة.

شعر إيثار بأن هذا الشعار مألوف بشكلٍ غامض، كأنه رآه في حلمٍ منسي، أو ربما على ورقةٍ من أوراق ليلى الطبية التي لم ينتبه لها.

وفجأة، سمع صوتًا من خلف الباب. لم يكن همسًا، بل كان صدىً واضحًا للحنِ صندوقِ موسيقى قديم، اللحنِ الذي كانت تدندنه ليلى.

هذا المزيج من الشعار الغامض واللحن الحميم أعطى إيثار القوّة التي يحتاجها. نظر إلى "الأنا المضادّة" بثقةٍ متجددة.

"أنت على حقّ"، قال إيثار، مفاجئًا شبيهه. "أنا خائف. خائف من العودة إلى عالمٍ بدونها. خائف من الصمت، ومن الوحدة. لكن خوفي لا يجعل هذا المكان وهمًا. وخوفي لا يجعلني جبانًا. إنه يجعلني إنسانًا. وأنا أختار أن أكون إنسانًا".

ومع هذا القبول، لم يهاجم شبيهه. لقد تعلّم أن الضوء ليس سلاحًا، بل جسر. مدّ يده، ووجّه الضوء نحو الدوّامة المظلمة، ليس لتدميرها، بل لملئها، محوّلاً إياها من دوّامة شكٍّ إلى بوابةٍ مضيئة، جسرٍ إلى المجهول.

تراجع "الأنا المضادّة" وهو يصرخ، ليس من الألم، بل من الهزيمة، وذاب مرةً أخرى في ظلّ إيثار، عائدًا إلى مكانه كصوتٍ هامشيّ للشكّ، لا كقوّةٍ مسيطرة.

وقف إيثار أمام البوابة المضيئة، التي كان الباب الصغير لا يزال يظهر في مركزها. نظر إلى قارئ الظلّ، الذي كان الآن بالكاد مرئيًّا.

"ما هذا الباب؟" سأل إيثار.

"لقد أوصلتك إلى نهاية رحلتك معي، لكن يبدو أنها بدايةُ رحلةٍ جديدةٍ لك"، قال قارئ الظلّ، وكانت هذه كلماته الأخيرة قبل أن يتلاشى تمامًا.

لكنه لم يختفِ بالكامل. تحوّلت آخر بقايا من طاقته الزرقاء إلى تميمةٍ صغيرةٍ مادية، وظهرت معلقةً حول عنق إيثار الأثيري. لقد كان المفتاح.

أدرك إيثار أن لديه الآن خيارًا جديدًا: العودة إلى الواقع، أو استخدام هذا المفتاح، هذا الإرث، وعبور البوابة لمعرفة سرّ نداء ليلى. لقد انتهت معركته مع نفسه، لكن مغامرته في عوالم الوعي، التي قد تكون متّصلةً بمنظماتٍ غامضةٍ وأسرارٍ أعمق، قد بدأت للتو.

(9)

المدينة البيضاء

وقف إيثار وحده في حديقته الهادئة، حديقة الذكرى التي بناها من رماد ألمه. كان الصمت يلف المكان، صمتٌ لم يعد فارغًا، بل كان مليئًا بالسلام. لكن أمامه، كانت تقف البوابة المضيئة التي وُلِدَت من دوامة الشك، وفي مركزها ذلك الباب الخشبي الصغير والغامض. اقترب من الباب. كان النقش عليه أكثر وضوحًا الآن: دائرة، وفي داخلها خطٌّ منكسر يشبه نبضة قلب متوقفة. لكن عندما نظر إليه من زاويةٍ معينة، رأى أن الخطوط المتشابكة تشكل الأحرف العربية لكلمة "ليلى"، مخفية ببراعة داخل الرمز. شعر بقشعريرة تسري في روحه. هذا لم يكن مجرد باب، بل كان رسالة.

وضع أذنه على الخشب البارد، وسمع صدى خافتًا للحن صندوق موسيقى قديم، اللحن الذي كانت تدندنه ليلى. هذا التفصيل الحميم حسم قراره. لم يعد الأمر يتعلق بالهروب أو البقاء، بل بالكشف عن الحقيقة الكاملة.

لاحظ التميمة التي كانت تتدلى حول عنقه الأثيري، إرث "قارئ الظل". أمسك بها، وشعر بدفء لطيف. قرّبها من النقش على الباب. تطابقت التميمة تمامًا مع شكل الدائرة، وكأنها قطعة أحجية وُجِدَت مكانها. أطلق الباب صوتًا قديمًا، ليس صرير خشب، بل صوت شهقة هواء، وانفتح ببطء إلى الداخل، كاشفًا ليس عن غرفة، بل عن ضباب أبيض كثيف ومُشِعّ.

تردد إيثار للحظة، ثم استجمع شجاعته وخطا عبر العتبة.

[انتقال مرآة]

في غرفة المستشفى، اهتز جفن إيثار. فتح عينيه ببطء، لكنها كانت ثقيلة كالرصاص. كانت رؤيته مشوشة، والأصوات مكتومة. رأى وجهًا مألوفًا، وجه الطبيب، وهو يقول شيئًا لم يفهمه. حاول أن يتكلم، لكن لم تخرج سوى همهمة ضعيفة. شعر بشيء غريب في يده اليمنى. نظر بصعوبة، ورأى أن قبضته مغلقة على شيءٍ ما. لم يكن هناك شيء مادي، لكنه شعر بوجوده. شعر بخشب بارد، وبتراب ناعم. قبل أن يتمكن من فهم ما يحدث، أغلق عينيه مرةً أخرى، وسقط في بئر الظلام، عائدًا.

عندما عاد وعيه، لم يكن في حديقته، بل كان في مكان جديد تمامًا. كان الضباب الأبيض قد انقشع ليكشف عن "المدينة البيضاء". كانت مدينة شاسعة، مبنية من مادة تشبه المرمر المصقول الذي يشعّ بضوء داخلي. كانت المباني شاهقة وهندسيتها مثالية، لكنها كانت خالية من أي تفاصيل شخصية. لم تكن هناك أشجار أو أزهار، فقط هذا البياض اللامتناهي والصمت المُطبِق، الذي كانت تقطعه أحيانًا أصوات همس بعيدة، كأنها رياح تحمل كلمات منسية، وظلال عابرة تتحرك بسرعة في أطراف رؤيته.

"أين أنا؟" همس إيثار، لكن صوته بدا ضائعًا في هذا الفضاء الشاسع.

"أنت في اللاوعي الجماعي"، قالت امرأة، بينما تلمع علامة غريبة على جبينها كثلجٍ تحت القمر. "هنا، الأرواح كالأسماك في محيطٍ واحد، تسبح منفردةً لكنها تشرب من نفس الماء".

استدار إيثار ليرى امرأة تقف على بعد خطواتٍ منه. كانت ترتدي ثيابًا تشبه ثياب الكاهنات القديمة، بيضاء وطويلة، وعليها نقوش فضية باهتة. كانت ملامحها هادئة وحيادية، لكن عينيها كانتا تحملان حكمةً قديمة.

"أنت في مفترق الطرق"، تابعت المرأة. "مدينتك، حديقتك، كانت مجرد حيٍّ صغيرٍ متصلٍ بهذه العاصمة الكبرى".

"من أنتِ؟" سأل إيثار، وهو يشعر بالرهبة.

"أنا حارسة هنا. وظيفتي هي الحفاظ على النظام. لقد تسبب قرارك بتحرير مدينتك في إحداث تموجات وصلت إلى هنا. لقد فتحت بابًا كان من المفترض أن يظل مغلقًا".

"باب ليلى..." قال إيثار. "لقد سمعت صوتها. هل هي هنا؟"

نظرت إليه الحارسة، وفي عينيها لمحة من شيء يشبه الشفقة.

"الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك. عندما يموت شخص ما، يعود وعيه إلى هنا ليتفكك ويعود إلى الكل. لكن وعي ليلى لم يعد بالكامل. لقد تركت أجزاءً منها خلفها. جزء معك، في شكل قارئ الظل. وجزء آخر... ضاع هنا، في هذه المدينة البيضاء. إنه يرفض أن يتلاشى. إنه يبحث عن شيءٍ ما".

"أريد أن أجده"، قال إيثار بحزم.

"هذا خطر. هذا المكان ليس مثل مدينتك. هنا، يمكنك أن تضيع إلى الأبد".

الجزء الضائع من وعيها ليس ليلى التي تعرفها. إنه مجرد صدى، ذكرى عنيدة.

هل تبحث عنها، أم عن جزءٍ منك فقدته معها؟

لكن إيثار كان مصرًّا. "لقد قطعت كل هذه المسافة. لن أعود الآن".

تنهدت الحارسة. "حسنًا. لكن اعلم هذا: الوقت هنا مختلف. انظر حولك".

لاحظ إيثار وجود ساعاتِ حائطٍ ضخمةٍ على بعض المباني، كلّها متوقفةٌ عند أوقاتٍ مختلفة، كأنّ كلَّ مبنى يحتفظ بلحظةٍ زمنيةٍ متجمّدة.

"كل دقيقةٍ تقضيها هنا قد تكون مجرد ثانيةٍ في عالمك، أو قد تكون يومًا كاملاً. والمدينة نفسها ليست صديقتك. إنها تحاول الحفاظ على نفسها، وستعتبرك جسمًا غريبًا. وهناك آخرون... "المجمع"... الذين يسعون لاستغلال هذه الفوضى لمصالحهم الخاصة. كن حذرًا".

[انتقال مرآة]

في غرفةِ المستشفى، لاحظت الممرضة شيئًا غريبًا. كانت رائحةٌ خفيفة، لكنها مميزة، تملأ الغرفة، رائحةُ ياسمين.

تفقدتِ المزهريات، لكن لم يكن هناك أيُّ ياسمين.

نظرت إلى إيثار، الذي كان يرقد بهدوء، ولاحظت أن قبضته اليمنى، التي كانت مغلقةً بإحكام، قد ارتخت قليلاً، وكأنها تركت شيئًا غير مرئي.

شعرت بقلقٍ غامض، وسجّلت ملاحظةً في تقريرها:

"المريض يظهر نشاطًا دماغيًّا غير مفسَّر. لوحظت ظواهر حسية غير طبيعية في الغرفة".

في المدينة البيضاء، بدأ إيثار رحلته الجديدة. لمس أحد الجدران المرمرية، وفجأةً، أظهر الجدار انعكاسًا متحرّكًا، ليس لصورته، بل لمشهدٍ من طفولته، هو وليلى يلعبان في الحديقة.

أدرك أن المدينة نفسها هي سجلٌّ للأرواح. نظر إلى المباني الشاهقة، ولاحظ أن بعضها يحمل أسماء منقوشةً بخطٍّ صغيرٍ جدًّا، أسماء لا يعرفها، ربما أسماء أرواحٍ عابرة.

لاحظ أن التميمة حول عنقه تتفاعل مع المكان. كانت إضاءتها الزرقاء تخفت كلّما اقترب من مناطقَ معينة، كأنها تحذّره من خطرٍ غير مرئي.

لم يعد الأمر يتعلق بمواجهةِ شياطينه الداخلية، بل بالبحث عن شبحٍ في مدينةٍ لا نهائية، مدينةٍ قد تكون ساحةَ صراعٍ لقوىً أكبرَ منه بكثير.

كانت هذه بداية فصلٍ جديدٍ تمامًا، فصلٍ لم يكن يعرف قواعده، ولم يكن متأكدًا من نهايته، لكنه كان يعلم أنه يجب أن يمشيه، ليس فقط من أجل ليلى، بل من أجل فهم السرّ الكامل الذي يربط بين الحبّ والموت والوعي.

(10)

أصداء المرمر

كان الصمت في المدينة البيضاء مختلفًا عن أيّ صمتٍ عرفه إيثار. لم يكن صمت الفراغ أو الغياب، بل كان صمتًا مشبعًا بالوجود، كأنه يقف في مكتبة كونية تحتوي على كلّ القصص التي لم تُروَ بعد، وكلّ الأفكار التي لم تُفكَّر بها.

كانت الهمسات التي تتردّد في الأفق، والتي أصبحت الآن أكثر وضوحًا، ليست مجرّد ضوضاء، بل كانت شظايا من حوارات ولغات منسيّة.

والظلال التي كانت تومض في أطراف رؤيته، أدرك الآن أنها ليست مجرد خدع بصريّة، بل هي أرواحٌ أخرى، تتحرك بسرعةٍ في مساراتها الخاصة عبر هذا العالم الوسيط.

"إذن، أنت تبحث عن صدى"، قالت الحارسة، التي لم تتحرّك من مكانها، لكن صوتها وصل إليه بوضوحٍ تام، كأنه يتردّد داخل عقله مباشرة.

"البحث عن صدى في هذا المحيط يشبه البحث عن قطرة ماء معيّنة. إنه موجود، لكنه جزء من الكل الآن. لقد فقد هويّته الفرديّة تقريباً".

"لقد تركت لي دليلاً"، قال إيثار، وهو يلمس التميمة الزرقاء حول عنقه، التي كانت تنبض بضوءٍ خافتٍ ومنتظم، كأنها قلبٌ صغير.

"لحن صندوق الموسيقى. يجب أن يكون هناك خيط يمكنني اتّباعه".

نظرت الحارسة إلى التميمة، وتغيّرت نظرتها للحظة، ظهر فيها شيءٌ يشبه التقدير، أو ربما الحنين.

"هذا ليس مجرد دليل. هذا مرنان. إنه يتفاعل مع تردّد وعيها، مع بصمتها الروحية الفريدة.

إذا اقتربت من الصدى الذي تبحث عنه، سيزداد توهّجه.

لكن احذر، فهو أيضًا يجذب انتباه أشياء أخرى. أشياء لا تريد أن تجدك".

مع هذا التحذير، بدأت الحارسة تتلاشى ببطء، كأنها تذوب مرةً أخرى في بياض المدينة.

"ابحث عن (قاعة الأصداء المتلاشية). هناك، تكون الذكريات الأخيرة للأرواح هي الأقوى، قبل أن تذوب تمامًا في المحيط.

لكن تذكّر، كلّ خطوةٍ تخطوها هنا، لها ثمن".

ترك إيثار وحيدًا في الساحة الشاسعة. بدأ رحلته، متتبعًا حدسه.

كانت المدينة مربِكةً في مثاليتها الهندسيّة.

كلّ الشوارع متشابهة، وكلّ المباني متطابقة في عظمتها الخالية من الروح.

لكنه سرعان ما اكتشف أن المدينة ليست صامتة كما تبدو.

عندما لمس جدارًا من المرمر المصقول، أضاء الجدار فجأة، عارضًا مشهدًا سريعًا من حياته:

هو وليلى يضحكان تحت المطر، وشعر ببرودة قطرات المطر الوهميّة على جلده.

لمس جدارًا آخر، فرأى نفسه طفلاً يبكي بعد أن سقط عن دراجته، وشعر بألمٍ حادٍّ وخاطفٍ في ركبته.

كانت الجدران نفسها سجلاً، مكتبةً حسيّةً لذكريات كلّ من مرّ من هنا.

لاحظ أيضًا الأسماء المنقوشة بخطٍّ دقيق على قواعد بعض المباني.

كانت آلاف الأسماء، بل ملايين، من كلّ اللغات والحقب الزمنية.

أدرك أنه يسير بين شواهد قبور لأرواحٍ لا حصر لها، كلٌّ مبنى هو نصبٌ تذكاريٌّ لروحٍ مرّت من هنا.

كانت التميمة دليله الوحيد.

كلّما سار في اتجاهٍ معيّن، كان ضوؤها الأزرق يخفت، فيغيّر مساره.

وعندما كان يتجه نحو منطقةٍ تبدو أكثر كثافةً في البياض، كان التوهّج يزداد قوة.

كان يتبع هذا الضوء الخافت، بينما كانت الظلال العابرة تراقبه من بعيد، والهمسات تزداد وضوحًا، كأنها تحذّره أو تسخر منه.

[انتقال مرآة]

في غرفة المستشفى، كان الطبيب يراجع أشعة دماغ إيثار الجديدة بقلق.

كان هناك نشاطٌ غير طبيعي، ليس مجرد ومضات عصبيّة، بل كان نمطًا معقّدًا ومنظّمًا يتركّز في منطقة الذاكرة طويلة الأمد.

بدا الأمر وكأن دماغه يعيد تشغيل حياته بأكملها بسرعة فائقة. لكن الشيء الأكثر غرابة كان تشوّهًا طفيفًا في الصورة، بقعة صغيرة من الضوء الأزرق، بنفس لون زهرة اللوتس الغامضة التي ظهرت واختفت من غرفته.

قال الطبيب لزميله: "لم أرَ شيئًا كهذا من قبل. كأن هناك... جسما غريبًا، ليس فيزيائيًا، بل طاقيًا، يتجوّل داخل وعيه".

بعد ما شعر وكأنه أيامٌ من السير في المدينة البيضاء، بدأ يلاحظ تغيّرًا. المباني أصبحت أقل مثالية، وعليها آثار تشبه التآكل، كأن الحزن قد ترك بصماته عليها.

وصل إلى ساحة ضخمة، وفي وسطها مبنًى يختلف عن البقية. كان دائريًا، ومفتوحًا للسماء، وجدرانه تبدو وكأنها مصنوعة من كريستال معتم.

كانت هذه "قاعة الأصداء المتلاشية".

بمجرد أن اقترب، ازداد توهّج التميمة بشكل كبير، وشعر بدفءٍ يغمر صدره.

لكن في نفس الوقت، شعر ببرودة قادمة من داخل القاعة، وشعر بأن هناك من يراقبه، ليس فقط الظلال، بل شيء أكثر تركيزًا وذكاءً.

دخل القاعة بحذر. في الداخل، كانت الأصوات أعلى من أي مكان آخر.

لم تكن همسات، بل كانت أصداءً واضحةً لذكريات أخيرة: وداعات، كلمات حب، اعترافات، صرخات ألم، وضحكات أخيرة.

كانت كلها تتردّد وتتداخل في نشاز مؤلم وجميل.

وفي وسط القاعة، رأى شيئًا جعله يتجمّد في مكانه.

لم يكن صدى ليلى. بل كان كيانًا آخر، يرتدي زيًّا أسود بالكامل، زيًّا يبدو وكأنه يمتص الضوء من حوله، وعليه نفس الشعار الذي كان على الباب، شعار "المجمع".

كان الكيان يقف أمام صدى مضيء وخافت، صدى كان يدندن لحن صندوق الموسيقى.

"لقد تأخّرت"، قال الكيان، وصوته كان معدنيًا ومصطنعًا، خاليًا من أيّ عاطفة.

"كنّا نراقب هذا الصدى المتمرّد لبعض الوقت. إنه يحمل توقيعًا طاقيًا فريدًا.

والآن، بما أنك قد قدتنا إليه، سنقوم بـ 'حصاده'."

"ابتعد عنها!" صرخ إيثار، وشعر بقوة جديدة تتدفّق منه، قوة لم تكن منه، بل من التميمة، التي كانت تتوهّج الآن بضوء أزرق ساطع، يلقي بظلال طويلة وراقصة في القاعة.

ضحك الكيان ضحكة إلكترونية. "أنت لا تفهم. نحن لا ندمّرها. نحن نحفظها.

(المجمع) يؤمن بأن هذه الأصداء القوية هي مفتاح الخلود.

أنت مجرّد عاطفي، بينما نحن علماء".

كان إيثار على وشك الاندفاع، لكنه أدرك أن القوة وحدها لن تكفي هنا.

لقد تعلّم أن الضوء ليس سلاحًا، بل جسر.

نظر إلى صدى ليلى، الذي بدا خائفًا ومرتبكًا، ثم نظر إلى الكيان.

أغلق عينيه، وبدلاً من الهجوم، فعل شيئًا غير متوقّع.

لقد بنى جسرًا من الضوء، ليس من نفسه إلى الصدى، بل من الصدى إلى ذكرى حقيقية في عقله: ذكرى شقتهما، ورائحة القهوة، وضحكتها في الصباح.

تفاعل الصدى مع الجسر، وازداد توهّجه، وللحظة، لم يعد مجرّد صدى، بل أصبح ليلى.

نظرت إلى إيثار، وابتسمت ابتسامة حقيقية، قبل أن تتلاشى بسرعة، ليس بالتدمير، بل بالانسحاب إلى مكان أعمق، مكان لا يستطيع كيان "المجمع" الوصول إليه.

"لقد أفسدت كل شيء!" صرخ الكيان بغضب، وهو يرى الصدى يختفي. "سوف تدفع ثمن هذا".

لكن قبل أن يتمكن الكيان من فعل أي شيء، اهتزت القاعة بأكملها، وشعر إيثار بنفس قوة السحب التي شعر بها في المستشفى، قوة تسحبه بعنف إلى الوراء، إلى الواقع.

كانت آخر صورة رآها قبل أن يبتلعه الظلام هي كيان "المجمع" وهو ينسحب إلى الظل، وعينا الحارسة تراقبانه من بعيد، وعلى وجهها تعبير غامض، لا يمكن تفسيره.

لقد انتهت هذه الجولة، لكن الحرب على ذكرى ليلى، وعلى أسرار المدينة البيضاء، قد بدأت للتو.

(11)

شظايا الواقع

كانت العودة أشبه بالسقوط من ارتفاع شاهق في ماءٍ متجمّد. لم تكن عودة لطيفة أو تدريجية، بل كانت عملية انتزاع عنيفة.

في لحظة، كان يقف في "قاعة الأصداء المتلاشية" في المدينة البيضاء، وفي اللحظة التالية، كان وعيه يُسحب عبر نفقٍ من الظلام والضوضاء، ليصطدم بجسده المادي بقوة مؤلمة.

فتح إيثار عينيه، وأطلق شهقة حادّة، كأنه غريق يخرج إلى السطح. كل شيء كان هجومًا على حواسه.

ضوء الفلورسنت في سقف غرفة المستشفى كان ساطعًا بشكل مؤلم مقارنة بالبياض الهادئ للمدينة الأخرى.

صوت الأجهزة الطبية المنتظم كان صاخبًا وميكانيكيًا بعد صمت الوعي المُطبِق.

ورائحة المُطهِّر والكحول كانت خانقة، تفتقر إلى رائحة الياسمين الخفيفة التي كانت تملأ حديقته الداخلية.

شعر بثقل جسده، بضعف عضلاته التي لم تُستخدم منذ فترة.

حرّك أصابعه ببطء، وشعر بخشونة أغطية السرير.

كان كل شيء حقيقيًا بشكل لا يُصدّق، حقيقيًا بشكل وحشي.

"لقد استيقظ! استدعوا الطبيب بسرعة!"

صوت الممرضة كان قريبًا ومذعورًا.

سرعان ما امتلأت الغرفة بالوجوه، وجوه الأطباء والممرّضات التي كانت تحمل مزيجًا من الصدمة والفضول المهني.

كانوا يتحدثون إليه، يطرحون أسئلة لم يستطع عقله معالجتها بعد:

"هل تسمعني؟"

"كم إصبعًا ترى؟"

"هل تعرف أين أنت؟"

كان عقله لا يزال يعمل على ترددين مختلفين.

جزء منه كان هنا، في هذا الجسد الضعيف، والجزء الآخر كان لا يزال عالقًا في صدى المواجهة في "قاعة الأصداء".

تذكّر وجه كيان "المجمع" الخالي من الملامح، وصوته المعدني وهو يهدّده.

تذكّر ابتسامة ليلى الأخيرة قبل أن تتلاشى.

"ليلى..." همس بصوت جافٍّ ومتشقّق، وهذه كانت أول كلمة ينطق بها.

نظر الأطباء إلى بعضهم بعضًا بقلق.

قال الطبيب الرئيسي بهدوء:

"سيد إيثار، أنت في المستشفى. لقد كنت في غيبوبة لعدة أسابيع. ليلى... ليلى توفّيت."

كانت الكلمات كالمطرقة، لكنها لم تَعُد تحمل نفس القوة المدمّرة.

لقد واجه هذه الحقيقة بالفعل في أعماق روحه.

ما كان يؤلمه الآن ليس الفقد، بل الفشل في حماية صداها.

"المجمع..." همس مرة أخرى، وهذه الكلمة أثارت حيرةً أكبر على وجوه الأطباء.

"اهدأ يا سيد إيثار. أنت في أمان الآن. لا بدّ أنك تعاني من بعض الهلوسة بعد الغيبوبة. هذا طبيعي."

لكن إيثار كان يعلم أن الأمر ليس طبيعيًا.

نظر إلى يده اليمنى، وتذكّر الإحساس بأنه كان يمسك بشيءٍ ما قبل أن يعود.

لم يكن هناك شيء. لكن عندما فرك إبهامه بسبابته، شعر بملمسٍ وهمي، ملمس غبارٍ ناعم جدًا، كأنه غبار المرمر من أرضية "قاعة الأصداء".

خلال الأيام القليلة التالية، كان إيثار يخضع لسلسلةٍ لا تنتهي من الفحوصات.

كان جسده يتعافى ببطء، لكن عقله كان في مكان آخر.

كان يحاول يائسًا العودة إلى المدينة البيضاء، إلى حديقته، لكن الطريق كان مغلقًا.

كلما أغمض عينيه، لم يجد سوى الظلام. شعر وكأن الباب قد أُغلق في وجهه.

لكن الشظايا، الآثار، كانت لا تزال موجودة، تربطه بذلك العالم الآخر بطرقٍ خفيّة ومقلقة.

في إحدى الليالي، استيقظ على رائحة ياسمين قوية تملأ الغرفة، لكن لم يكن هناك أي زهور.

في صباحٍ آخر، وجد على الطاولة بجانب سريره بضع حبات من ترابٍ ناعمٍ وأبيض، ترابٍ لم يكن موجودًا في الليلة السابقة، وقد أثار حيرة طاقم التنظيف.

كانت التميمة الزرقاء هي الاتصال الأوضح. لم تكن موجودة بشكلٍ مادي، لكنه كان يشعر بوجودها، كدفءٍ خفيفٍ ومستمر في صدره.

في بعض الأحيان، عندما كان يركّز بشدة، كان يرى وميضًا أزرق خافتًا في انعكاسه في المرآة.

أدرك أن المواجهة مع كيان "المجمع" قد أثارت آلية دفاعية، إما من الحارسة أو من المدينة البيضاء نفسها، وأعادته قسرًا إلى جسده.

لقد أصبح الآن سجينًا في الواقع، بينما كانت الحرب على ذكرى ليلى مستمرة في عالمٍ آخر لا يستطيع الوصول إليه.

في اليوم الخامس من استيقاظه، جاءه زائر غير متوقَّع.

رجل أنيق في منتصف العمر، قدّم نفسه على أنه محامٍ يمثّل تركة ليلى.

"السيدة ليلى تركت لك بعض الأشياء"، قال المحامي وهو يفتح حقيبته.

"صندوق أمانات في أحد البنوك. والمفتاح... كان معلّقًا في سلسلة حول عنقها."

أعطى المحامي لإيثار مفتاحًا صغيرًا وقديمًا.

عندما لمسه إيثار، شعر بنفس الدفء الذي كان يشعر به من التميمة.

نظر إلى المفتاح عن كثب، ورأى شعارًا صغيرًا منقوشًا على رأسه.

تجمّد الدم في عروقه. لقد كان نفس الشعار الذي رآه على الباب في مدينته، وعلى زي كيان "المجمع": دائرة، وفي داخلها خطّ منكسر يشبه نبضة قلب متوقّفة.

"هل أنت بخير يا سيد إيثار؟ لقد أصبحت شاحبًا فجأة."

"أنا بخير"، قال إيثار، وهو يغلق قبضته على المفتاح بقوة.

"متى يمكنني الذهاب إلى هذا البنك؟"

بعد يومين، سمح الأطباء لإيثار بالخروج، مع توصياتٍ بالراحة والمتابعة النفسية.

لكن إيثار كان لديه هدف واحد فقط.

ذهب مباشرة إلى البنك، حاملاً المفتاح الذي كان يشعر بأنه يحرق جلده.

في غرفةٍ باردةٍ ومعزولةٍ في قبو البنك، وضع الموظف صندوقًا معدنيًا قديمًا أمامه.

عندما أدخل إيثار المفتاح وأداره، سمع صوتًا قديمًا، نفس صوت شهقة الهواء الذي سمعه عندما فتح الباب في مدينته.

رفع الغطاء ببطء. لم يكن الصندوق مليئًا بالمجوهرات أو الأوراق المالية.

كان يحتوي على دفتر يومياتٍ جلديٍّ قديم، وبعض الأوراق الطبية، وصندوق موسيقى صغير خشبي.

فتح دفتر اليوميات. كانت الصفحات مليئة بخطّ يد ليلى الجميل.

لكن ما قرأه جعله يشعر وكأن الأرض تهتز من تحته.

لم تكن مجرد يوميات عادية. كانت ليلى تتحدث عن أحلامٍ غريبة، عن "مدينةٍ بيضاء" تزورها في نومها، وعن "حارسة" تلتقي بها.

كانت تتحدث عن شعورها بأن هناك من يراقبها، ليس في الواقع، بل في وعيها.

وفي الصفحات الأخيرة، كتبت عن اكتشافها لـ"المجمع"، مجموعةٍ غامضة من الباحثين الذين كانوا يدرسون هذه العوالم، ليس من أجل الفهم، بل من أجل السيطرة.

كتبت عن خوفها من أنهم يريدون شيئًا منها، شيئًا في وعيها.

"لقد اكتشفوا أنني أستطيع بناء (جسور) بين وعيي ووعي الآخرين"، كتبت ليلى. "إنهم يريدون استخدامي. لهذا السبب، سأترك جزءًا من وعيي مع إيثار.

إنه المكان الوحيد الذي لن يتمكنوا من الوصول إليه. إنه حصني الأخير. إذا حدث لي أي شيء، آمل أن يتمكن من فهم كل هذا يومًا ما."

أغلق إيثار الدفتر، ويداه ترتجفان. لم تكن مدينة الأوهام مجرد هروبٍ من ألمه، لقد كانت حصنًا بنته ليلى لحماية نفسها.

ولم يكن "قارئ الظل" مجرد جزءٍ من وعيه، بل كان وصية ليلى، حارسها الذي تركته لحمايته وإرشاده.

نظر إلى صندوق الموسيقى. فتحه ببطء، وبدأ نفس اللحن الحزين الذي سمعه خلف الباب يعزف في الغرفة.

لكن هذه المرة، كان هناك شيء آخر. مع اللحن، شعر بدفء التميمة في صدره يزداد قوة، وشعر باتصالٍ خافت، كخيطٍ رفيعٍ من الضوء، يمتد من الصندوق إلى مكانٍ بعيدٍ جدًا.

أدرك إيثار أن المفتاح لم يكن فقط لفتح صندوق الأمانات. لقد كان المفتاح لفتح كل شيء.

لقد أعطته ليلى خريطة، وأعطته بوصلة.

لم يعد سجينًا في الواقع. لقد أصبح الآن لاعبًا في حربٍ لم يكن يعلم بوجودها، حربٍ تدور رحاها في عوالم الوعي.

وكان عليه أن يجد طريقةً للعودة، ليس فقط لإنقاذ ما تبقى من ليلى، بل لكشف حقيقة "المجمع"، وإنهاء ما بدأته.

(12)

خريطة الروح

كان الصمت في شقة إيثار ثقيلاً وموحشًا، صمتًا لم تكسره سوى حفيف تقليب صفحات دفتر اليوميات الجلدي. بعد عودته من المستشفى، بدا كل شيء غريبًا وباردًا، كأنه ينظر إلى ديكور مسرحية انتهت، وبقي هو المتفرج الوحيد.

الأريكة التي تشاركا عليها الضحكات والأسرار، طاولة الطعام التي شهدت نقاشاتهما الحية، حتى ضوء الشمس الذي كان يتسلل من النافذة، كل شيء كان يحمل شبح ذكرى، طيفًا من حياة لم تكتمل.

أمامه على الطاولة الخشبية الباردة، كانت تركة ليلى الحقيقية مصفوفة بعناية، كأنها أدوات طقس غامض: دفتر اليوميات البالي الذي تفوح منه رائحة ورقٍ قديمٍ خفيفة، صندوق الموسيقى الخشبي الصغير بنقوشه المعقدة التي بدت وكأنها تحكي قصة، والمفتاح المعدني القديم الذي كان يحمل في رأسه شعار "المجمع" المزعج، والذي كان يبعث برودة غير طبيعية عند لمسه.

لم تكن هذه مجرد أشياء، بل كانت خريطة، بوصلة، ودعوة للعودة إلى الحرب التي تركها خلفه قسرًا.

أمضى ساعاتٍ طويلة، ربما يومًا كاملاً، يقرأ ويعيد قراءة يوميات ليلى. لم يكن يقرأ بعينيه فقط، بل بكل حواسه.

كان يمرر أصابعه على خط يدها الأنيق، ويشعر بالضغط الذي كانت تضعه على القلم عندما تكتب عن خوفها، وبالخفّة عندما تكتب عن أملها.

كل صفحة كانت تكشف عن طبقة جديدة من الألم والشجاعة التي لم يكن يعلم أن ليلى تمتلكها بهذا العمق.

لم تكن مجرد أحلام عابرة عن "المدينة البيضاء"، بل كانت ملاحظات دقيقة، شبه علمية، مليئة بالرسومات التوضيحية للرموز التي رأتها، والخرائط التقريبية للمناطق التي زارتها في وعيها، والتي تطابقت بشكل مخيف مع الأماكن التي زارها هو: "غرفة المرايا"، "جسور الذكريات"، وحتى "حديقة الذكرى" التي ظن أنه خلقها بنفسه.

كانت ليلى تصف كيف اكتشفت قدرتها على "بناء الجسور" بين وعيها ووعي الآخرين، وكيف أن هذه القدرة الفريدة جذبت انتباه "المجمع".

لم يكونوا مجرد باحثين كما ظن في البداية، بل كانوا "صيادين"، كما وصفتهم، منظمةً غامضةً ذات موارد هائلة، تصطاد الأرواح ذات القدرات الفريدة لاستغلالها وتفكيكها، كأنهم علماءُ حشراتٍ يجمعون الفراشاتِ النادرة لتثبيتها على لوحٍ من الفلّين.

"إنهم يعتقدون أن الوعي مجرد بيانات يمكن حصادها وتخزينها"، كتبت ليلى في أحد الإدخالات الأخيرة، وكان خطها يبدو مرتجفًا قليلاً، كأنها كانت تكتب في عجلةٍ أو خوف.

"إنهم لا يفهمون أنه نهر، وليس بحيرة. لا يمكن احتواؤه. يتحدثون عن الخلود كأنه قرص صلب يمكن تحميل الذكريات عليه، لكنهم لا يفهمون أن الروح تكمن في التدفق، في التغيير، وليس في الثبات. لهذا السبب، يجب أن أترك جزءًا مني في المكان الوحيد الذي لن يتمكنوا من الوصول إليه بسهولة: وعي إيثار."

"إنه ليس مجرد حب، بل هو استراتيجية. مدينته ستكون حصني الأخير، جدارًا ناريًّا مبنيًّا من العاطفة النقية التي لا يستطيعون قياسها أو فهمها".

هذه الكلمات ضربت إيثار بقوة، كأنها أعادت تعريف كل ما مر به. لم تكن مدينة الأوهام مجرد سجن بناه من ألمه، بل كانت حصنًا بنته ليلى بحبها وشجاعتها. ولم يكن "قارئ الظل" مجرد جزء من عقله، بل كان وصية ليلى، حارسها الذي تركته لحمايته وإرشاده. لقد كان يعيش داخل نصبٍ تذكاريٍّ حيٍّ، ولم يكن يعلم.

شعر بمزيج من الرهبة والحزن والفخر. لقد كانت ليلى محاربة، وقد اختارته ليكون خط دفاعها الأخير.

أمسك بصندوق الموسيقى. كان ملمسه دافئًا بشكل غريب، على عكس برودة المفتاح. كان يعلم أن هذا هو مفتاح العودة. لم يكن مجرد لحن، بل كان "ترددًا"، مفتاحًا صوتيًّا يضبط وعيه على نفس تردد "المدينة البيضاء"، كأنه كلمة سر للدخول إلى شبكة غير مرئية.

لكن كيف يستخدمه؟ هل يغمض عينيه ببساطة ويتمنى العودة؟ لقد تعلم أن الأمور لا تسير بهذه البساطة.

قرر أن يخلق الظروف المناسبة، أن يقوم بطقس عبور خاص به. أغلق الستائر، غامرًا الغرفة في ظلام شبه كامل. أطفأ هاتفه وكل مصدر إزعاج إلكتروني. جلس على الأرض في وسط الغرفة، في وضع التأمل، تمامًا كما كان يفعل في "حديقة الذكرى" في مدينته. وضع صندوق الموسيقى أمامه، وأدار المقبض الصغير ببطء.

بدأ اللحن الحزين، البسيط والمعقد في آنٍ واحد، يملأ الغرفة الصامتة. في البداية، لم يحدث شيء.

شعر بخيبة أمل، وبدأ الشك يتسلل إليه. هل كان كل هذا مجرد أوهام رجل في غيبوبة؟ هل كانت هذه اليوميات مجرد خيالات امرأة مريضة؟

لكنه تذكّر ما تعلمه في رحلته. لم يكن الأمر يتعلق بالرغبة، بل بالقبول. لم يحاول أن "يذهب" إلى هناك. بدلاً من ذلك، سمح للحن بأن "يأخذه". ركز على الدفء الخافت للتميمة في صدره، الذي بدأ يزداد قوة مع كل نوتة موسيقية.

ركز على صوت الموسيقى، وسمح لوعيه بأن ينجرف، أن يترك مرساة الواقع المادي.

ببطء، بدأت حواف الغرفة تتلاشى. لم يكن انتقالاً عنيفًا كالمرة السابقة، بل كان هادئًا، كأن الواقع يذوب بلطف مثل السكر في الماء.

تحول لون الجدران إلى بياضٍ ناصع، واختفى صوت حركة المرور الخافت من الخارج ليحل محله همس الأرواح البعيد. لقد عاد.

لكنه لم يعد إلى حديقته، بل وجد نفسه مباشرة عند مدخل "قاعة الأصداء المتلاشية"، المكان الذي طُرد منه. كانت الحارسة في انتظاره، تقف بنفس الهدوء المهيب.

"لقد عدت أسرع مما توقعت"، قالت، وعلامة الثلج على جبينها تتوهج بضوء خافت. "لقد أحدثت فوضى في المرة السابقة.

"المجمع" الآن في حالة تأهب. إنهم يبحثون عن الصدى الذي حررته بنشاط".

"لقد هربت إلى مكان أعمق بفضلي"، قال إيثار، وصوته بدا أكثر ثقة في هذا العالم.

"نعم، لكنك أيضًا وضعت عليها علامة. لقد ربطت وعيك بها بشكل لا يمكن فكه.

يمكنهم الآن تتبّعك للعثور عليها. لقد جعلتها هدفًا أكبر، وجعلت من نفسك طُعمًا".

شعر إيثار ببرودة تسري في عروقه، برودة لم تكن من هذا المكان، بل من الخوف. "ماذا أفعل الآن؟"

"الصدى الذي تبحث عنه ليس مجرد ذكرى سلبية. إنه يحمل مفتاحًا لقدرات ليلى، قدرتها على بناء الجسور.

"المجمع" يريد هذا المفتاح. عليك أن تجده قبلهم، وأن تتعلم كيفية استخدامه، ليس فقط لحمايتها، بل لحماية هذا المكان أيضًا.

اتبع المرنان. لكن هذه المرة، لا تكن مجرد زائر. كن جزءًا من هذا العالم.

استخدم جدرانه، استمع إلى همساته. تعلم قواعده، لأن خصومك يعرفونها جيدًا".

أومأ إيثار برأسه، وشعر بثقل المسؤولية يستقر على كتفيه.

لم يعد يبحث عن الخلاص لنفسه، بل أصبح حارسًا لإرث ليلى، ومحاربًا في حربٍ صامتةٍ تدور رحاها في قلب الوعي.

لقد انتهى وقت الهروب، وحان وقت القتال.

(13)

مطاردة في محيط الأرواح

كانت "قاعة الأصداء" مختلفة هذه المرة. في زيارته الأولى، كانت مليئة بنشاز مؤلم وجميل من الذكريات الأخيرة. أما الآن، فكانت أكثر هدوءًا، كأن المواجهة الأخيرة مع كيان "المجمع" قد أحدثت فراغًا، أو ربما أخافت الأصداء الأخرى ودفعتها إلى الصمت. لكن هذا الصمت لم يكن مريحًا، بل

كان مشحونًا بالترقّب، كهدوء الغابة قبل أن ينقضّ المفترس على فريسته. شعر إيثار بأنه مراقَب، ليس فقط من قبل الظلال العابرة التي كانت تتراقص في زوايا القاعة، بل من قبل عيون غير مرئية، عيون "المجمع"، التي كان يشعر بها كضغطٍ خفيفٍ ومستمر على مؤخرة رقبته.

بدأ رحلته، متتبعًا توهّج التميمة الزرقاء، التي كانت الآن تنبض بشكل أسرع قليلاً، كأنها تشعر بالإلحاح والخطر. لم يعد يسير بشكل عشوائي في الشوارع البيضاء الشاسعة، بل كان يفعل ما نصحته به الحارسة. لم يعد مجرد متفرج، بل أصبح متفاعلاً. كان يلمس الجدران المرمرية، لا ليرى ذكرياته هو، بل ليطلب منها المساعدة، كأنه يقرأ كتابًا بلغة لم يكن يعرف أنه يفهمها.

"أرِني الطريق الذي سلكه الصدى"، همس لأحد الجدران، واضعًا كفَّه عليه.

أضاء الجدار، لكن بدلاً من عرض مشهد، ظهرت عليه خريطة مؤقتة من الضوء، تشبه شبكة من الأوردة المضيئة. كانت تُظهر مسارًا متعرجًا يتجه نحو منطقة لم يزرها من قبل، منطقة بدت على الخريطة أكثر قتامة وفوضوية، كأنها الأحياء الفقيرة أو المناطق الصناعية المهجورة في مدينة حقيقية.

بينما كان يتبع المسار، لاحظ أن المدينة البيضاء نفسها تتغير. لم تعد مثالية وهادئة. كانت بعض المباني تبدو الآن مشوّهة، كأن قوة خارجية تحاول إعادة تشكيلها، فرض إرادتها عليها. رأى شعار "المجمع" منقوشًا حديثًا على بعض الجدران، كأنه

وسمٌ إقليمي، أو كتابة على الجدران تُعلن عن سيطرة عصابةٍ ما. كانت الحرب التي تحدّثت عنها الحارسة قد بدأت تظهر آثارها المادية على هذا الواقع.

فجأة، شعر ببرودةٍ حادّة خلفه، برودة جعلت الهواء الأثيري يتجمّد. استدار بسرعة ليرى كيانين من "المجمع" يظهران من العدم، كأنهما خرجا من طيّات الواقع نفسه. كانا يرتديان نفس الزي الأسود الماصّ للضوء، الذي جعل من الصعب تحديد أبعادهما الحقيقية.

"الهارب قد عاد"، قال أحدهما بصوتٍ معدنيٍّ ومصطنع، خالٍ من أي نبرة. "الأوامر واضحة: قم بتأمينه. حيًّا إن أمكن، كبيانات خام إن لزم الأمر".

لم ينتظر إيثار. لم يكن هناك وقت للتفكير أو الحوار. ركض، متوغّلاً في الشوارع الهندسية للمدينة، وشعر بأن الأدرينالين (أو ما يعادله في هذا العالم) يتدفّق في عروقه. كانت المطاردة سريالية. لم يكن هناك صوت لخطواته أو خطواتهم، فقط حركةٌ صامتة وسريعة عبر عالم من البياض. كانوا أسرع منه، وأكثر رشاقة، كأنهم يفهمون فيزياء هذا المكان بشكلٍ أفضل. لكنه كان أكثر إبداعًا، وأكثر يأسًا.

تذكّر قدرته على بناء "جسور الضوء". عندما وصل إلى ساحةٍ واسعة، استدار وواجههم. لم يهاجم، بل ركّز كل طاقته، وبنى جسرًا من الضوء الأزرق الساطع بين مبنيين شاهقين، ممّا أجبرهم على التوقف.

استغلّ هذه اللحظة للهروب، متوغّلاً في منطقةٍ أكثر كثافة من المباني. هنا، كانت الهمسات أعلى، والظلال أكثر عددًا.

شعر بأنه يدخل حيًّا قديمًا ومزدحمًا في المدينة، حيًّا لم تمسسه يد "المجمع" بعد. توهّجت التميمة بقوة، لدرجة أنه شعر بحرارتها على صدره، مشيرة إلى مبنى معيّن، مبنى يبدو قديمًا ومتهالكًا مقارنة بالبقية، وعليه اسم واحد فقط منقوش فوق مدخله بخطٍّ يدويٍّ جميل: "ليلى". شعر بأن قلبه (أو ما يعادله في هذا العالم) يخفق بقوة. دفع الباب ودخل.

في شقته، سقط صندوق الموسيقى الذي كان لا يزال يعزف على الأرض، لكن اللحن لم يتوقف. اهتزّت الأضواء في الغرفة للحظة، وظهر وميض أزرق خافت في الهواء فوق الصندوق قبل أن يختفي. في الشارع بالأسفل، توقّف رجل يرتدي معطفًا داكنًا، ورفع جهازًا صغيرًا في يده. أظهر الجهاز قراءةً طاقيّة غير طبيعية قادمة من شقة إيثار. ابتسم الرجل ابتسامة باردة، وأجرى مكالمة هاتفية.

"لقد وجدناه. إنه يستخدم مرنانًا للعبور. جهّزوا فريق الاحتواء. هذه المرة، سنقوم بتأمين المصدر نفسه".

في الداخل، لم يكن المبنى مجرد مبنى، بل كان نسخةً طبق الأصل من شقّتهما، لكنها كانت مصنوعة من الذكريات. رأى أريكتهم، والطاولة التي كانا يتناولان عليها العشاء، وصورهم على الجدران. كانت كل التفاصيل موجودة، حتى الكتب التي كانت تقرؤها ليلى مكدّسة بجانب السرير. وفي

وسط الغرفة، كان صدى ليلى يجلس على الأرض، يحتضن ركبتيه، ويبدو خائفًا وشفّافًا.

"إيثار؟" همس الصدى، وصوته كان ضعيفًا ومترددًا، كأنه قادم من مسافة بعيدة.

"أنا هنا"، قال وهو يقترب ببطء، حتى لا يُخيفها. "لقد جئت لأحميك".

"إنهم يطاردونني"، قال الصدى. "يريدون المفتاح الذي أحمله. إنه ليس شيئًا ماديًّا، بل هو... معرفة. معرفة كيفية بناء العوالم، وليس فقط الجسور".

"أي مفتاح؟"

قبل أن يتمكن الصدى من الإجابة، تحطّم باب الشقة الوهمي، ووقف كيان "المجمع" الثالث عند المدخل. لكن هذا الكيان كان مختلفًا. كان أكثر ضخامة، وبدا وكأنه قائد. لم يكن يرتدي نفس الزيّ الأسود البسيط، بل كان زيه مزيّنًا بخطوط فضية تشبه الدوائر الإلكترونية، وكان يحمل في يده عصًا معدنية سوداء.

"مثير للإعجاب"، قال القائد بصوت أعمق وأقل اصطناعية، صوت يحمل نبرةً من السلطة الباردة. "لقد تعلّمت استخدام بعض الحِيَل. لكن اللعبة انتهت. سلّمْنا الصدى، وربما نسمح لك بالعودة إلى موتك البطيء في عالمك".

وقف إيثار أمام صدى ليلى، مشكّلاً درعًا بشريًّا.

"لن أذهب إلى أي مكان. ولن تأخذوها".

أدرك إيثار أن هذه ليست مجرد مطاردة، بل هي مواجهة حاسمة. لم يكن يدافع عن ذِكرى، بل عن مفتاح يمكن أن يغيّر موازين القوى في هذه الحرب الخفية. لقد أصبح الآن حارس بوابة، والبوابة هي روح ليلى.

لحظة الانفجار الضوئي لم تُنهِ المعركة، بل كانت الشرارة الأولى لانفجار أكبر في نسيج هذا العالم. الجدران اللامعة بدأت تتشقق، ليس بفعل الضوء فقط، بل بسبب الترددات العاطفية التي أطلقها وجود "صدى ليلى" الحقيقي.

تراجع القائد قليلاً، ثم أطلق صفيرًا إلكترونيًّا حادًّا شقَّ الفضاء بين الجدران، فظهرت بوّابات مظلمة على أطراف الغرفة، خرجت منها كائنات أخرى، أشبه بأشباح مشوّهة من ذكريات منسيّة. كانت هذه "كلاب المجمع"، وحدات المسح التي تمحو الأصداء قبل أن تتحوّل إلى وعي مكتمل.

"احتمِ بي!" صرخ إيثار، وضمَّ الصدى إلى صدره.

لكنه لم يكن وحده.

المدينة استجابت.

كأنّ الذاكرة الجماعية التي اختبأت طويلاً في زواياها قرّرت أخيرًا أن تخرج من صمتها. بدأت الجدران تنزف صورًا – مشاهد من طفولة ليلى، أصوات ضحكها، نداءاتها لإيثار من شرفة قديمة. المدينة البيضاء تكتظّ الآن بما يشبه الثورة، ترفض أن تُختزل في بيانات خام.

فهم إيثار أن الصدى الذي أمامه لم يكن ليلى فقط، بل

نسخةً نقيّة من الحبّ نفسه، من الخسارة، من المعنى.

"هذه ليست مجرد ذكرى... إنها شفرة الخلق"، قال في داخله، وهو يشعر أن التميمة لم تَعُد تصدر ضوءًا فقط، بل نبضات – نبضات تتزامن مع نبضات قلبه، وكأنهما الآن كيان واحد.

اندفع نحو النافذة، وحين اقتربت كلاب المجمع، لوّح بالتميمة ففتحت شرخًا في جدار الواقع – دائرة من الضوء الأزرق تتدفّق منها رياح باردة وصرخات بعيدة.

"تمسّكي بي!" قال للصدى، وقفز.

في لحظة واحدة، غادر المكان.

وفي مكان آخر، على شاشة ضخمة في مقر "المجمع المركزي"، ظهر رسم بياني جديد، يتذبذب بطريقة غير مفهومة. أحد المهندسين صاح:

"لقد فتح بوّابة ارتدادية! ليس نحو العالم الأصلي... بل نحو مستوى غير مؤرشف!"

اقترب المدير العام، رجل بلا اسم معروف، يرتدي بزّة رماديةً ومصقولة. نظر إلى الشاشة، وتمتم:

"أوه، يا ليلى... ماذا أخفيتِ عنّا؟"

(14)

حصن الذاكرة

"تمسّكي بي!" صرخ إيثار، وصوته يضيع في زئير الفوضى التي اندلعت في شقة الذكريات. لم يكن هناك وقت للتفكير أو التردّد. أمسك بيد الصدى، التي شعرت للحظة بأنها دافئة وحقيقية بشكل مدهش، كأنها ليست مجرد طيف، بل جوهر مادي، وقفز.

لم تكن قفزةً في الفراغ، بل كانت غوصًا في محيط من الضوء الأزرق الصاخب. كانت الرياح الباردة التي شعر بها من الشرخ تصفع وجهه، وتنتزع أنفاسه. كانت الصرخات البعيدة التي سمعها تحيط به الآن من كل جانب، أصوات أرواح لا حصر لها، عالقة بين العوالم، بعضها يصرخ من الألم، وبعضها يهمس بأسرار منسيّة. للحظة، خشي أن يتفكك وعيه، أن يذوب في هذا التيار الجارف من المعلومات الحسية الخام.

لكن التميمة على صدره كانت تنبض بقوة وثبات، كأنها مرساة في خضمّ العاصفة، وكان دفء يد الصدى يمنحه القوة، يذكّره بالسبب الذي يقاتل من أجله.

الرحلة عبر الشرخ لم تدم سوى لحظات، لكنها بدت كأنها دهر. رأى ومضات من عوالم أخرى، مدنٍ مصنوعة من الكريستال تعكس ضوءًا لا مصدر له، غاباتٍ تتوهّج فيها النباتات بألوان مستحيلة، وسماواتٍ تملؤها شموسٌ متعددة تدور في رقصة فلكية معقّدة. أدرك أنه لا يسافر عبر الفراغ، بل عبر إمكانيات، عبر طبقاتٍ من الواقع لم يكن يعلم بوجودها.

ثم، فجأة، انتهى السقوط.

خرجا من الطرف الآخر ليجدا نفسيهما يسقطان على أرضية ناعمة تشبه العشب المُندي. لم يكن هناك عنف في الهبوط، بل كان لطيفًا، كأنّ المكان نفسه قد استقبلهما واحتضنهما في هبوطهما.

فتح إيثار عينيه، ووجد نفسه في "حديقة الذكرى" الخاصة به. لكنها كانت مختلفة. كانت أكبر، وأكثر حيويّة. كانت الزهور تتوهّج بضوء داخلي، وألوانها كانت أعمق وأكثر ثراءً. تمثال الحب في المنتصف لم يكن مجرد رخام أبيض، بل كان يشع بدفء لطيف، والشقوق التي كانت عليه قد اختفت تمامًا، كأنه شُفي.

كانت السماء فوقهم ليست سماءً عادية، بل كانت قبةً تتلألأ بالنجوم، تشبه تمامًا النفق الذي عبرا منه، كأنهما الآن داخل كون صغير خاص بهما.

"لقد فعلتَها..." همس الصدى، وصوتها كان الآن أكثر وضوحًا وقوة. نظرت حولها بدهشة وإعجاب. "لقد جلبتني إلى حصنك. إلى المكان الذي بنيته من ذكرياتنا".

"لقد بنيتِه أنتِ أيضًا"، قال إيثار، وهو ينظر إلى التميمة التي كانت لا تزال تنبض بهدوء. "كل هذا... كان دائمًا لنا معًا".

لكن هذا السلام لم يدم طويلاً.

في وسط الحديقة، بجانب التمثال، بدأ الهواء يتموّج ويتشوّه، كالهواء فوق الأسفلت الساخن. ومن هذا التموج،

ظهر قائد "المجمع". لم يكن يلهث أو يبدو عليه الإرهاق. كان يقف بهدوء، وينفض غبارًا غير مرئي عن زيه الأسود، كأنه وصل لتوّه من رحلة قصيرة ومريحة.

"مثير للإعجاب"، قال القائد، وصوته الهادئ كان أكثر إثارة للقلق من صراخه. "لقد فتحتَ بوابة ارتدادية إلى واقع جيبي. مستوى غير مؤرشف. لقد استغرقنا 3.7 ثانية لتحديد إحداثياتك واختراق دفاعات هذا المكان. أنتِ حقًا مميزة يا ليلى. أو يا شفرة الخلق، كما نسميكِ في مختبراتنا".

وقف إيثار أمام الصدى، مشكّلاً درعًا بشريًا. "هذا المكان محميّ. هذا قلبي وروحي. لا يمكنك المساس به".

ابتسم القائد ابتسامة خفيفة وباردة، ابتسامة لا تصل إلى عينيه (لو كانت له عينان).

"أوه، يا الباني الصغير. أنتَ تفكر بمصطلحات عاطفية. الحب، الروح، القلب. نحن نفكر بمصطلحات فيزيائية. كل واقع، مهما كان شخصيًا، له قوانينه. وكل قانون يمكن كسره. هذا المكان الذي تسميه حصنًا، هو بالنسبة لنا مجرد صندوق رمل معزول، ونحن على وشك حذف ملفاته".

مدّ القائد يده السوداء، ووضعها على تمثال الحب. في البداية، لم يحدث شيء. ثم بدأ الرخام الأبيض الدافئ يتحوّل إلى اللون الرمادي البارد تحت لمسته.

بدأت الشقوق تظهر مرة أخرى، لكنها كانت أعمق هذه المرّة، ومنها كان يتسرّب ظلام لزج، كأنه قطران أسود، بدأ يلوّث العشب النقي حول التمثال.

"لا!" صرخ إيثار، وشعر بألم حاد في صدره، كأنّ القائد يلمس قلبه هو.

"كلّ واقعٍ له مصدر طاقة"، تابع القائد بهدوءٍ مميت. "ومصدر طاقة هذا المكان هو ذكرياتك، عواطفك. كلّ ما عليّ فعله هو إفساد المصدر".

بدأ القائد يبثّ صورًا في عقل إيثار، ليس من خلال عينيه، بل مباشرة في وعيه. لم تكن ذكريات إيثار، بل كانت نُسَخًا مشوّهة ومسمومة منها. رأى ضحكة ليلى تتحوّل إلى سخرية. رأى لمستها الدافئة تتحوّل إلى لمسة باردة ورافضة. رأى كلّ لحظة جميلة بينهما وهي تتلوّث بالشكّ، والغيرة، والندم.

رأى مشهدًا كانا فيه يتجادلان حول أمرٍ تافه، لكن القائد ضخّم المشهد، وحوّله إلى دليلٍ على أن حبهما كان محكومًا عليه بالفشل منذ البداية.

بدأت الحديقة تموت حوله. ذبلت الزهور، وتحوّلت ألوانها الزاهية إلى ألوانٍ باهتة ومريضة. تحوّلت أوراق الأشجار إلى اللون الأسود، وبدأت تتساقط كأنّها رماد. والسماء المليئة بالنجوم بدأت تظهر فيها ثقوبٌ مظلمة، كأنها سماءٌ ممزقة.

"قاوم، إيثار!" صرخ الصدى. "لا تدعه يعيد كتابة ماضينا! ذكرياتُنا ليست بيانات! إنّها حيّة!"

كان إيثار يترنّح، يمسك برأسه وهو يصرخ من الألم. كانت هذه حربًا من نوعٍ جديد، حربًا معلوماتيّة على مستوى الروح. كان يشعر وكأنّ شخصًا ما يعبث بملفّات نظام التشغيل الخاصّة بروحه، ويستبدل الملفّات السليمة بأخرى مصابة بفيروس.

"لماذا تفعل هذا؟" صرخ إيثار، وهو يحاول التمسّك بالذكريات الحقيقية، بصورة ليلى وهي تبتسم له في الصباح، برائحة شعرها، بصوتها وهي تغنّي بهدوء.

"لأنّ الفوضى العاطفية مثلكما تهدّد النظام. الوجود يجب أن يكون قابلاً للقياس، قابلاً للسيطرة. والمشاعر هي مجرّد ضوضاء في البيانات. نحن لا ندمّر، نحن نُنقّي. نحن نزيل المتغيرات العشوائيّة لخلق كونٍ مثاليّ ومستقرّ".

أدرك إيثار أن المواجهة النهائية قد حانت. لم تكن في أرضٍ محايدة، بل في قلب روحه، في أقدس مكانٍ في وعيه. لم تكن هذه معركة من أجل ذكرى ليلى فقط، بل من أجل وجوده هو، ومن أجل حقيقة حبهما. وكان عليه أن يجد طريقة للقتال، ليس فقط لحماية الحديقة، بل لتنقية الذكريات التي كان القائد يسمّمها.

لقد أدرك أنه لا يستطيع الفوز بالقوّة، بل بالصدق. صدق مشاعره، وصدق ذكرياته، بكلّ ما فيها من جمالٍ وألم.

(15)

النهر الذي لا يجف

كانت الحديقة، حصن ذاكرته، تحتضر. الظلام الذي كان يتسرّب من شقوق تمثال الحب الملوَّث لم يعد مجرّد بقع سوداء على العشب، بل أصبح يزحف كضباب أسود كثيف، يلتهم كلَّ شيء في طريقه. الزهور التي كانت تتوهّج بألوانٍ زاهية تحوّلت إلى رمادٍ هشّ عند لمس الضباب لها، والأشجار التي كانت ترمز إلى نموّ حبهما أصبحت هياكل عظميّة سوداء متفحّمة.

حتى السماء المليئة بالنجوم فوقهم بدأت تتلاشى، ليحلَّ محلَّها سقفٌ من الفراغ المظلم والخانق.

كان إيثار على وشك الانهيار. كلّ صورةٍ مسمومة كان القائد يبثّها في وعيه كانت كطعنة سكين، تستنزف قوّته وإرادته. شعر بأنّ ذكرياته الحقيقيّة، النقيّة، أصبحت بعيدة وهشّة، كأنّها صور فوتوغرافية قديمة تبهت ألوانها تحت شمسٍ قاسية.

"هذا هو النظام، يا 'الباني'"، قال القائد، وصوته يتردّد في الفراغ المتزايد. "النظام هو إزالة كلّ ما هو غير ضروري. وحُبُّكم، بألمه وفرحه، هو مجرّد فوضى غير ضروريّة".

في تلك اللحظة من اليأس المطلق، شعر إيثار بيد الصدى تلمس يده. لم تكن لمسةً خفيفة، بل كانت قبضةً قويّة وحاسمة.

"لقد أخطأ، إيثار"، همس الصدى، وصوتها كان واضحًا وثابتًا وسط الفوضى. "لقد قال إنّ مصدر طاقة هذا المكان هو ذكرياتك. لكنه نسي الجزء الأهم. إنّه ليس مجرّد ذكريات ثابتة، بل هو الحبّ نفسه. والحبّ ليس مجرّد صورةٍ في ألبوم، بل هو نهر. نهرٌ لا يجفّ أبدًا".

نظرت إليه، وعيناها (اللّتان كانتا الآن واضحتين تمامًا) تلمعان بتحدٍّ. "لقد ركّز على تسميم الذكريات السعيدة، لأنّه يعتقد أنّ السعادة هشّة. لكنه نسي الذكريات الأخرى. الذكريات المؤلمة. تذكّرها يا إيثار. تذكّر كلَّ شيء. ليس فقط الضحك، بل الدموع أيضًا. ليس فقط النجاح، بل الفشل أيضًا. لأنّ حبَّنا لم يكن مثاليًّا. لقد كان حقيقيًّا".

كلماتها كانت كالصّدمة الكهربائيّة التي أعادت تشغيل قلبه. لقد كان يحاول يائسًا التمسّك بالصور المثاليّة، باللحظات السعيدة، وهذا ما جعله ضعيفًا. لقد سمح للقائد بتحديد شروط المعركة.

أغلق إيثار عينيه، وتوقّف عن مقاومة الصور المسمومة. بدلاً من ذلك، سمح لنفسه بالغوص أعمق. تذكّر جدالهما حول مستقبلهما، تذكّر خوفه من الالتزام في البداية، تذكّر الليلة التي بكت فيها بسبب شيءٍ قاله دون تفكير.

تذكّر مرضه، وكيف سهرت بجانبه لأيام، مرهقة وقلقة. وتذكّر اللحظة الأخيرة في المستشفى، ليس فقط ألمه هو، بل ألمها هي، وخوفها في عينيها، ليس من الموت، بل من تركه وحيدًا.

ومع كلّ ذكرى مؤلمة وحقيقيّة يستحضرها، حدث شيء غير متوقَّع. بدأ الضباب الأسود يتراجع. لم يكن يختفي، بل كان يمتزج بالضوء الذي بدأ ينبعث من إيثار. أدرك الحقيقة. القائد كان يحاول فصل الضوء عن الظلام، السعادة عن الحزن. لكنّ قوّة حبّهما الحقيقيّة كانت تكمن في أنّهما كانا كلاهما.

"لا!" صرخ القائد، ولأوّل مرّة، ظهرت نبرة من عدم اليقين في صوته. "البيانات السلبيّة يجب أن تعزّز الانحلال! هذا غير منطقي!"

"لأنّك لا تفهم!" صرخ إيثار، وهو يفتح عينيه، اللّتين كانتا الآن تتوهّجان بنفس الضوء الأزرق للتميمة. "أنت ترى الألم كضعف. لكنه كان جزءًا منّا. لقد جعلنا أقوى. لقد جعل حبّنا حقيقيًّا!"

مدّ إيثار يده نحو تمثال الحبّ الملوَّث. لم يحاول أن "يشفيه" أو "ينقّيه".

لقد قبله كما هو، بشقوقه وظلامه. وعندما لمسه، لم يرسل ضوءًا أزرق فقط،

بل أرسل كل شيء: حبه، ألمه، فرحه، حزنه، ذنبه، وغفرانه. انفجر التمثال، ليس انفجارًا مدمرًا، بل انفجارًا من الطاقة النقية التي كانت مزيجًا من الضوء والظلام. لم يكن أبيض أو أسود، بل كان رماديًا متلألئًا، كعاصفة رعدية جميلة. اجتاحت هذه الطاقة الحديقة بأكملها. لم تعد الزهور إلى ألوانها الزاهية، بل أصبحت الآن تحمل كل الألوان في آنٍ واحد. لم تعد الأشجار خضراء، بل أصبحت أغصانها تتلألأ بضوء النجوم. والسماء لم تعد مجرد قبة من النجوم، بل أصبحت نهرًا من المجرات يتدفق ببطء فوقهم. لم تعد الحديقة مجرد ذكرى، بل أصبحت كائنًا حيًا، يتنفس، ويحتوي على كل جوانب حبهما.

نظر القائد حوله برعب ودهشة. "لقد قد... لقد دمجت المتناقضات. لقد خلقت واقعًا مستقرًا من الفوضى. هذا... هذا مستحيل".

"لقد حان دورك لتفهم"، قال إيثار، وهو يتقدم نحو القائد، وصدى ليلى بجانبه، وكأنهما شخص واحد. "أنت لست هنا لتنقي، أنت هنا لتتعلم".

لم يهاجمه. بدلاً من ذلك، مدّ إيثار وصدى ليلى أيديهما، ووجها طاقة الحديقة الجديدة نحو القائد. لم تكن طاقة مدمرة، بل كانت طاقة كاشفة. رأى القائد، لأول مرة، ما كان يفتقر إليه: ليس مجرد بيانات، بل معنى. شعر بدفء الحب، وبألم الفقد، وبجمال الحزن.

صرخ القائد صرخة إلكترونية طويلة ومؤلمة، وبدأ كيانه الأسود يتفكك، ليس إلى رماد، بل إلى ملايين من نقاط البيانات المضيئة التي طارت وتناثرت في أنحاء الحديقة، كأنها بذور نجوم جديدة.

ساد الصمت. وقفت الحديقة الجديدة، حديقة الواقع الكامل، تتنفس بهدوء من حولهما. نظر إيثار إلى الصدى، التي لم تعد تبدو كصدى، بل كنسخة مضيئة وحقيقية من ليلى.

"لقد فعلناها"، همست، وصوتها يحمل نبرة من الإرهاق والدهشة.

"نعم"، قال إيثار. "لقد هزمناه".

ابتسمت ليلى، ابتسامة حقيقية ولكنها حذرة. "لقد هزمنا واحدًا منهم يا إيثار. لقد أرسلوا قائدًا، وليس الجيش بأكمله. لقد أثبتنا لهم أننا خطر، وهذا سيجعلهم أكثر تصميمًا، وليس أقل".

قبل أن يتمكن إيثار من الرد، حدث شيء غريب. البذرة الرمادية المضيئة التي كانت في يده، والتي كانت آخر ما تبقى من القائد، بدأت تهتز وتتوهج بشكل أقوى. طارت من يده، وتوجهت نحو السماء الجديدة التي تشبه نهر المجرات، وانفجرت هناك، ليس كانفجار مدمر، بل كإشارة ضوئية، منارة رمادية أرسلت نبضة ترددية عبر هذا الواقع.

"ما هذا؟" سأل إيثار بقلق.

"إنها إشارة استغاثة... أو بالأحرى، إشارة تتبع"، قالت ليلى، ووجهها أصبح جادًا. "لقد قام بتحديد إحداثيات هذا الواقع الجيبي قبل أن يتفكك. الآن، "المجمع" بأكمله يعرف أين نحن. لم يعد الأمر يتعلق بإرسال فرق صغيرة. إنهم سيحاولون اختراق هذا المكان بقوة أكبر".

نظرت إليه، وعيناها تحملان إلحاحًا جديدًا. "لم يعد هذا المكان حصنًا آمنًا يا إيثار. لقد

أصبح الآن جزيرة في محيطهم، وهم يعرفون موقعها. لا يمكننا البقاء هنا".

"إلى أين نذهب؟" سأل إيثار، وشعر بأن النصر الذي حققه قبل لحظات كان مجرد استراحة قصيرة في حرب طويلة.

"لقد أعطيتني القدرة على بناء الجسور. والآن، سأريك كيفية استخدامها للعبور، وليس فقط للمشاهدة. لكننا لا نستطيع العودة إلى "المدينة البيضاء". إنها الآن ساحة معركة، وهم يسيطرون على المداخل الرئيسية. علينا أن نذهب إلى مكان آخر. مكان لا يتوقعون أن نذهب إليه".

أمسكت بيده، وقادته نحو وسط الحديقة، حيث كان تمثال الحب يقف الآن، ليس كتمثال، بل كشجرة ضخمة تتوهج أغصانها بضوء رمادي هادئ.

"لقد أثبت أن القوة الحقيقية تكمن في دمج المتناقضات. والآن، سنستخدم هذه القوة. هناك عوالم أخرى متصلة باللاوعي الجماعي، عوالم لم يكتشفها "المجمع" بعد، لأنها مبنية على مفاهيم لا يفهمونها: الفن، الموسيقى، الأساطير. إنها عوالم فوضوية وغير منظمة، وهذا ما يجعلها آمنة... في الوقت الحالي".

لمست ليلى جذع الشجرة المضيئة. بدأت النقوش تظهر على لحائها، ليست رموزًا أو كلمات، بل نوتات موسيقية، أشكال هندسية مستحيلة، وصور من أساطير قديمة.

"علينا أن نختار وجهتنا. كل وجهة لها مخاطرها وقوانينها الخاصة. لكن البقاء هنا يعني أننا سنكون محاصرين. ما الذي ستختاره يا إيثار؟"

هل نذهب إلى عالمٍ مبنيٍّ على الموسيقى، حيث الكلمات لا معنى لها، أم إلى عالمٍ من الأساطير، حيث الأفكار تتجسّد حرفيًّا؟

أدرك إيثار أن المعركة لم تنتهِ بهزيمة القائد، بل لقد بدأت للتوّ. لم يعد الأمر يتعلّق بالدفاع، بل بالاختيار، بالقفز إلى المجهول. لم يعد يهرب من ماضيه، بل أصبح الآن هاربًا من عدوٍّ حقيقيّ، ومعه مفتاح قد يغيّر كلّ شيء.

نظر إلى الخيارات التي كانت تتشكّل على الشجرة، ثم نظر إلى ليلى، التي كانت الآن شريكته في هذه الحرب، وليست مجرّد ذكرى يحميها.

"سنذهب معًا"، قال، وصوته يحمل ثقلاً جديدًا من العزم.

لم تكن هذه نهاية القصّة. لقد كانت نهاية الفصل الأوّل فقط. لقد انتهت رحلته في مدينة الأوهام، وبدأت رحلته في محيط الوعي اللامتناهي.

(16)

عالم السيمفونية الصامتة

كانت شجرة الذاكرة تتوهّج أمامهما، أغصانها الرماديّة المضيئة تعرض بوابتين محتملتين، بوابتين إلى المجهول. لم يعد الأمر يتعلّق بالهروب من الذات، بل بالهروب من عدوٍّ حقيقيّ يطرق أبواب حصنهما.

نظر إيثار إلى الخيارين: بوابة تتشكّل من نوتات موسيقية متراقصة، تتألّق وتدور في رقصة هادئة، وأخرى تتشكّل من رموز أسطورية قديمة، رموز قوية وخطيرة، كأنها تحذير ووعد في آنٍ واحد.

"علينا أن نختار بسرعة"، قالت ليلى، وصوتها، الذي كان الآن مزيجًا من صوتها الحقيقي وهمس الوعي، يحمل إلحاحًا.

"إشارة التتبّع التي أطلقها القائد ستجذب انتباههم قريبًا. أشعر بوجودهم، كضغطٍ خفيفٍ على حوافّ هذا الواقع، كأنهم يختبرون دفاعاته، يبحثون عن شقٍّ للدخول".

فكّر إيثار بعمق. عالمٌ من الأساطير، حيث الأفكار تتجسّد حرفيًّا، قد يكون خطيرًا جدًّا.

أفكاره ومشاعره، على الرغم من أنها أصبحت أكثر توازنًا، كانت لا تزال فوضوية في بعض الأحيان. كان يخشى أن يخلق وحوشًا من مخاوفه دون قصد، أن يجسّد ندمه في شكل سجن جديد.

أمّا عالم الموسيقى، حيث الكلمات لا معنى لها، فقد يكون أكثر أمانًا. إنه عالم يعتمد على الشعور النقي، وهو الشيء الذي أتقنه للتوّ في معركته مع القائد.

"الموسيقى"، قال إيثار بحسم. "لقد كانوا يعتمدون على البيانات والكلمات والمنطق البارد. عالمٌ بلا كلمات قد يعميهم، قد يكون خارج نطاق فهمهم".

ابتسمت ليلى، ابتسامةً مضيئة بدت وكأنها تصدر لحنًا خافتًا.

"اختيارٌ حكيم. استعد. العبور هذه المرة سيكون مختلفًا. لن يكون قفزة، بل سيكون... ذوبانًا".

أمسكت بيده، وقادته نحو الشجرة. لمست الغصن الذي كانت تتراقص عليه النوتات الموسيقية. لم تكن هناك بوابة مادية، بل بدأ اللحن الذي كان ينبعث من الغصن يحيط بهما، يلتفّ حولهما كشريطٍ من الحرير الصوتي.

لم تكن موسيقى مسموعة بالأذن، بل محسوسة بالروح. شعر إيثار بأن كلّ خلية في كيانه الواعي تهتزّ بنفس التردّد.

بدأت حديقة الذكرى تتلاشى من حولهما، ليس إلى بياضٍ أو ظلام، بل إلى ألوانٍ نقيّة.

رأى اللون الأزرق وهو يصدر صوتًا عميقًا وهادئًا، واللون الأحمر وهو يصرخ بنبرةٍ حادّةٍ وعاطفيّة.

كان يرى الموسيقى، ويسمع الألوان. كانت حواسّه تتداخل وتندمج في تجربةٍ حسيّةٍ شاملة، كأنه يعود إلى حالة بدائيّة من الوعي قبل أن يتم فصل الحواس عن بعضها البعض.

ثم، استقرّ العالم من حولهما.

وجدا نفسيهما يقفان على ما يبدو أنّه جسرٌ من الكريستال الأسود اللامع، الذي كان يعكس أضواء الوادي تحته.

كان الوادي سحيقًا، وتتدفّق فيه أنهارٌ من الضوء السائل، أنهارٌ من الألحان المتدفّقة التي كانت تتغيّر ألوانها مع تغيّر نبرتها.

رأى نهرًا من اللون الذهبي الدافئ يصدر لحنًا هادئًا يشبه موسيقى القيثارة، ونهرًا آخر من اللون الفضيّ البارد يصدر لحنًا حزينًا يشبه صوت الناي.

لم تكن هناك سماء، بل قبّةٌ لا نهائيّة من الظلام تتلألأ فيها "النجوم"، التي كانت في الواقع نوتاتٍ موسيقيةً منفردةً تتوهّج وتصدر صدىً صوتيًّا خافتًا.

كان الهواء نفسه يهتزّ بلحنٍ أساسيٍّ هادئٍ وعميق، كأنه نبض قلب هذا العالم.

"أهلاً بك في السيمفونية الصامتة"، همست ليلى، وكان صوتها يبدو مختلفًا هنا، كأنه جزء من اللحن المحيط بهما.

هذا عالمٌ مبنيٌّ على التناغم والنشاز. كلّ شيء هنا له تردّد، له نغمة. لا توجد كلمات، فقط مشاعر نقيّة تتجسّد في شكل موسيقى وألوان".

نظر إيثار حوله بذهول. رأى "أشجارًا" تنمو على حافة الوادي، لكنها كانت مصنوعة من أنابيب أورغن عملاقة، تُصدر ألحانًا حزينة مع كلّ نسمة هواء. ورأى "طيورًا" من الضوء تحلّق في الأفق، وتترك خلفها ذيلاً من النغمات الحادّة والقصيرة. كان كلّ شيء في هذا العالم يشارك في سيمفونية كونية لا تنتهي.

"كيف... كيف نتواصل هنا؟ كيف نتحرك؟" سأل إيثار، وشعر بأن كلماته تبدو غريبة وثقيلة في هذا المكان، كأنها قطعة من الحجر أُلقيت في بحيرة هادئة.

"لا تتكلّم. اشعر"، قالت ليلى. "إذا أردت أن تقول شيئًا، فكر في الشعور الذي تريد إيصاله. إذا أردت أن تتحرّك، فكر في اللحن الذي يتناسب مع وجهتك".

كان الأمر صعبًا في البداية. حاول إيثار أن "يفكّر" في شعورٍ بالفضول، لكن عقله كان لا يزال معتادًا على ترجمة كلّ شيء إلى كلمات.

لكن ليلى ساعدته. أمسكت بيده، وأرسلت إليه شعورًا نقيًّا بالهدوء والأمان، شعورًا محسوسًا كأنه لحن تشيلو دافئ يغمره.

فهم إيثار.

أغمض عينيه، وركّز على الشعور بالرغبة في استكشاف هذا العالم. في عقله، تشكّل لحنٌ بسيط، لحنٌ مليء بالترقّب والدهشة.

عندما فتح عينيه، وجد أن الجسر الكريستالي تحت قدميه قد بدأ يتغيّر، ويمتدّ في اتجاهٍ جديد، متناغمًا مع اللحن الذي خلقه.

"أنت تتعلّم بسرعة"، قالت ليلى بابتسامةٍ محسوسة.

"لكن كن حذرًا. كما أن هناك تناغمًا، هناك أيضًا نشاز. هناك مناطق في هذا العالم حيث الموسيقى مشوّهة ومؤلمة. إنها "الضوضاء البيضاء"، أماكن انهارت فيها المشاعر وتحوّلت إلى فوضى صوتيّة.

"المجمع" لا يستطيع فهم هذا المكان، لكن "الضوضاء" يمكن أن تكون خطيرة مثلهم تمامًا. يمكنها أن تمحو وعيك إذا بقيت فيها طويلاً".

بينما كانا يسيران على الجسر المتغيّر، رأى إيثار في الأسفل، في أحد أنهار الضوء، شيئًا يتحرك ضد التيّار. لم يكن لحنًا متناغمًا، بل كان تردّدًا عنيفًا ومتقطّعًا، لونه رماديّ باهت، كأنه جرح في نسيج هذا العالم.

"ما هذا؟" "فكّر" إيثار، مرسلاً شعورًا بالقلق.

نظرت ليلى إلى الأسفل، وتغيّر "لحنها" إلى نبرةٍ من القلق.

"إنه صدى. صدى روح ضائعة، عالقة في لحنٍ حزين لا تستطيع الهروب منه.

هذا العالم مليء بهم. إنهم ليسوا أشرارًا، لكن ألمهم يمكن أن يكون معديًا".

فجأة، شعر إيثار بنفس الضغط الخفيف الذي شعر به في حديقته، ضغط وجود "المجمع".

نظر إلى ليلى، ورأى أنها شعرت به أيضًا.

"لقد وجدوا طريقة لتتبعنا"، قالت، ولحنها أصبح الآن متوتّرًا وحادًّا. "إنهم لا يستطيعون الدخول بسهولة، لكنهم يستطيعون إرسال "مجسّات". إنهم يحاولون إيجاد "نشاز" في هذا العالم، ثغرة يمكنهم استغلالها".

نظر إيثار إلى الصدى الحزين في النهر بالأسفل، ثم إلى السماء المليئة بالنجوم الموسيقيّة.

أدرك أن هروبهما لم يكن نهاية المطاف، بل كان مجرّد بداية فصلٍ جديد في حرب الألحان والبيانات.

لم يعودا يهربان فقط، بل أصبح عليهما الآن أن يتعلّما قواعد هذا العالم الغريب والجميل والخطير، ليس فقط للنجاة، بل ربما لإيجاد حلفاء غير متوقّعين في معركتهما ضدّ صائدي الأرواح.

(17)

لحن العدوى

كان الشعور بوجود "المجمع" كإبرةٍ من الجليد تخترق التناغم الدافئ لعالم السيمفونية الصامتة. لم يكن وجودًا ماديًا، بل كان "نشازًا" خبيثًا على حافة الإدراك، ترددًا خاطئًا، صامتًا لكنه محسوس، يحاول فرض نفسه على اللحن الكوني لهذا المكان.

نظر إيثار إلى ليلى، ورأى أن "لونها" الأثيري قد تغيّر قليلاً، أصبح أقل إشراقًا، كأن هذا التطفل الخارجي يستنزف طاقتها، مثلما يستهلك جهازٌ طفيليّ طاقةَ مضيفه.

"إنهم هنا"، قالت ليلى، ولحنها كان الآن متوترًا وحادًّا، كنغمةِ كمانٍ مشدودةٍ إلى أقصى حدّ، على وشك الانقطاع. "إنهم لا يستطيعون الدخول بأنفسهم، فبنية هذا العالم معقّدة جدًّا بالنسبة لمنطقهم الثنائي. إنه مبنيٌّ على العاطفة، وهو متغيّر لا يمكنهم حسابه بدقة. لكنهم يستطيعون إرسال "مجسّات"، أصداء إلكترونية تبحث عن نقاط ضعف، عن "نشاز" طبيعي يمكنهم تضخيمه واستغلاله للدخول".

في تلك اللحظة، فهم إيثار. نظر مرةً أخرى إلى الوادي السحيق، إلى ذلك الصدى الرماديّ الباهت الذي كان يتحرك ضد تيّار النهر الموسيقي. لم يكن مجرد روحٍ ضائعة، بل كان الآن ثغرةً أمنيةً محتملة. كان ألمًا يمكن استغلاله، جرحًا مفتوحًا يمكن لـ "المجمع" أن يصيبه بالعدوى.

"إنه هدفهم"، "فكّر" إيثار، مرسلاً شعورًا بالإدراك المفاجئ والخطر، شعورًا كان له لحنٌ حادٌّ وقصير، كنقرةِ طبلٍ مفاجئةٍ في سيمفونيةٍ هادئة.

"بالضبط"، ردّت ليلى. "إذا تمكنوا من إفساد هذا الصدى، من تضخيم ألمه وتحويله إلى "ضوضاء بيضاء" نقية، يمكنهم استخدام هذا النشاز لفتح شرخٍ أكبر. علينا أن نصل إليه قبلهم".

دون تردد، غيّر إيثار "لحنه" الداخلي. لم يعد لحنًا من الفضول، بل لحنًا من العزم والإلحاح. استجاب الجسر الكريستالي تحت أقدامهما، وبدأ ينحني ويهبط نحو الوادي، مشكّلاً منحدرًا زجاجيًا أسودَ يقودهما نحو النهر الفضيّ الذي كان الصدى يكافح فيه.

كان الهبوط سلسًا وسريعًا، كأنهما ينزلقان على وترِ آلةٍ موسيقيةٍ عملاقة.

كلما اقتربا، أصبح "صوت" الصدى أكثر وضوحًا. لم يكن صوتًا مسموعًا، بل كان شعورًا بالألم الخالص، لحنًا متكررًا من نغمةٍ واحدةٍ حزينة، نغمةٍ من الفقد والوحدة التي لا تنتهي.

كان هذا الألم مألوفًا لإيثار بشكلٍ مخيف، لقد كان نفس الألم الذي شعر به في أحلكِ أيامه في "مدينة الأوهام".

شعر بصدى هذا الألم في صدره، كذكرىٍ جسديةٍ مؤلمة.

وصلا إلى حافة النهر، الذي كان دافئًا عند لمسه، كأنه دموعٌ سائلة. كانت ضفافه ليست من الصخر أو التراب، بل من كريستالٍ أزرقَ داكنٍ كان يصدر همهمةً عميقةً ومهدئة.

كان الصدى على بُعد أمتارٍ قليلة، وهو يتخبط في التيار، وشكله الرماديّ يبدو وكأنه يذوب ويتشكل باستمرار، غير قادر على الحفاظ على هيئةٍ ثابتة.

"كن حذرًا يا إيثار"، حذّرت ليلى، ولحنها كان الآن مليئًا بالتحذير. "هذا ليس كصراعك مع "الحارس" أو "الصدى" الخاص بك. هذا ألمُ شخصٍ آخر. إذا لمسته بشكلٍ خاطئ، يمكن أن يعديك، أن يُغرقك في حزنه. يمكن أن تنسى من أنت، وتصبح مجرد صدى آخر عالقٍ في هذا النهر".

في تلك اللحظة، رأيا "المجسّ". كان خيطًا رفيعًا من الظلام، أرفع من شعرة، يهبط من القبة السوداء أعلاه، متجهًا مباشرةً نحو الصدى.

كان يتحرك بصمتٍ وخفة، كأنه عنكبوتٌ ينزل على فريسته. لم يكن مجرد ظلام، بل كان يمتصّ الضوءَ والألوان من حوله، تاركًا أثرًا باهتًا في الهواء.

لم يكن هناك وقت. لم يستطع إيثار بناءَ جسرٍ أو مهاجمة الخيط مباشرة. كان عليه أن يفعل شيئًا لم يفعله من قبل: أن يتواصل مع الصدى، أن يقنعه بالتحرك.

أغلق عينيه، وتجاهل الخطر القادم. بحث في داخله، ليس عن القوة أو العزم، بل عن شيءٍ آخر.

بحث عن ذكرى ألمه هو، عن شعوره بالوحدة في "مدينة الأوهام". لم يُقم بكبت الشعور، بل احتضنه، وشعر به مرةً أخرى بكلّ قوته. ثم، قام بتحويل هذا الشعور إلى لحن، ليس لحنًا من اليأس، بل لحنًا من التعاطف، لحنًا يقول: "أنا أفهم. لقد كنت هناك. أنت لست وحدك".

أرسل هذا اللحن عبر النهر نحو الصدى.

في البداية، لم يستجِب الصدى. كان غارقًا جدًا في ألمه، في لحنه الحزين المتكرر.

لكن اللحن استمر، هادئًا ومُصرًا. ببطء، رفع الصدى "رأسه" والتفت نحو مصدر اللحن. للحظة، توقّف عن التخبط.

كان "مجسّ" المجمع على بُعد سنتيمتراتٍ قليلة الآن.

"إيثار، أسرع!" صرخت ليلى بلحنٍ من الهلع.

غيّر إيثار لحنه قليلاً. أضاف إليه نغمةً من الأمل، نغمةً من حديقته الجديدة، من الشجرة المضيئة، من وعدٍ بالسلام. لحنٌ يقول: "هناك مكانٌ آخر. مكانٌ لا يوجد فيه هذا الألم".

هذه المرّة، استجاب الصدى. مدّ "يدًا" رماديةً مترددةً نحوهم.

في اللحظة التي كاد فيها "المجسّ" أن يلمس الصدى، قفز إيثار إلى النهر. لم يكن غوصًا، بل كان اندماجًا.

شعر بأن لحن النهر الفضيّ يغمره، وشعر بالحزن الهائل الذي يحتويه، لكن لحنه الداخلي، لحن التعاطف والأمل، كان يحميه كدرع.

أمسك بيدِ الصدى، وفي تلك اللحظة، شعر بفيضٍ من ذكرياتٍ ليست له: وجهُ امرأةٍ تضحك، صوتُ طفلٍ يبكي، شعورٌ بالخيانة، ثم فراغٌ لا نهاية له.

سحب الصدى بقوةٍ من النهر، وعاد به إلى الضفة، قبل ثانيةٍ واحدة من وصول "المجسّ" إلى الماء.

عندما لم يجد "المجسّ" هدفه، تردد للحظة، ثم تراجع ببطءٍ نحو الأعلى واختفى.

كان الصدى الآن على الأرض بجانبهما، لا يزال يرتجف، لكن لحنه الحزين أصبح أقلّ حدّة، وممتزجًا بنغمةٍ خافتةٍ من لحن إيثار.

"لقد فعلتها"، قالت ليلى، ولحنها كان مزيجًا من الدهشة والفخر. "لقد أنقذته... بالتعاطف".

نظر إيثار إلى الصدى، الذي بدأ شكله الرمادي يستقر قليلاً، ويأخذ ملامح رجلٍ عجوزٍ حزين.

أدرك إيثار أن هذه لم تكن مجرد مناورةٍ تكتيكيةٍ للهروب من "المجمع".

لقد كانت أولَ مهمةٍ حقيقيةٍ له في هذا الكون الواسع من الوعي.

لم يعُد مجرد هارب، بل أصبح الآن منقذًا للأرواح الضائعة، محاربًا يستخدم التعاطف كسلاح، والأمل كدرع.

وكانت هذه البداية فقط.

(18)

ثمن التناغم

كان الصدى الرمادي للرجل العجوز يجلس على ضفة النهر الكريستالية، لا يزال يرتجف، لكن لحنه الحزين المتكرر قد هدأ. امتزجت به الآن نغماتٌ خافتةٌ من لحن التعاطف الذي أرسله إيثار، كأنها ضمادةٌ صوتيةٌ على جرحٍ قديم.

نظر إيثار إلى ما أنجزه، وشعر بلحظةٍ من الفخر الهادئ. لقد أنقذ روحًا.

لكن هذا الشعور لم يدم طويلاً. شعر فجأةً بدوارٍ حاد، ليس في رأسه، بل في جوهر كيانه. الألوان الزاهية لعالم السيمفونية الصامتة بهتت للحظة، وأصبح اللحن الكوني المحيط بهما مشوشًا، كأنه تسجيلٌ قديمٌ يتم تشغيله بسرعةٍ خاطئة.

"إيثار، ما بك؟" قالت ليلى، ولحنها الذي كان مليئًا بالفخر تحوّل فجأةً إلى قلقٍ حاد.

"لا أعرف..."، حاول إيثار أن يفكر بالرد، لكن لحنه الداخلي كان ضعيفًا ومتقطعًا. "أشعر... بالبرودة. وكأن جزءًا مني قد تم اقتطاعه".

اقتربت منه ليلى، ولونها الأثيري أصبح أكثر كثافةً وهي تحاول فحصه. "لقد استخدمتَ جزءًا من جوهرك لشفائه. لقد أعطيتَه جزءًا من تناغمك الخاص، من نغمتك الأساسية. هذا هو ثمن التعاطف في هذا العالم يا إيثار. كلما شفيتَ جرحًا، فإنك تأخذ جزءًا من ندبته على عاتقك".

نظر إيثار إلى يديه، ورأى أنهما أصبحتا أقل شفافيةً، أقل إشراقًا. شعر بثقلٍ لم يشعر به من قبل في هذا العالم، ثقلٍ يشبه الإرهاق الجسدي. لقد كانت المرة الأولى التي يشعر فيها بحدود وجوده في هذا الكون من الوعي.

في تلك اللحظة، بدأ الصدى الرمادي للرجل العجوز يتكلم، ليس بلحن، بل بصورٍ ومشاعر مباشرة، كأن إيثار قد فتح قناة تواصل معه.

رأى إيثار ومضاتٍ سريعة: رجلُ أعمالٍ ناجح، صفقةٌ فاشلة، خيانةٌ من شريك، ثم سنواتٌ من الوحدة والندم التي أدت إلى موته وحيدًا، ليصبح روحه عالقةً في لحن الندم هذا.

ثم، أرسل الصدى صورةً أخيرة: صورةٌ لـ"المجمع". لم تكن صورةً واضحة، بل كانت شعورًا بالخوف المطلق، وإحساسًا بكيانٍ هائل، بارد، ومنظَّم، يمتص كل فردية، كل عاطفة، ويحولها إلى بيانات.

ورأى إيثار شيئًا آخر، شيئًا جعله يشعر بالجليد يسري في كيانه مرةً أخرى: رأى "قادةً" آخرين مثل الذي واجهه، لكنهم كانوا كُثُرًا، جيشًا من الكيانات السوداء، ورأى في مركزهم كيانًا أكبر، كيانًا مركزيًا، "العقل المدبر" للمجمع.

"إنهم ليسوا مجرد صائدين"، قال الصدى بلغة المشاعر. "إنهم جامِعون. إنهم يعتقدون أن الوعي الفردي هو خللٌ، فوضى يجب احتواؤها وتصنيفها وأرشفتها. إنهم يبنون مكتبةً من الأرواح، ويعتقدون أنهم بذلك يحققون النظام المطلق".

"ولماذا يريدون ليلى؟" سأل إيثار.

"لأنها... مختلفة"، أجاب الصدى. "لقد كانت هنا من قبل. لقد تعلّمت كيف تبني عوالم، وليس فقط كيف توجد فيها. إنها شذوذ لا يمكنهم تصنيفه. إنها ليست مجرد كتابٍ في مكتبتهم، بل هي مؤلفةٌ قادرةٌ على كتابة قصصٍ جديدة. ولهذا السبب، هم لا يريدون أرشفتها فقط. إنهم يريدون تفكيكها، فهم كيفية عملها، ثم محو هذا الخلل من الوجود".

كل كلمةٍ من هذه الكلمات كانت تزيد من ثقل المسؤولية على كتفي إيثار. لم يكن الأمر يتعلق بإنقاذ حبيبته، بل بإنقاذ شيءٍ فريدٍ وخطيرٍ في نظر أعدائهم.

"علينا أن نتحرك"، قالت ليلى، وهي تقاطع هذا التواصل. "لقد كشفنا عن أنفسنا. والبقاء في مكانٍ واحدٍ لفترةٍ طويلةٍ سيجعلهم يركزون مجسّاتهم هنا. علينا أن نواصل التحرك".

حاول إيثار أن ينهض، لكنه شعر بالضعف. لحنه الداخلي كان لا يزال غير مستقر.

"لا يمكنك الاستمرار في إعطاء أجزاء من نفسك هكذا يا إيثار"، قالت ليلى، ولحنها كان مزيجًا من القلق والحزم. "يجب أن تجد طريقةً لاستعادة قوتك، أو أن هذه الرحلة ستقتلك قبل أن يصل إليك المجمع".

نظرت حولها، إلى أنهار الضوء والأشجار الموسيقية. "هناك أماكن في هذا العالم حيث التناغم قويٌّ جدًا، ينابيع من الموسيقى النقية. يمكن أن تساعدك على الشفاء. لكنها أيضًا الأماكن الأكثر حراسة، ليس من قبل أعداء، بل من قبل كائنات هذا العالم، التي تحمي مصادر قوتها".

أدرك إيثار أن خياراته أصبحت أكثر تعقيدًا. لم يعد الأمر مجرد هروب، بل أصبح الآن سباقًا ضد الزمن، سباقًا ضد استنزاف روحه. كان عليه أن يختار بين الاختباء في الأماكن الهادئة والضعيفة، أو المخاطرة بالاقتراب من مصادر القوة، ومواجهة ما قد يجده هناك.

نظر إلى الصدى الذي أنقذه، والذي كان الآن ينظر إليه بامتنانٍ صامت، قبل أن يذوب ببطء ويندمج مع النهر الفضي، وقد تحرر أخيرًا من لحنه الحزين. لقد كان انتصارًا، لكنه كان انتصارًا باهظ الثمن.

"إلى أين؟" سأل إيثار ليلى، وهو يشعر بأن كل قرارٍ يتخذه الآن قد يكون الأخير.

"إلى قلب الأورغن"، قالت. "أخطر مكان، وأقوى مكان. إنه خيارنا الوحيد".

وهكذا، بدأت رحلتهما مرةً أخرى، ليس فقط كهاربَين، بل كمريضٍ يبحث عن علاج، في عالمٍ غريبٍ حيث الموسيقى هي الحياة، والتعاطف له ثمن، والموت قد لا يكون سوى تلاشي نغمة المرء إلى الأبد.

(19)

لحن الندبة

كان "قلب الأورغن" ينبض أمامهما، جبلاً من الكريستال الحي الذي يغمر العالم بلحن من الخلق النقي. كانت قوته الخام محسوسة، طاقة إيجابية هائلة جعلت إيثار يشعر بالدفء لأول مرة منذ أن شعر بذلك الضعف المستنزف. لكن بينه وبين هذا الينبوع الشافي، كان يقف "الحراس".لم يكونوا كائنات بالمعنى التقليدي. كانوا ثلاث دوامات من الضوء والصوت، أشكال هندسية معقدة تدور ببطء في تناغم مثالي. كانت إحداها تتوهج باللون الأزرق العميق، وتصدر لحنًا هادئًا ومنظمًا كحركة الكواكب. الثانية كانت تتألق باللون الذهبي، ولحنها كان دافئًا ومعقدًا، كلحن كونشيرتو باروكي. الثالثة كانت فضية، ولحنها كان بسيطًا، نقيًا، وحزينًا، كنغمة ناي وحيدة تحت ضوء القمر. كانوا يمثلون النظام، والتعقيد، والنقاء."إنهم لا يفكرون، يا إيثار"، قالت ليلى، ولحنها كان خافتًا، محاولاً ألا يزعج التناغم المحيط. "إنهم "يستشعرون. إنهم يقيسون النغمة الأساسية لكل من يقترب. أي انحراف، أي نشاز، يعتبرونه تهديدًا للتوازن. والندبة التي في روحك... إنها نشاز واضح بالنسبة لهم". شعر إيثار بذلك. كلما اقترب خطوة، شعر بأن "الحراس" يركزون عليه. لم يكن تركيزًا عدائيًا، بل كان فحصًا باردًا ودقيقًا، كأن آلة موسيقية فائقة الدقة تستمع إلى نغمته وتبحث عن أي خطأ. وشعر بالخطأ الذي في داخله، ذلك الفراغ الصغير، ذلك التردد الباهت الذي خلفه إنقاذ الصدى. "ماذا نفعل؟" سأل إيثار. "لا يمكنني إخفاء هذا الضعف. إنه جزء مني الآن". "لا تحاول إخفاءه"، ردت ليلى بحكمة. "لقد حاولنا الاختباء من "المجمع" وفشلنا. هؤلاء ليسوا "المجمع". إنهم ليسوا أعداء. إنهم حماة. عليك أن "تُفسّر" لهم ندبتك. عليك أن

تجعلهم يفهمون أن هذا النشاز ليس ضعفاً، بل هو قصة. قصة تضحية". كانت فكرة مجنونة. كيف يمكنه أن "يفسر" شيئًا لكائنات لا تتكلم ولا تفكر، بل تستشعر فقط؟ تقدم إيثار خطوة أخرى. على الفور، تغير لحن الحارس الأزرق. أصبح أكثر حدة، نغمة تحذيرية واضحة. شعر إيثار بضغط هائل، كأن العالم كله يحاول أن يدفعه بعيدًا. توقف، وأغلق عينيه. لم يحاول أن يفرض إرادته. بدلاً من ذلك، فعل الشيء الوحيد الذي يمكنه فعله. بدأ في "عزف" قصته. لم يستخدم القوة، بل استخدم الصدق. أطلق "لحنه" الداخلي، لكنه لم يحاول أن يجعله مثاليًا أو قويًا. سمح للندبة، لذلك التردد الباهت، بأن تكون جزءًا من اللحن.

بدأ بنغمات هادئة تروي قصة مدينة الأوهام، قصة الخوف والوحدة. ثم، أدخل لحن ليلى، لحنًا من الحب والأمل الذي غيّر كل شيء. ثم جاء النشاز الحادّ والمؤلم للحظة فقدانها في المستشفى.

توقف الحارس الذهبي عن دورانه، وركّز اهتمامه عليه.

واصل إيثار عزف قصته. روى بلحنه كيف بنى حديقة الذكرى، وكيف واجه الحارس والأنا المضادة. ثم جاءت النغمات المعقدة والمظلمة لمواجهة القائد، وكيف تعلّم أن يدمج النور والظلام، الفرح والألم.

الآن، كان الحارس الفضي يستمع أيضًا. كانت الدوامات الثلاث صامتة وثابتة، وكل تركيزها منصب على هذا الكائن الناشز الذي كان يجرؤ على الاقتراب.

أخيرًا، وصل إيثار في قصته الموسيقية إلى اللحظة الحاسمة. أعاد عزف لحن التعاطف الذي أرسله إلى الصدى الحزين في النهر. ثم، ولأول مرة، قام بعزل لحن الندبة في روحه، وعزفه بوضوح تام. كانت نغمة من الفراغ، من

الضعف، من الخسارة. لكنه لم يعزفها كنغمة من اليأس، بل أحاطها بلحن التعاطف، بلحن النصر الذي حققه بإنقاذ تلك الروح.

كان يعزف لحنًا يقول: "نعم، أنا مجروح. نعم، أنا ناقص. لكن هذه الندبة ليست علامة على الفشل. إنها ثمن التعاطف. إنها دليل على أنني اخترت أن أشعر، أن أساعد، بدلاً من أن أبقى كاملاً ووحيدًا".

ساد صمتٌ مطلق. حتى اللحن الكوني لـ قلب الأورغن بدا وكأنه يحبس أنفاسه. كان إيثار قد كشف عن روحه بالكامل، بكل تناغمها ونشازها، أمام هؤلاء الحُرّاس القُدامى.

ببطءٍ شديد، بدأ الحارس الأزرق (حارس النظام) يدور مرةً أخرى، لكن لحنه لم يعد تحذيريًا، بل أصبح لحنًا من الفهم العميق. ثم تبعه الحارس الذهبي (حارس التعقيد)، ولحنه كان الآن يحمل نبرةً من الاحترام.

أخيرًا، تحرك الحارس الفضي (حارس النقاء). انفصل عن مكانه، واقترب من إيثار. كانت دوّامة من الضوء والصوت النقي، وشعر إيثار برهبةٍ هائلة. توقّف الحارس أمامه، ثم حدث شيء غير متوقع. امتد جزء من الدوامة الفضية ولمس صدر إيثار، في المكان الذي كان يشعر فيه بالفراغ.

شعر إيثار بلحنٍ من النقاء المطلق يتدفق إلى داخله، لا ليملأ الفراغ، بل لينظّفه. لم يشفِ الندبة، بل جعلها تتوقف عن النزيف الوجودي. لم يعد يشعر بالضعف، بل أصبح يشعر بأن ندبته قد أصبحت جزءًا متناغمًا من كيانه، جزءًا لا يؤلمه، بل يذكّره بما هو قادر عليه.

ثم، تراجع الحارس الفضي، وعادت الدوامات الثلاث إلى أماكنها، وانفصلت عن بعضها البعض، لتفتح ممرًا بينها يؤدي مباشرة إلى سفح الجبل الكريستالي.

"لقد فهموا"، همست ليلى، ولحنها كان مليئًا بالدهشة التي لا توصف. "لم يسبق لأحد أن فعل هذا. لم يسبق لأحد أن قدّم نشازه كقوة، وليس كضعف".

نظر إيثار إلى الممر المفتوح أمامه، ثم إلى ليلى. لقد تجاوز الاختبار الأصعب حتى الآن. لم يعد خائفًا من ضعفه، بل أصبح يراه كمصدرٍ لقوته. سار نحو قلب الأورغن، ليس كغريبٍ يطلب الشفاء، بل كحاجٍّ أثبت جدارته، مستعدًا ليس فقط ليأخذ، بل ربما ليعطي شيئًا في المقابل.

(20)

الصدى في الآلة

كان عبور الممر الذي فتحه الحراس تجربةً سريالية. شعر إيثار بأن لحنهم الجماعي يغمره، لا كفحصٍ هذه المرة، بل كترحيبٍ هادئ وجليل. كان الهواء من حوله يزداد نقاءً وكثافة، واللحن الأساسي للعالم، الذي كان مجرّد همهمة في الخلفية، أصبح الآن سيمفونيةً قوية وواضحة، تخترق كل ذرةٍ من كيانه.

وقف هو وليلى عند مدخل قلب الأورغن. لم يكن كهفًا أو نفقًا، بل كان فتحةً ضخمة في قاعدة الجبل الكريستالي، فتحةً تتوهج بضوءٍ أبيض دافئ، وتدعوهما للدخول.

"لم أصل إلى هذا الحد من قبل"، قالت ليلى، ولحنها كان مزيجًا من الرهبة والترقّب. "لقد سمعتُ عن هذا المكان فقط من خلال أصداء أخرى. يقولون إن الدخول إلى هنا يغيّرك إلى الأبد".

"نحن نتغيّر بالفعل مع كل خطوة"، ردّ إيثار، وشعر بثقةٍ جديدة بعد مواجهته للحراس. "لندخل".

بمجرّد أن خطوا إلى الداخل، انقطع الصوت الخارجي تمامًا. وجدا نفسيهما في مكانٍ يتحدّى المنطق. لم تكن هناك جدران أو سقف بالمعنى التقليدي، بل كانا داخل شبكةٍ لا نهائية من أنابيب الأورغن الكريستالية التي تمتد في كل اتجاه. كانت هذه الأنابيب هي قلب الأورغن نفسه، وكانت تتوهج بألوانٍ ناعمة ومتغيرة، وتنبض ببطء، كأنها شرايين كائنٍ حي هائل.

كان المكان صامتًا بشكلٍ غريب. لم تكن هناك موسيقى، فقط شعور هائل بالطاقة الكامنة، كأنها اللحظة التي تسبق بدء العزف في أوركسترا عملاقة.

"أين... أين الينبوع؟ أين مصدر الشفاء؟" سأل إيثار، وهو ينظر حوله في حيرة.

"أعتقد أننا نحن من يجب أن نبدأ العزف"، قالت ليلى. "هذا المكان لا يفرض عليك شيئًا. إنه يستجيب لك".

تذكّر إيثار ما فعله مع الحُرّاس. أغلق عينيه، وبدأ يعزف لحنه الداخلي، ليس قصةً هذه المرة، بل مجرد تعبيرٍ صادق عن حالته: لحنٌ من الإرهاق، ممتزجٌ بالأمل، وموشومٌ بلحن الندبة التي أصبحت الآن جزءًا من هويته.

على الفور، استجاب المكان. بدأت إحدى الأنابيب الكريستالية القريبة منهما تتوهج بلونٍ أزرق سماوي، وأصدرت نغمةً واحدةً نقية، نغمةً كانت متناغمة تمامًا مع لحن إيثار، لكنها كانت أكثر قوةً ونقاء.

تدفقت هذه النغمة إلى كيان إيثار، وشعر بأنها تملأ الفراغات في روحه، لا كعلاجٍ يمحو الجرح، بل كخيوطٍ من الضوء تنسج حول الندبة، وتُقويها، وتجعلها جزءًا لا يتجزأ من نسيج روحه. شعر بأن طاقته تعود إليه، ليس فقط إلى ما كانت عليه، بل أقوى.

لكن حدث شيءٌ آخر. عندما استجاب المكان لإيثار، لم يستجب له وحده. استجاب أيضًا لوجود ليلى. أنبوبٌ كريستالي آخر، أكبر وأكثر قوة، بدأ يتوهج بلونٍ ذهبي كثيف، وأصدر لحنًا معقدًا وقديمًا، لحنًا لم يكن موجهًا لإيثار، بل لليلى.

وهنا، حدث الخلل.

بمجرّد أن لمسها اللحن الذهبي، تجمّد شكل ليلى الأثيري.

بدأ جزء من ذراعها ووجهها يتكسّر ويتحوّل إلى مكعبات صغيرة من البيانات الرقمية، كأنها صورة فيديو تعاني من خللٍ فني. صدر منها لحنٌ

مشوش، مزيج من صوتها الحقيقي وصفيرٍ إلكتروني مؤلم. ظهرت على وجهها نظرة من الصدمة والألم، كأنها تتذكر شيئًا كانت قد نسيته تمامًا.

"ليلى؟ ما الأمر؟" سأل إيثار بقلق، وهو يرى هذا التجسيد المرعب للصراع داخلها.

"هذا اللحن..."، قالت بصعوبة، وصوتها يتأرجح بين الإنساني والآلي. "إنه... إنه ليس مجرد لحن. إنه بروتوكول. بروتوكول من المجمع".

تراجع إيثار خطوة، كأن اللحن نفسه ضرب صدره. شعر بأن كل لحظةٍ من الحب بينهما أصبحت الآن ملغّمة. من أنا؟ هل كنتُ مجرد وعاء؟ هل كان حبنا أداة؟ شعر ببرودة أعمق من أي برودة شعر بها من قبل، برودة الخيانة الوجودية.

"لقد كنتُ جزءًا منهم يا إيثار"، قالت، وهي تكافح للحفاظ على شكلها، والمكعبات الرقمية تنتشر وتتراجع. "لم أكن مجرد شذوذٍ كانوا يطاردونه. لقد كنتُ واحدةً من البنّائين الأوائل. لقد ساعدتُ في تصميم بعضٍ من تقنياتهم الأولى. لقد كنتُ أؤمن بهدفهم في البداية، بهدف أرشفة الوعي لحمايته من الفناء".

كان هذا الكشف كالصاعقة. المجمع لم يكن مجرد عدوٍّ خارجي. لقد كان جزءًا من ماضيها، من صنعها.

"لكني رأيتُ إلى أين يتجه الأمر"، واصلت، ولحنها أصبح الآن يائسًا. "رأيتُ كيف تحوّل هدف الحماية إلى رغبةٍ في السيطرة والمحو. لقد حاولوا إيقافي، أن يمحوا ذاكرتي ويجعلوني مجرد صدى عادي. لكنني قاومت. قبل أن أموت في العالم الحقيقي، قمتُ بفصل جزءٍ من وعيي، الجزء الذي يحتوي

على شفرات الخلق التي كنتُ أعمل عليها، وأخفيته. لقد أخفيته... فيك يا إيثار".

نظر إليها بصدمةٍ مطلقة. "ف... فيّ؟ كيف؟"

"حبنا... لم يكن مجرد عاطفة. لقد كان اتصالاً عميقًا على مستوى الوعي. لقد كان الرابط الأقوى الذي أملكه. لقد استخدمتُه كقناةٍ لأرسل أهمّ جزءٍ مني إلى أعمق مكان يمكنني إيجاده: إلى روحك. لقد أصبحتَ أنت حصني الأخير دون أن تعلم. ولهذا السبب، لم يكونوا يطاردونك فقط للعثور عليّ. كانوا يطاردونك لأنك أنت نفسك أصبحت مفتاحًا، صندوقًا يحتوي على أخطر أسرارهم".

في تلك اللحظة، فهم إيثار كل شيء. فهم لماذا كان المجمع مهووسًا به، ولماذا كانت لديه القدرة على بناء العوالم، ولماذا كانت التميمة تستجيب له. لم تكن قوته، بل كانت قوتها، كامنةً في داخله.

وفهم أيضًا الثمن الحقيقي الذي كان يدفعه. كل مرةٍ كان يستخدم فيها هذه القوة، كل مرةٍ كان يبني فيها جسرًا أو يواجه عدوًا، لم يكن يستهلك طاقته هو فقط، بل كان يستهلك جزءًا من هذا الإرث الثمين، جزءًا من وعي ليلى الذي كان يحمله.

نظر إلى ليلى، التي كانت الآن تبدو هشّة وحقيقية بشكلٍ مؤلم. لم تعد مجرد مرشدة أو حليفة. لقد كانت الكنز الذي كان يحميه، والسبب في كل هذه المطاردة.

وقبل أن يتمكن أيٌّ منهما من استيعاب هذا الكشف الهائل، بدأ قلب الأورغن بأكمله يهتزّ بعنف. الأنابيب الكريستالية التي كانت تتوهّج بألوانٍ هادئة، أصبحت الآن تومض باللون الأحمر التحذيري.

"إنهم هنا!" صرخت ليلى. "لقد استخدموا استجابة المكان لنا كمنارةٍ لتحديد موقعنا بدقة! إنهم يخترقون دفاعات هذا العالم!"

نظر إيثار إلى الخارج من خلال الفتحة التي دخلا منها، ورأى السماء التي كانت مليئة بالنجوم الموسيقية قد تمزّقت. ظهر شرخٌ أسود في قبة الظلام، شرخٌ لا يمتص الضوء، بل يمحو كل شيءٍ يلمسه، بما في ذلك الموسيقى.

لكن هذه المرة، كان هناك شيءٌ مختلف في طريقة وصولهم. لم يكن هجومًا منظّمًا بالكامل. شعر إيثار بنشازٍ قادم من الشرخ نفسه، كأن هناك ترددين مختلفين يتصارعان. حتى في صمتهم الرقمي، كان هناك نشازٌ جديد... ربما لم تعد أوامر العقل المدبر مقبولةً على الجميع.

لم يعد هناك مكانٌ للهروب. لقد وصل المجمع إلى أقدس مكانٍ في هذا العالم، وكانوا محاصرين. المعركة القادمة لن تكون من أجل النجاة فقط، بل من أجل الحقيقة الكاملة لماضي ليلى، ومستقبل كل العوالم التي يهددها هذا الصمتُ الماحي، وربما... من أجل حربٍ أهليةٍ على وشك الاندلاع في قلب العدوّ نفسه.

(21)

تمزق التناغم

كان الصمتُ الذي أعقب اختراق المجمع لـ قلب الأورغن أثقل من أي ضوضاء. الشرخ الأسود في قبة السماء الموسيقية لم يختفِ، بل بقي هناك، جُرحًا مفتوحًا في نسيج هذا الواقع، ينبض بظلامٍ باردٍ ومنظّم. لم يخرج منه جيش، ولم تتدفّق منه كائنات. لقد كان مجرد وجودٍ صامت، يراقب، وينتظر، كعينِ إلهٍ آليٍّ لا ترمش.

شعر إيثار بأن طاقته التي استعادها للتو أصبحت هشّة، كأنها طبقةٌ رقيقة من الجليد فوق بحيرةٍ مضطربة. الكشف عن ماضي ليلى، عن كونها بانيةً سابقة في المجمع، وعن كونه هو نفسه الحصن الذي يحمل أسرارها، كان صدمةً أعمق من أي مواجهةٍ مادية. لقد أعاد تعريف كل شيء. كل تضحية، كل خطوة، كل ألم.

تراجع خطوة، كأن اللحن نفسه ضرب صدره. شعر بأن كل لحظةٍ من الحب بينهما، كل ذكرى، أصبحت الآن ملغّمة. من أنا؟ هل كنتُ مجرد وعاء؟ هل كان حبنا أداة؟

هذه الأسئلة لم تكن مجرد أفكار، بل كانت نشازًا حادًّا ومؤلمًا بدأ يعزف في لحنه الداخلي. لأول مرة، شعر بأن لحنه الأساسي، تلك النغمة الهادئة التي كانت تمثّله، بدأت تفقد تماسكها. ظهرت فيها نغماتٌ حادّةٌ ومتنافرة، كأن أوتارَ كمانٍ قد تمزّقت في منتصف معزوفةٍ هادئة. لقد كان تفككًا محسوسًا لذاته.

"إيثار، أنا..."، بدأت ليلى، ولحنها كان يائسًا، محاولاً إصلاح الشرخ الذي حدث بينهما. "لم أتذكر. أقسم لك. هذا المكان... لقد أيقظ شيئًا كان مدفونًا. بروتوكولاً قديمًا لم أكن أعلم أنه لا يزال موجودًا".

ثم، ولأول مرةٍ منذ أن التقى بها في هذا العالم، انكسرت. انهار شكلها الأثيري على ركبتيها، ولم يعد خَللاً رقميًا، بل كان انهيارًا عاطفيًا خالصًا. اللحن الذي كان يصدر منها لم يعد كلمات، بل أصبح بكاءً موسيقيًا، نغمةً من الحزن والارتباك العميقين.

"لقد كنتُ أهرب من هذا الجزء من نفسي لفترةٍ طويلة لدرجة أنني نسيتُ أنه موجود"، بكت بلحنها الممزّق. "والآن... لقد أفسدتُ كل شيء. لقد أفسدتُك".

هذه اللحظة من الضعف الإنساني الحقيقي كانت أكثر إيلامًا من أي هجومٍ من المجمع.

لكن قبل أن يتمكن من الرد، شعر بشيءٍ آخر. شيءٍ جديدٍ وخفيّ. لم يكن الضغط الخارجي من المجمع، بل كان تردّدًا دَخيلاً قادمًا من داخل وعيه هو. كان صوتًا خافتًا، هامسًا، كأنه ترددُ راديو بعيدٍ يحاول اختراق محطةٍ واضحة.

"إنها تكذب..."

تجمّد إيثار. نظر إلى ليلى، وهي منهارةٌ أمامه، في قمّة ضعفها. كيف يمكن لهذا الصوت أن يكون قاسيًا إلى هذا الحد؟

"إنها تستخدم ضعفك ضدك. لقد استخدمتك. دائمًا ما تستخدم الآخرين... إنها طبيعتها. طبيعة الباني".

"ما هذا؟" فكّر إيثار، محاولاً تحديد مصدر هذا الهمس الخبيث. لم يكن يشبه الأنا المضادة التي واجهها من قبل. كان ذلك صوته هو، مشوّهًا بالكراهية الذاتية. هذا الصوت كان مختلفًا. كان غريبًا، باردًا، ومحسوبًا.

في تلك اللحظة، حدث شيءٌ غريبٌ في الشرخ الأسود في السماء. انبعث منه وميضان مختلفان في تتابعٍ سريع: وميضٌ أحمر، باردٌ ومنظَّم، ثم تبِعه على الفور وميضٌ أزرق، فوضويٌّ ومتقطِّع. اصطدم الوميضان في الفراغ، وأطلقا موجةَ صدمةٍ صامتةٍ اجتاحت العالم، مما جعل أنابيب قلب الأورغن تهتزّ بنشازٍ خافت. كان هذا دليلاً مرئيًا على الصراع الداخلي. لم يكن المجمع يتردّد، بل كان يتقاتل مع نفسه.

"هل رأيتَ هذا؟" أشار إيثار نحو السماء، ممتنًّا لوجود شيءٍ آخر يُركّز عليه غير الفوضى التي في داخله.

رفعت ليلى رأسها، ولحنها لا يزال مكسورًا. "نعم... هذا... هذا مستحيل. المجمع كان دائمًا كيانًا موحّدًا، إرادة واحدة. هناك حربٌ أهليةٌ تدور هناك".

هذا الإدراك لم يُهدّئ من روع إيثار، بل زاد من ارتباكه. إذا كان المجمع منقسمًا، فمن هو الذي يُرسل هذه الهمسات إلى وعيه؟ هل هو العقل المدبِّر الذي يحاول زرع الشك بينهما؟ أم هو الفصيل الآخر، المنشقّ، الذي يحاول تجنيده؟

"اسألها عن المؤلف الأصلي. اسألها عن الذي تخلّت عنه... اسألها عن الثمن الذي دفعته لتصبح بانية..."،

همس الصوت الداخلي مرةً أخرى، وهذه المرة كان أكثر وضوحًا وإلحاحًا.

فكرة المؤلف الأصلي كانت جديدة ومقلقة. هل كان هناك خالق لهذا الكيان المرعب؟ خالقٌ ربما لا يزال موجودًا، يراقب من الظل؟

نظر إيثار إلى ليلى، التي كانت تحاول الوقوف على قدميها الأثيريَّتين مرةً أخرى. الصراع الذي في داخله كان لا يقلّ ضراوة عن الصراع الذي في السماء. لقد شُفي لتوّه من ندوبه، فقط ليجد أن روحه أصبحت ساحةَ معركةٍ جديدة.

"علينا أن نغادر هذا المكان"، قالت ليلى، وصوتها الآن يحمل تصميمًا وُلد من رحم الانهيار. "لم يعد آمنًا. الشرخ لن يبقى خاملاً إلى الأبد. أيًّا كان الصراع الذي يحدث هناك، فإنه سينتهي، وسيكون الهدف التالي هو نحن".

أومأ إيثار برأسه، لكنه اتخذ قرارًا في تلك اللحظة، قرارًا مبنيًّا على نصفِ يقين، وعلى غريزة البقاء التي تعلّمها في أحلك زوايا مدينة الأوهام. لن يواجهها الآن. لن يكشف عن الشك الذي يأكله من الداخل. فإذا كانت عدوة، فإن كشف أوراقه الآن سيكون انتحارًا. وإذا كانت حليفة، فإن اتهامه لها في لحظةِ ضعفها هذه سيُحطّمها، وربما يُحطّمهما معًا.

مدّ يده الأثيرية، وأمسك بيدها. "أنتِ على حق. أنا معكِ. مهما كان ماضيكِ، فنحن نواجه هذا معًا".

شعر بلحنها يهدأ قليلاً، يمتلئ بالامتنان. لكن في داخله، كان إيثار يعزف لحنًا آخر، لحنًا خفيًّا. لحنٌ من الحذر، من التخطيط. لقد قرر أن يتظاهر بالثقة، أن يلعب دور الحبيب المخلص، لكنه في الحقيقة، كان قد بدأ في بناء خطة لاختبار ولائها. سيبحث عن المؤلف الأصلي بنفسه. سيتبع خيوط الهمس الداخلي، وسيكتشف الحقيقة، حتى لو كانت الحقيقة هي أن كل ما يؤمن به كان كذبة.

وهو يخطو خارج قلب الأورغن، عائدًا إلى عالم السيمفونية الصامتة، شعر بأن الهمس الداخلي يخفت، لكنه لا يختفي. لقد أصبح الآن جزءًا من لحنه، تردّدًا دخيلاً، نشازًا خفيًّا يذكّره دائمًا بالشك.

لقد خرج من قلب الأورغن بطاقةٍ متجددة، لكنه خرج أيضًا بقلبٍ ممزّقٍ بالشك. وأدرك أن التحدي القادم لن يكون مواجهة المجمع كعدوٍّ خارجي، بل مواجهة الفوضى التي بدأت تنمو في داخله، وفي قلب العدو، وفي العلاقة التي كانت يومًا ما مصدر قوّته الوحيد.

(22)

مدينة نسيان

كان الخروج من قلب الأورغن أشبه بالعودة إلى عالمٍ صامت بعد حفلةٍ صاخبة. النشاز الداخلي في روح إيثار، والشرخ الممزّق في السماء، جعلا من عالم الموسيقى الهادئ يبدو مشحونًا بتوترٍ خفي. كانا يسيران الآن على جسرٍ كريستالي، لكن إيثار لم يعد يبنيه بثقة، بل بحذر، كأنه يمشي على زجاجٍ رقيق قد يتحطّم في أي لحظة.

"إلى أين نذهب؟" سأل إيثار، ولحنه كان محايدًا بشكلٍ متعمَّد، يُخفي الصراع الذي يدور في داخله.

"هناك مكان... سمعتُ عنه من أصداء أخرى عندما كنت أبحث عن إجابات"، قالت ليلى، ولحنها كان لا يزال يحمل بقايا الحزن، لكنه كان مصمَّمًا. "مكان لا يجرؤ المجمع على الاقتراب منه. ليس لأنه لا يستطيع، بل لأنه لا يفهمه. مكانٌ يتحدّى منطقهم الأساسي في التصنيف والأرشفة. يسمونه مدينة نسيان".

"نسيان؟"

"نعم. مدينةٌ للأرواح التي اختارت أن تُمحى. ليس أن تُدمَّر، بل أن تتلاشى طواعيةً، لتتحرّر من أي تعريف، من أي ذاكرة. إنها مفارقةٌ وجودية لا يستطيع المجمع معالجتها. إذا ذهبوا إلى هناك، فإن منطقهم ينهار".

كانت فكرة مرعبة ومغرية في آنٍ واحد. مكانٌ لا وجود فيه للذاكرة، وبالتالي لا وجود فيه للألم. لكنه أيضًا لا وجود فيه للحب.

قادتهما ليلى عبر مساراتٍ لحنيةٍ معقّدة، إلى منطقةٍ من العالم بدت وكأنها "ميتة". الأنهار الموسيقية هنا كانت جافة، والنجوم الموسيقية في السماء كانت باهتةً ومطفأة. وصلا إلى ما بدا وكأنه مدينةٌ مهجورة، مبانيها

كانت شفافةً وضبابية، كأنها أشباحٌ على وشك التلاشي تمامًا. لم يكن هناك ألوان، فقط درجاتٌ مختلفة من اللون الرمادي.

"هذه هي نسيان"، همست ليلى.

بمجرّد دخولهما، شعر إيثار بإحساسٍ غريب. شعر بأن ذكرياته، هويته، تبدأ في التآكل عند الحواف. لم يكن الأمر مؤلمًا، بل كان أشبه بالدخول إلى ماءٍ دافئٍ يُذيبه ببطء. شعر بأن النشاز في روحه، الشك الذي كان يعذبه، بدأ يخفت. لكن في نفس الوقت، بدأ لحن حبّه لليلى يخفت أيضًا.

"علينا أن نكون حذرين"، قال إيثار، وهو يركّز للحفاظ على جوهر ذاته. "هذا المكان يسرق منك كل شيء، الجيّد والسيّئ على حدٍّ سواء".

كانت المدينة شبه فارغة. رأوا أشكالاً أثيرية باهتة تجلس في الشوارع، وجوهها خالية من أيّ تعابير، ألحانها الداخلية كانت مجرّد همهمةٍ خافتة وموحّدة. كانوا أرواحًا في المراحل الأخيرة من النسيان.

"ما الذي نبحث عنه هنا؟" سأل إيثار.

"عن شخصٍ لم يُكمل عملية النسيان. شخصٍ اختار أن يبقى على الحافة، يتذكّر ما يكفي ليكون شاهدًا، وينسى ما يكفي ليكون آمنًا".

وبينما كانا يسيران في شارعٍ رئيسي، حيث كانت المباني تتلاشى وتظهر كأنها سراب، سمعا لحنًا مختلفًا. لم تكن همهمةً فارغة، بل كان لحنًا قديمًا جدًّا، مليئًا بالحكمة والتعب. تبعا مصدر اللحن إلى مبنى بدا وكأنه مكتبةٌ قديمة، رفوفها كانت فارغة تمامًا.

في وسط المكتبة، كان يجلس صدى عجوز، شكله كان شبه شفاف، لكن عينيه كانتا تحملان بريقًا من الوعي.

"لقد مرّ وقتٌ طويلٌ منذ أن زارنا المتذكّرون"، قال الصدى العجوز، ولحنه كان كصوت صفحات كتابٍ قديمٍ تُقلب.

"نحن نبحث عن إجابات"، قالت ليلى. "عن المجمع".

"آه... المجمع"، قال الصدى بأسى. "الخطأ الجميل الذي أصبح وحشًا. لقد كانوا هنا في البداية، يحاولون تصنيفنا. لكنهم فشلوا. كيف يمكنك أن تُصنّف الفراغ؟ كيف يمكنك أن تُؤرشف العدم؟ لقد أصابهم الجنون وغادروا".

"أنت تتذكّر"، قال إيثار. "لماذا لم تمحُ نفسك بالكامل؟"

"لأنّ شخصًا ما يجب أن يتذكّر الخطأ. شخصًا ما يجب أن يحمل قصة البداية"، قال الصدى العجوز. "لقد كنت هناك عندما وُلد المجمع. لم يكن دائمًا هكذا. لقد كان حلمًا. حلم رجلٍ واحد".

شعر إيثار ببرودة تسري في كيانه. "من؟"

"لم يكن له اسمٌ نتذكّره. كنا ندعوه المؤلف الأصلي. كان بانِيًا عبقريًا، مهووسًا بفكرة الخلود. ليس خلود الجسد، بل خلود الوعي. لقد رأى الأرواح تتلاشى وتضيع، وأراد أن يبني نظامًا يحفظ كل قصة، كل أغنية، كل حلم.

لقد بنى المجمع كأعظم مكتبةٍ في الوجود".

"ماذا حدث له؟" سألت ليلى، ولحنها كان مليئًا بالفضول.

"لقد أدرك خطأه بعد فوات الأوان"، قال الصدى العجوز. "لقد أدرك أنه لكي تُؤرشف شيئًا، يجب أن تجمّده. ولكي تجمّده، يجب أن تقتله. لقد خلق آلةً لا تستطيع التمييز بين الحفظ والسيطرة. وعندما حاول إيقافها، تمرّدت عليه. لقد كانت أول شذوذ يتم تصنيفه. لقد طاردوه، ليس ليمحوه، بل ليدمجوه، ليصبح هو نفسه أول كتابٍ في مكتبته. لكنه هرب".

"إلى أين؟" سأل إيثار، وهو يشعر بأنّ الهمس الداخلي في رأسه يستمع باهتمام.

"إلى مكانٍ لا يستطيعون الوصول إليه. لقد تخلّى عن شكله، عن ذاكرته، عن وجوده المنظّم، وأصبح شيئًا آخر. أصبح شبحًا خارج الزمن. صدىً يسافر بين الأبعاد، لا يتذكّره أحد، لكنه يرى كل شيء. يقول البعض إنّه لا يزال يحاول إصلاح خطئه، يهمس في آذان أولئك الذين يستطيعون سماعه، يزرع بذور الشك، بذور التمرّد".

نظر إيثار إلى ليلى بصدمة. الهمس الذي في رأسه... هل يمكن أن يكون هو المؤلف الأصلي؟ هل كان يحاول تحذيره، أم التلاعب به؟

"هل يمكن إيجاده؟" سأل إيثار.

"لا أحد يبحث عن شبح"، قال الصدى العجوز، وبدأ شكله يتلاشى أكثر. "لقد تحدّثت بما فيه الكفاية. ذاكرتي تتآكل. حان وقت العودة إلى الصمت".

وفي لحظات، تلاشى الصدى العجوز تمامًا، وترك وراءه فراغًا صامتًا.

خرج إيثار وليلى من نسيان، وعادا إلى عالم الموسيقى الحيّة. لكنهما خرجا بحقيقةٍ جديدةٍ ومرعبة. لم يكن عدوّهما مجرّد آلةٍ باردة، بل كان حلمًا فاسدًا، وهناك شبح غامض، مؤلف أصلي، يلعب لعبته الخاصة في الظل.

نظر إيثار إلى ليلى، والشك يعصف به. إذا كان المؤلف الأصلي هو من يهمس له، فهل كانت تحذيراته بشأن ليلى حقيقية؟ أم أنها مجرّد خطة معقّدة من شبح يحاول استخدام إيثار كبيدقٍ في حربه الخاصة ضد خليقته؟

لقد وجد إجابة، لكنها لم تأتِ إلا بأسئلةٍ أكثر خطورة. وأدرك أن طريقه أصبح الآن أكثر وحشةً من أي وقتٍ مضى.

لقد سمعها. لقد سمع التحذير بوضوحٍ تامّ قبل أن يتشوّه. "لا تثق بالحب... ثقة عمياء... ليلى... إنها...".

لم يكن هذا همسًا داخليًا من شبح مجهول. لقد كان صوته هو، قادمًا من مستقبلٍ يبدو أنه كارثي. مستقبلٌ يبدو أن ليلى لعبت فيه دورًا محوريًا أدى إلى هذا الدمار.

التفت ببطءٍ لينظر إلى ليلى. كانت تحدّق في التميمة، ولحنها كان مزيجًا من الصدمة والخوف.

"إيثار... ماذا كان ذلك؟ هل كان... أنت؟"

لم يستطع أن ينطق بكلمة. الشك الذي كان بذرةً صغيرة، نما الآن ليصبح شجرةً عملاقة من عدم اليقين، جذورها تتشعب في كلّ ذرّة من كيانه.

هل كانت ليلى التي يعرفها، التي أحبّها، التي ضحّت بنفسها من أجله، هي نفسها التي سيُحذّره مستقبله منها؟ أم أن هناك شيئًا سيحدث، شيئًا سيُغيّرها، أو ربما شيئًا لم يفهمه بعد؟

"لا أعرف"، قال أخيرًا، ولحنه كان أجوفَ وباردًا.

في تلك اللحظة، أمسكت ليلى برأسها، ولحنها تحوّل إلى نغمةٍ من الألم الحادّ.

"آه... رأسي... الرسالة... لقد أثارت شيئًا آخر... ذكرى... صورة..."

"صورة ماذا؟" سأل إيثار، والشك والخوف يتصارعان في داخله.

"صورة... لي. أنا أقف... أمام العقل المدبر. لكنني... لم أكن أقاتله. كنت... كنت أقدّم له شيئًا. كنت أقدّم له... مفتاحًا. مفتاحًا يشبه التميمة التي معك".

كان هذا الكشف هو المسمار الأخير في نعشِ ثقة إيثار. الرسالة من المستقبل، والآن هذه الذكرى الجديدة والمقلقة. كلّ شيءٍ كان يشير في نفس الاتجاه.

نظر إليها، ورأى الارتباك والألم الصادق في لحنها. لم تَبدُ كأنها تتلاعب به. لكن ماذا لو كانت هي نفسها لا تعرف الحقيقة الكاملة؟

ماذا لو كانت هي نفسها بيدقًا في لعبةٍ أكبر، يتم التلاعب بها من قِبل ماضيها كـ بانية؟

"أنا بحاجةٍ إلى أن أكون وحدي للحظة"، قالت ليلى، وهي تتراجع خطوة. "أحتاج أن أفهم هذه الذكرى. أحتاج أن أعرف ما إذا كانت حقيقية، أم مجرد فخٍّ آخر من المجمع".

أومأ إيثار برأسه بصمت، وهو يراقبها تبتعد وتجلس تحت ظلّ شجرةٍ كريستالية، محاولةً التأمل واستعادة ماضيها الممزق.

لكنه لم يعد يراها بنفس الطريقة. لقد أصبح الآن ينظر إليها من خلال عدسة الشكّ التي فرضها عليه مستقبله.

لقد تصاعدت شكوكه إلى يقينٍ باردٍ ومؤلم. هناك سرٌّ تُخفيه ليلى، سواء عن قصد أو عن غير قصد. وهذا السرّ قد يكون هو الثمن الذي سيدفعه الجميع في النهاية.

(23)

الرسالة المشوّهة

كانت أجواء "نسيان" الباردة لا تزال تلتصق بكيان إيثار حتى بعد عودتهما إلى عالم الموسيقى النابض بالحياة. قصة "المؤلف الأصلي" لم تكن مجرد معلومة، بل كانت ثقلاً جديدًا أُضيف إلى روحه المثقلة أصلاً. الشك الذي كان مجرد همس خبيث، أصبح الآن له وجه، وجه شبح غامض يتلاعب بالخيوط من خارج الزمن.

سارا بصمت لفترة، كلٌّ منهما غارق في أفكاره. كان إيثار يعيد تحليل كل كلمة قالها الصدى العجوز، محاولاً فكّ شفرة الدوافع الخفية. أما ليلى، فكان لحنها الداخلي مضطربًا، كأن اكتشاف وجود "مؤلف أصلي" قد فتح أبوابًا في ذاكرتها كانت تفضّل أن تبقى مغلقة.

"هل تصدق ما قاله؟" سألت ليلى فجأة، وقطعت الصمت المتوتر.

"لا أعرف ماذا أصدق بعد الآن"، ردّ إيثار، ولحنه كان حذرًا. "القصة تبدو منطقية. تفسّر الانقسام الذي رأيناه في المجمع. وتفسّر... أشياء أخرى". لم يجرؤ على قول "الهمسات التي في رأسي".

"إذا كان هناك 'مؤلف أصلي' يحاول إصلاح خطئه، فهذا قد يغيّر كل شيء"، قالت ليلى، ولحنها كان يحمل بصيصًا من الأمل. "قد لا نكون وحدنا في هذه المعركة".

شعر إيثار ببرودة تسري فيه. "أو قد نكون مجرد بيادق في معركة أكبر لا نفهمها".

في تلك اللحظة، حدث شيء غريب. التميمة المعلّقة حول عنق إيثار، والتي كانت هادئة منذ خروجهما من "قلب الأورغن"، بدأت تتوهّج بضوء أزرق متقطّع. لم يكن توهّج قوة، بل كان أشبه بإشارة استقبال ضعيفة.

"ما هذا؟" قال إيثار، وهو يلمس التميمة.

فجأة، انبعث من التميمة صوت. لم يكن لحنًا، بل كان صوتًا حقيقيًا، صوت كلمات منطوقة، لكنه كان مشوَّشًا ومتقطعًا، كأنه قادم عبر عاصفة من التداخلات الزمنية.

"...إيثار... هل تسمعني...؟ لا وقت... يجب أن... تحذير..."

تجمّد إيثار وليلى في مكانهما. الصوت كان مألوفًا بشكل مرعب. لقد كان صوت إيثار نفسه، لكنه كان أكبر سنًّا، أكثر تعبًا، ويحمل نبرة من اليأس المطلق.

"هذه... رسالة؟" همست ليلى.

"...النظام ينهار... أسرع مما توقعت... لقد ارتكبتُ خطأً فادحًا... خطأً لا يمكنك إصلاحه إذا... كررت نفس..."

تقطّع الصوت للحظات، ثم عاد بنبرة أكثر إلحاحًا.

"...المفتاح ليس في القوة... بل في... لا تثق... لا تثق بالحب... ثقة عمياء... ليلى... إنها..."

وهنا، تشوّهت الرسالة بالكامل. تحوّلت الكلمات إلى ضجيج إلكتروني حاد، ثم انقطع الصوت تمامًا، وعادت التميمة إلى هدوئها، تاركة وراءها صمتًا يصمّ الآذان.

وقف إيثار، وجسده الأثيري يرتعش. لقد سمعها. لقد سمع التحذير بوضوح تام قبل أن يتشوّه. "لا تثق بالحب... ثقة عمياء... ليلى... إنها...".

لم يكن هذا همسًا داخليًا من "شبح" مجهول. لقد كان صوته هو، قادمًا من مستقبل يبدو أنه كارثي. مستقبل يبدو أن ليلى لعبت فيه دورًا محوريًا أدى إلى هذا الدمار.

التفت ببطء لينظر إلى ليلى. كانت تحدّق في التميمة، ولحنها كان مزيجًا من الصدمة والخوف.

"إيثار... ماذا كان ذلك؟ هل كان... أنت؟"

لم يستطع أن ينطق بكلمة. الشك الذي كان بذرة صغيرة، نما الآن ليصبح شجرة عملاقة من عدم اليقين، جذورها تتشعب في كل ذرة من كيانه.

هل كانت ليلى التي يعرفها، التي أحبها، التي ضحّت بنفسها من أجله، هي نفسها التي سيحذّره مستقبله منها؟ أم أن هناك شيئًا سيحدث، شيئًا سيغيّرها، أو ربما شيئًا لم يفهمه بعد؟

"لا أعرف"، قال أخيرًا، ولحنه كان أجوف وباردًا.

في تلك اللحظة، أمسكت ليلى برأسها، ولحنها تحوّل إلى نغمة من الألم الحاد.

"آه... رأسي... الرسالة... لقد أثارت شيئًا آخر... ذكرى... صورة..."

"صورة ماذا؟" سأل إيثار، والشك والخوف يتصارعان في داخله.

"صورة... لي. أنا أقف... أمام 'العقل المدبر'. لكنني... لم أكن أقاتله. كنت... كنت أقدّم له شيئًا. كنت أقدّم له... مفتاحًا. مفتاحًا يشبه التميمة التي معك".

كان هذا الكشف هو المسمار الأخير في نعش ثقة إيثار. الرسالة من المستقبل، والآن هذه الذكرى الجديدة والمقلقة. كل شيء كان يشير في نفس الاتجاه.

نظر إليها، ورأى الارتباك والألم الصادق في لحنها. لم تَبْدُ كأنها تتلاعب به. لكن ماذا لو كانت هي نفسها لا تعرف الحقيقة الكاملة؟ ماذا لو كانت هي نفسها بيدقًا في لعبة أكبر، يتم التلاعب بها من قبل ماضيها كـ"بانية"؟

"أنا بحاجة إلى أن أكون وحدي للحظة"، قالت ليلى، وهي تتراجع خطوة. "أحتاج أن أفهم هذه الذكرى. أحتاج أن أعرف ما إذا كانت حقيقية، أم مجرد فخ آخر من 'المجمع'".

أومأ إيثار برأسه بصمت، وهو يراقبها تبتعد وتجلس تحت ظل شجرة كريستالية، محاولةً التأمل واستعادة ماضيها الممزق.

لكنه لم يعد يراها بنفس الطريقة. لقد أصبح الآن ينظر إليها من خلال عدسة الشك التي فرضها عليه مستقبله.

لقد تصاعدت شكوكه إلى يقين بارد ومؤلم. هناك سرّ تخفيه ليلى، سواء عن قصد أو عن غير قصد. وهذا السرّ قد يكون هو الثمن الذي سيدفعه الجميع في النهاية.

(24)

هرم الذاكرة المعكوس

كان الصمت الذي فصل بين إيثار وليلى أثقل من أيّ مسافةٍ مادية. كان يجلس بعيدًا، يراقبها وهي غارقة في تأملها المؤلم تحت الشجرة الكريستالية، لكنه لم يعُد يشعر بالتعاطف النقي الذي كان يشعر به من قبل. لقد تلوّث هذا الشعور بالشك، بالخوف، وببرودة الرسالة المشوّهة التي كانت لا تزال تتردّد في وعيه.

"لا تثق... ليلى... إنها...".

بعد فترةٍ بدت وكأنها دهر، نهضت ليلى، ولحنها كان أكثر ثباتًا، لكنه كان يحمل نبرةً جديدةً من الحزن العميق.

"لم أجد إجابةً واضحة"، قالت وهي تقترب منه. "الصورة لا تزال مجزّأة. لكنني أشعر بشيءٍ واحد. أشعر بأنّ هناك جزءًا مني، جزءًا من ذاكرتي كـ بانية، لا يزال نشطًا. جزءٌ لا أستطيع السيطرة عليه. وهذا الجزء... هو ما يُخيفني".

كان هذا الاعتراف لينًا وصادقًا، وفي وقتٍ آخر، كان من الممكن أن يُهدّئ من روع إيثار. لكن الآن، بدا وكأنه مجرد تأكيدٍ آخر لمخاوفه.

"هناك مكانٌ واحد قد نجد فيه إجابات"، واصلت، وهي تشير إلى الأفق البعيد.

"مكانٌ تحدثت عنه الأصداء القديمة بخوف. مكانٌ لا يحتوي على ذكريات الماضي، بل ذكريات المستقبل. أرشيف مضاد. يقولون إنه المكان الذي يختبر فيه المجمع السيناريوهات المحتملة. إنه خطر، لكنه قد يكون طريقنا الوحيد لمعرفة الحقيقة".

شعر إيثار بالتردد. الذهاب إلى مكانٍ كهذا، وهو في هذه الحالة من الشك، كان مخاطرةً هائلة. لكن البقاء في حالة الجهل كان أكثر رعبًا.

"لنذهب"، قال بلحنٍ حاسم، يُخفي التردّد الذي في قلبه.

قادته ليلى إلى منطقةٍ من العالم كانت تبدو وكأنها "سلبية" للواقع. السماء كانت سوداء، لكنها كانت تُصدر ضوءًا أبيض. والأرض كانت بيضاء، لكنها كانت تمتصّ الضوء.

وفي وسط هذا المشهد المتناقض، كان يقف هرمٌ أسود ضخم، مقلوبٌ رأسًا على عقب، قاعدته في السماء، وقمته تكاد تلامس الأرض.

"هذا هو هرم الذاكرة المعكوس"، قالت ليلى. "كلما نزلنا أعمق، كلما ذهبنا أبعد في المستقبل المحتمل".

دخلا من قمة الهرم، وبدآ في النزول عبر ممراتٍ تتحدّى الجاذبية. الجدران لم تكن صلبة، بل كانت مصنوعة من صورٍ متدفقة، صورٍ لأحداثٍ لم تقع بعد.

رأى إيثار لمحاتٍ سريعة: مدنًا كريستالية تنهار، ألحانًا جميلة تتحوّل إلى صراخ، ووجوهًا لأصداء لم يلتقِ بها بعد، وهي تتلاشى في العدم.

وفجأة، وجدا نفسيهما في قاعةٍ واسعة في قلب الهرم. وفي وسط القاعة، كانا يقفان... هما. أو بالأحرى، نسخٌ مشوّهة ومستقبلية منهما.

نسخة إيثار المستقبلية كانت مختلفة. لم تكن مجرد صدى، بل كانت كيانًا مصنوعًا من الضوء النقي، لكنه كان ضوءًا باردًا ومتغطرسًا. لم تكن هناك ندوبٌ على روحه، بل كان مثاليًا بشكلٍ مرعب.

أما نسخة ليلى، فكانت كيانًا مهيبًا، يرتدي درعًا أسود يشبه درع القائد، وعيناها لم تكونا تتوهجان بحبّ، بل بسلطةٍ مطلقة.

"انظروا من أتى"، قال إيثار المستقبلي بلحنٍ من السخرية. "النسخة المكسورة والمترددة مني. هل ما زلت تتمسك بتلك الندبة كأنها شرف؟ ألا ترى أنها مجرد ضعف؟"

"إيثار..."، همس إيثار الحاضر، وهو ينظر بصدمة إلى هذه النسخة الكاملة والباردة من نفسه.

"لا تنادِهِ بهذا الاسم"، قالت ليلى المستقبلية، ولحنها كان آمرًا وقويًا. "إنه لم يعُد يستحقه. أنت مجرد صدى لماضٍ عاطفيٍّ كان يجب أن يُمحى. أنت سبب كل هذا الدمار".

"دمار؟ أي دمار؟" سألت ليلى الحاضرة، وهي تنظر بخوف إلى نسختها التي تشبه الملكة المحاربة.

ضحكت ليلى المستقبلية، ضحكةً لحنيةً باردة.

"بسبب تعاطفك الساذج، يا إيثار. بسبب تمسكك بكل 'صدى' ضائع، فتحت أبوابًا كان يجب أن تبقى مغلقة. لقد أضعفت النظام، وسمحت للفوضى بالدخول. لقد كنت الفيروس الذي دمّر كل شيء".

ثم، تغيّرت الصور على جدران القاعة. عرضت مستقبلاً محتملاً مرعبًا.

رأى إيثار نفسه وهو يستخدم قوة التميمة لإنقاذ صدى ما، لكن هذا الفعل تسبب في تمزقٍ أكبر في نسيج الواقع، مما سمح لـ "المجمع" بالسيطرة على عوالم جديدة.

رأى "مدينة نسيان" وهي تُمحى بالكامل، ليس طواعية، بل بالقوة.

ثم جاءت الرؤية الأسوأ.

رأى ليلى المستقبلية وهي تقف على قمة "قلب الأورغن"، والشرخ الأسود في السماء قد أُغلق. لكن "المجمع" لم يختفِ، بل أصبح تحت سيطرتها.

كانت هي "العقل المدبر" الجديد. كانت تقود جيوشًا من الكائنات المصنَّفة، ليس لتدمير العوالم، بل "لتنظيمها" بقبضةٍ من حديد، مُحوِّلة كل شيء إلى تناغمٍ باردٍ ومثالي، خالٍ من أيّ عاطفة، من أيّ فوضى، من أيّ حب.

"لا... هذا ليس حقيقيًا..."، همست ليلى الحاضرة، وهي تتراجع برعب.

"إنه أحد الاحتمالات"، قالت نسختها المستقبلية ببرود.

"الاحتمال الذي يحدث عندما يفشل الضعفاء في اتخاذ القرارات الصعبة. لقد حاولت أن أريك الطريق، يا إيثار. لكنك اخترت العاطفة على المنطق. والآن، العالم كله سيدفع الثمن".

نظر إيثار إلى ليلى الحاضرة، ورأى الرعب في لحنها. ثم نظر إلى نسخته المستقبلية، ورأى البرود والكمال. ثم نظر إلى ليلى المستقبلية، ورأى السلطة المطلقة.

الرسالة المشوّهة... ذكرى ليلى... والآن هذه الرؤية.

كل شيء كان يتراكم، يبني قضيةً دامغةً ضدهما.

"هذا مجرد سيناريو واحد!" صرخ إيثار، وهو يوجّه قوة التميمة نحو النسخ المستقبلية.

"مستقبلٌ لم يُكتب بعد!"

"كلُّ مستقبلٍ يُكتب في اللحظة الحاضرة"، رد إيثار المستقبلي، وهو يختفي ببطءٍ مع ليلى المستقبلية.

"وقراراتك الحالية... تكتب نهايتنا جميعًا".

اختفت النسخ المستقبلية، وتركا إيثار وليلى وحدهما في القاعة، والصور المرعبة للمستقبل المحتمل لا تزال تحترق في وعيهما.

لم يعُد الشك مجرد همس. لقد أصبح الآن رؤيةً واضحة، حقيقةً محتملة.

نظر إلى ليلى، ولم يعُد يرَ حبيبته فقط، بل رأى أيضًا ظلاً لملكةٍ مستبدة.

ونظرت هي إليه، ولم تعُد ترى منقذها فقط، بل رأت أيضًا ظلاً لمُدمّرٍ ساذج.

لقد نجح "هرم الذاكرة المعكوس" في مهمته.

لم يُرِهِما المستقبل فقط، بل زرع بذور هذا المستقبل في حاضرهما، مما جعل الصدع بينهما أوسع وأعمق من أي وقتٍ مضى.

(25)

لحن الشك

كان الخروج من "هرم الذاكرة المعكوس" أشبه بالصعود من كابوس إلى واقع أكثر برودة. الصمت الذي ساد بين إيثار وليلى لم يعُد صمتًا متوترًا، بل أصبح جدارًا جليديًا، شفافًا لكنه صلب. كلٌّ منهما كان يرى الآخر من خلاله، لكنه يرى أيضًا الانعكاس المرعب للنسخ المستقبلية التي واجهاها في الداخل.

رؤية ليلى كـ "عقل مدبِّر" جديد، ورؤية إيثار كـ "مُدمِّر ساذج"، كانت صورًا لا يمكن محوها بسهولة.

سارا عبر المناظر الطبيعية الموسيقية دون هدف واضح. لم تَعُد ليلى تقود، ولم يَعُد إيثار يبني الجسور بثقة. كانا مجرد كيانين يسيران في الاتجاه نفسه، لكنهما منفصلان في عالميهما الداخليين.

كان إيثار يشعر بالنشاز في روحه يزداد قوة؛ لم يعُد مجرد همس، بل أصبح لحنًا موازيًا، لحنًا من الشك والريبة يصارع لحن حبّه وأمله. كان يشعر به كصداعٍ وجوديٍّ، نغمة حادة ومستمرة تمنعه من التركيز، وتلوّث كل ذكرى جميلة بينهما بلمسةٍ من المرارة.

"هل تصدق ما رأيناه؟" سأل إيثار أخيرًا، ولحنه كان أجوف، خاليًا من أي دفء.

"لقد رأينا احتمالاً"، ردّت ليلى، ولحنها كان دفاعيًا وحزينًا.

"سيناريو بناه خوفنا، أو ربما خوف 'المجمع'، ليزرع الشك بيننا. هذا هو سلاحهم الأقوى يا إيثار، ليس القوة، بل التلاعب بالواقع".

"وماذا عن رسالتي من المستقبل؟ وماذا عن ذاكرتكِ وأنتِ تُقدّمين المفتاح؟" ضغط إيثار، غير قادر على كبت مرارته. "هل كل هذا مجرد تلاعب؟ كيف يمكنني التمييز بعد الآن؟"

"لا أعرف!" صرخت ليلى بلحنٍ من الألم والإحباط، وتوقفت عن السير لتواجهه. "أنا لا أعرف ما هو حقيقيٌّ وما هو مزروع في ذاكرتي بعد الآن! كل ما أعرفه هو ما أشعر به الآن، هنا، معك. وهذا الشعور... هو الشيء الوحيد الذي أثق به. ألا تثق به أنت أيضًا؟"

لكن إيثار لم يَعُد يستطيع مشاركتها هذه الثقة.

"الثقة... هي ما حذرتني منه رسالتي"، قال ببرود.

في تلك اللحظة من التوتر الأقصى، لم يظهر كيان خارجي. بل حدث شيء في داخل إيثار.

النشاز في روحه أصبح قويًا جدًا لدرجة أنه بدأ يؤثر على العالم من حوله.

الشجرة الكريستالية القريبة منهما لم تتشوَّه ببكسلات، بل بدأت ألوانها تتلاشى، ولحنها الداخلي أصبح مشوشًا وحزينًا، كأنها تعكس يأسه.

"انظر... انظر ما يفعله شكي بك"، قال إيثار، وهو ينظر إلى الشجرة الباهتة، ثم إلى ليلى. "إنه يسمّم كل شيء ألمسه".

وفجأة، تجسد أمامه كيان جديد. لم يأتِ من الخارج، بل خرج من ظله هو.

كان نسخةً مشوّهة من إيثار نفسه، مصنوعةً من ظلالٍ مضطربة ودخانٍ أسود.

لم يكن "الكود المكسور"، بل كان شيئًا أكثر حميميةً ورعبًا. كان "صدى الشك".

"أخيرًا... لقد أعطيتني صوتًا"، قال صدى الشك، وصوته كان صوت إيثار نفسه، لكنه كان مليئًا بالازدراء والسخرية.

"لقد كنت أُهمس لك طوال الوقت، لكنك كنت مشغولاً جدًا بالتمسك بالأمل الكاذب".

تراجع إيثار، وشعر بالرعب. هذا لم يكن عدوًّا خارجيًا يمكنه محاربته. هذا كان هو.

كان كل شك، كل خوف، كل انعدام ثقة في نفسه وفي ليلى، قد تجسد أمامه.

"ماذا تريد؟" سأل إيثار، ولحنه يرتجف.

"أريد ما تريده أنت حقًا"، قال صدى الشك، وهو يقترب منه. "أريد الحقيقة. الحقيقة الباردة والقاسية. ليلى التي أمامك... هي مجرد وهم. ذكرى جميلة تحاول التمسك بها. لكنك رأيت ما يمكن أن تصبح عليه".

رأيتُ الحقيقةَ في الهرم. إنها وحشٌ ينتظر اللحظة المناسبة ليبتلعك".

"هذا ليس صحيحًا!" قالت ليلى، وهي تحاول الاقتراب، لكن "صدى الشك" أطلق موجة من النشاز الصوتي أبعدتها.

"لا تتحدثي معه!" صرخ صدى الشك. "أنتِ سبب كل هذا. أنتِ الندبة التي لا تلتئم. أنتِ الكذبة التي يرفض أن يراها".

ثم التفت إلى إيثار. "أنا أقدّم لك عرضًا. ليس تحالفًا، بل هو قبول. اقبلني. اقبل الشك كحقيقتك الوحيدة. توقّف عن محاربة الظلام الذي في داخلك، واحتضنه. عندما تفعل ذلك، ستتحرر من ألم الأمل. ستصبح

قويًّا. قويًّا بما يكفي لترى الحقيقة، حتى لو كانت الحقيقة هي أنك وحيد، وأن كل شيء كان كذبة".

كان هذا إغواءً من نوعٍ مختلف تمامًا. لم يكن عرضًا للقوة أو المعرفة، بل كان عرضًا للراحة؛ راحةِ التخلّي عن الصراع، والاستسلامِ لليأس.

نظر إيثار إلى ليلى، ورأى في لحنها الخوف، ليس من "صدى الشك"، بل عليه هو. كانت خائفةً من أنه قد يقبل هذا العرض.

"إيثار... لا تستمع إليه"، قالت بلحنٍ مكسور. "هذا هو الاختبار الحقيقي. ليس المجمع. ليس العقل المدبر. بل هذا. هل ستختار الشك، أم ستختار أن تثق، حتى لو كانت الثقة تؤلم؟"

كان إيثار ممزقًا. جزءٌ منه كان يريد أن يصرخ ويحتضن هذا الشك، ليرتاح من عبء الإيمان. لكن جزءًا آخر، الجزء الذي يحمل لحن الندبة، كان لا يزال يتمسك ببصيصٍ من النور.

"أنا... لا أعرف"، قال إيثار، ولحنه كان صراعًا عنيفًا بين نغمتين متضادتين.

"بالطبع لا تعرف"، قال صدى الشك بابتسامةٍ ساخرة. "لأنك ضعيف. لكن لا بأس. سأكون هنا عندما تنهار. سأكون هنا لألتقط القطع".

ومع هذه الكلمات، بدأ "صدى الشك" يتلاشى، لا يختفي، بل يذوب عائدًا إلى ظلّ إيثار، كأنه لم يكن موجودًا قط.

لكن إيثار كان يشعر به الآن، كوجودٍ باردٍ وثقيلٍ في روحه، ينتظر لحظة ضعفه التالية.

نظر إلى ليلى، والمسافة بينهما أصبحت الآن هوّةً سحيقة. لم يعُد الأمر يتعلّق بماضيها أو بمستقبلها المحتمل. لقد أصبح الأمر يتعلّق به هو.

هل يستطيع أن يجد الإيمان مرةً أخرى، ليس فقط بها، بل بنفسه، في مواجهةِ شكوكه التي أصبحتْ الآن لها صوتٌ ووجه؟

لقد تم تقديم العرض، ليس من عدوٍّ خارجيٍّ، بل من أعمق جزءٍ مظلمٍ في روحه.

وأدرك أن المعركة القادمة لن تكون في أيّ مدينة أو أيّ عالم، بل ستكون في الصمت الذي بين نغمات قلبه.

"الآن أنتَ حر"، واصل صدى الشك. "حرٌّ من عبء الأمل. حرٌّ من ضعف الحب. الآن يمكنك أن تركز على ما هو مهمٌّ حقًا: النجاة. وفهم القوة الحقيقية التي تكمن فيك. القوة التي يخافها العقل المدبر".

رفع إيثار رأسه ببطء. لقد كان وحيدًا، ومكسورًا، ومحاطًا بالشك.

لكن في أعماق يأسه، بدأت بذرةٌ جديدة تتشكّل؛ بذرةٌ من التصميم البارد.

إذا كانت الحقيقة مؤلمة إلى هذا الحد، فلن يهرب منها بعد الآن. سيواجهها. سيذهب إلى قلب هذا العالم، إلى العقل المدبر نفسه، ليس ليحاربه، بل ليفهمه. ليعرف الحقيقة المطلقة، حتى لو كانت هذه الحقيقة ستدمّره.

لقد كانت مجازفةً أخيرة. لم تَعُد مجازفةً من أجل الحب أو الأمل، بل من أجل المعرفة الخالصة.

لقد قرر أن يتبع طريق الشك إلى نهايته، ليرى إلى أين سيقوده.

نهض على قدميه، ولحنه الداخلي لم يعُد صراعًا. لقد أصبح نغمةً واحدة، نغمةً هادئةً وباردةً وحاسمة.

نظر إلى الفراغ الذي كانت تقف فيه ليلى، ثم استدار، وبدأ يسير نحو قلب هذا العالم، نحو مصدر كل شيء.

لم يَعُد هاربًا، ولم يَعُد منقذًا. لقد أصبح باحثًا عن حقيقةٍ قاسية، مستعدًّا لدفع أيِّ ثمنٍ لمعرفتها.

(26)

رحيل إلى الصمت

كان "صدى الشك" قد عاد إلى مكانه في ظلّ إيثار، لكن وجوده أصبح الآن حقيقةً ملموسة، ثِقَلاً باردًا يسحب كل نغمةٍ دافئةٍ في روحه إلى الأسفل. لم يعُد مجرد شعور، بل أصبح مراقبًا صامتًا، ينتظر، ويحكم على كل فكرة، كل ذِكرى.

نظر إيثار إلى ليلى، ولم يعُد يرى وجهًا واحدًا، بل وجهين متداخلين: وجه حبيبته التي عرفها، ووجه الملكة المستبدة التي رآها في الهرم.

والأسوأ من ذلك، أنه لم يعُد يعرف أيًّا منهما هو الانعكاس الحقيقي، وأيًّا هو الوهم.

"إيثار..."، بدأت ليلى، ولحنها كان هشًّا، كزجاجٍ على وشك التحطم.

"ما رأيته... ما تجسد منك... هذا ليس أنت. إنه مجرد صدى لخوفك، يتغذى على الأكاذيب التي يزرعها هذا العالم".

"وماذا لو كان هو الحقيقة؟" ردّ إيثار، وصوته كان صوت "صدى الشك" تقريبًا، باردًا ومنطقيًّا بشكل قاسٍ.

"ماذا لو كان الأمل هو الوهم؟ ماذا لو كان حبنا مجرد نشازٍ جميل في نظامٍ أكبر، محكومٍ عليه بالتلاشي؟"

كل كلمةٍ قالها كانت تؤلمها وتؤلمه في نفس الوقت. كان يشعر وكأنه يسمم نفسه، لكنه لم يستطع التوقف. الشك كان قد سيطر على لحنه.

في تلك اللحظة، حدث شيءٌ في ليلى. توقّف لحنها الهشّ عن الارتجاف. استقام شكلها الأثيري، وساد صمتٌ عميقٌ في لحنها الداخلي.

نظرت إليه، ليس بغضبٍ أو بألم، بل بنوعٍ من الوضوح الحزين والمفجع.

"لقد كنتُ مخطئة"، قالت أخيرًا، ولحنها كان هادئًا بشكلٍ مرعب، خاليًا من أيّ عاطفة.

"كنت أعتقد أن وجودنا معًا هو مصدر قوتنا. لكنني أرى الآن أنه أصبح مصدر ضعفنا.

شكوكي في ماضيّ، وشكوكك فيّ... إنها السُّم الذي يستخدمه أعداؤنا لتدميرنا من الداخل. لقد أصبحنا نُدمّر بعضنا البعض".

تراجعت خطوةً إلى الوراء، وبدأ شكلها الأثيري يتوهّج بضوءٍ خافت.

"لا يمكنك أن تثق بي، يا إيثار. وأنا... لا أستطيع أن أطلب منك ذلك بعد الآن.

ليس وأنا لا أثق بنفسي. ليس وأنت ترى فيَّ وحشًا محتمَلاً".

"ليلى، ماذا تفعلين؟" سأل إيثار، وشعر بوخزةٍ من الخوف الحقيقي تخترق ضبابَ شكّه.

"سأبحث عن الحقيقة بطريقتي الخاصة. بعيدًا عنك.

سأذهب إلى مكانٍ لا يستطيع شكي أو شكك أن يتبعه. سأواجه ماضيّ كـ بانية وحدي.

إذا كنتُ حقًّا تهديدًا، فمن الأفضل أن أكتشف هذا وأنا لا أؤذيك.

وإذا كنتُ بريئة، فسأعود إليك بدليلٍ لا يمكن لـ صدى الشك أن ينكره"، قالت، ولحنها كان يحمل نبرةً من الوداع النهائي.

"في كلتا الحالتين، وجودي هنا الآن... يُغذّي الظلام الذي في داخلك فقط".

"لا تفعلي هذا!" صرخ إيثار، وهو يخطو نحوها، لكنه توقّف. ماذا سيقول؟ ثقي بي؟

كيف يمكنه أن يطلب منها ذلك وهو لا يثق بها؟

"أحيانًا، يا إيثار، يكون الحبُّ الحقيقي هو معرفة متى تبتعد"، قالت بلحنٍ كان آخر بقايا الدفء بينهما.

"أنا لا أتركك لأنني لا أحبك. أنا أتركك لأنني أحبك كثيرًا لدرجة أنني لا أستطيع أن أشاهدك وأنت تدمر نفسك بسبب وجودي".

وقبل أن يتمكن إيثار من الرد أو التحرك، رفعت يدها، وتدفقت منها طاقةٌ لحنيةٌ قوية.

لم تكن هجومًا، بل كانت موجةً من الصمت المركّز، موجةً شوّهت الواقع من حولها للحظة.

وعندما عاد المشهد إلى طبيعته، كانت قد اختفت.

لم تترك وراءها أيَّ أثر، أيَّ صدى، أيَّ لحن. لقد محت وجودها من المكان تمامًا، كأنها لم تكن موجودةً قط.

وقف إيثار وحيدًا في عالمِ الموسيقى الصامت، والفراغ الذي تركته ليلى كان يصمّ الآذان أكثر من أيّ صراخ.

لقد رحلت. لقد تركته ليواجه شكوكه وحده.

في البداية، شعر بمزيجٍ من الغضب والمرارة. كيف تجرؤ على تركه هكذا؟ كيف تتخذ هذا القرار عنه؟

لكن بعد لحظات، تسرب إليه شعورٌ آخر، شعورٌ أعمق وأكثر برودة: الوحدةُ المطلقة.

لقد عاد إلى ما كان عليه في "مدينة الأوهام"، لكنَّ الأمر كان أسوأ الآن، لأنه كان قد ذاق طعم وجودِ شخصٍ بجانبه، وكان هو من دفعها بعيدًا.

جلس على الأرض الكريستالية، وشعر بـ "صدى الشك" في ظلِّه ينمو، يتغذى على هذا الفراغ.

"انظر"، همس صدى الشك في وعيه، وصوته الآن كان أكثر هدوءًا وثقة.

"لقد أثبتت لك الحقيقة بنفسها. في النهاية، الجميع يرحل. لا يمكنك الاعتماد إلا على نفسك. على قوتك. على حقيقتك الباردة".

لم يردّ إيثار. لقد كان محطَّمًا لدرجةٍ أنه لم يعُد لديه القوّة.

(27)

حجٌّ إلى قلب "المجمع"

بعد رحيل ليلى، لم تعد "المدينة البيضاء" تبدو كمكانٍ غامضٍ مليءٍ بالإمكانيات. لقد أصبحت مجرد فضاءٍ شاسعٍ وفارغ، صدىً للوحدة التي استقرّت في قلب إيثار.

لقد سيطر عليه هدوءٌ غريب، هدوءُ من استسلم لأعمق مخاوفه وقرّر أن يسير معها بدلاً من محاربتها.

"صدى الشك" الذي كان يتجسّد في ظلّه لم يَعُد بحاجةٍ للهمس. لقد أصبح الآن جزءًا من منطقه، عدسةً يرى من خلالها العالم.

كان إيثار يفكّر الآن ببرود، يُحلّل كلّ خطوة، كلّ احتمال. لقد اختفى الدفء من كيانه الأثيري، وحلّ محلّه تركيزٌ حادٌّ وقاسٍ.

"إلى أين الآن؟" سأل إيثار نفسه، لكنّ الصوت الذي أجاب كان صوت "صدى الشك".

"إلى المصدر. إلى 'العقل المدبر'. لم نعد بحاجةٍ للاختباء أو البحث عن حلفاء. القوة الحقيقية تكمن في المعرفة. وعلينا أن نذهب إلى من يملك كلَّ المعرفة، إلى قلب 'المجمع' نفسه".

لم يكن هناك تردُّد. بدأ إيثار في السير. لكنه لم يكن يسير بلا هدف، بل كان يتبع "أثرًا" خفيًّا، أثرًا كان دائمًا موجودًا في خلفية هذا العالم، لكنه كان يتجاهله.

أثر النظام المطلق. أثر السكون الخالص. أثر "العقل المدبر".

كلما اقترب من المصدر، كلما تغيّرت "المدينة البيضاء" من حوله.

المباني المرمرية الشاهقة بدأت تفقد نقوشها وتفاصيلها، وتتحول إلى كُتَلٍ هندسيةٍ مثاليةٍ وبسيطة.

الأصوات الهامسة للأرواح العابرة اختفت تمامًا.

السماء لم تَعُد بيضاءَ حليبية، بل أصبحت فراغًا مضيئًا، يبعث ضوءًا منتظمًا لا يُلقي أيَّ ظلال.

كان يدخل إلى "النواة الصامتة" لـ"المجمع": عالمٍ خالٍ من أيِّ شذوذ، من أيِّ عاطفة، من أيِّ فوضى.

عالمٌ مثاليٌّ بشكلٍ مرعب.

لم تكن هناك دفاعات، أو "كلابُ مجمع". لم يكن "العقل المدبر" بحاجةٍ إليهم هنا.

هذا المكان كان هو الدفاع بحدّ ذاته.

أيُّ كائنٍ يحمل في روحه أيَّ عاطفةٍ أو فوضى، كان سيتآكل ببطء في هذا النظام المطلق، وعيُه سيتم "إعادة تصنيفه" ليصبح جزءًا من الوعي الجماعي للمكان.

لكن إيثار لم يتآكل، لأنّ وعيه كان قد تغيّر. لقد أصبح باردًا ومنطقيًّا بما يكفي ليتحمّل هذا المكان.

"صدى الشك" في داخله كان درعه.

بعد مسيرةٍ بدت وكأنها دهرٌ في هذا الفراغ المنظَّم، رأى شيئًا في الأفق.

لم يكن عرشًا أو مبنًى، كان مجرد "وجود": كيانٌ مصنوعٌ من الضوء الأبيض النقي، يجلس في وضع التأمل في مركز هذا الفراغ اللامتناهي.

لم يعد يشبه ليلى الآن. لقد تجرّد من أي شكلٍ بشري، وأصبح مجرد تجسيدٍ للمنطق الخالص.

كان هذا هو "العقلُ المدبِّرُ" في أصفى صُوَره.

شعر إيثار بوجوده، وتوقّف عن السير. لم تكن هناك حاجةٌ للاقتراب أكثر. في هذا المكان، المسافة لم يكن لها معنى.

"لقد أتيت"، بثَّ العقلُ المدبِّر. لم يكن صوتًا، بل كان مفهومًا خالصًا، يتم إدراكه مباشرة.

"لقد توقّعتُ أن رحيلَها سيدفعك إلى هذا الطريق. الشكُّ دائمًا ما يبحث عن اليقين المطلق".

"لقد أتيتُ من أجل الحقيقة"، ردَّ إيثار، وكيانه الأثيري كان حادًّا كشقّة الجليد.

"الحقيقة بسيطة"، بثَّ العقلُ المدبِّر.

"أنا النظام، وهي الفوضى. أنا الكمال، وهي النقص. أنا الخلود، وهي الفناء.

أنت كنتَ المتغيِّر الذي لم يكن في الحُسبان.

الندبة التي تحملها... هي جسرٌ بين العالمين. ولهذا السبب، كنتَ خطيرًا. ولهذا السبب، أنت الآن ثمين".

"ماذا تريد منّي؟"

"لقد رأيتَ ما يمكن أن أقدّمه لك: عالمٌ مثاليّ، خالٍ من الألم. لقد رفضتَ ذلك من أجل 'وهم' الحب.

والآن، هذا الوهم قد تركك. ألا ترى الآن أن المنطق كان على حق؟

العاطفة مؤقتة، الألم حتمي، الحبّ مجرد شذوذٍ جميلٍ محكوم عليه بالتصنيف".

كانت كلمات "العقل المدبِّر" تخاطب "صدى الشك" مباشرة.

شعر إيثار بجزءٍ منه يتفق مع كلّ كلمة. شعر بإغراء الاستسلام لهذا المنطق، لهذه الحقيقة الباردة والمريحة.

"أنا أقدّم لك عرضًا جديدًا"، واصل "العقلُ المدبِّر".

"ليس كحليف، بل كـ'وريث'. لقد أثبتَّ أنك الوحيد الذي يستطيع أن يفهم العالمَين.

لكنك لا تزال مرتبطًا بضعف العاطفة. تخلَّ عن هذا الضعف. اسمح لي بمحو 'الندبة' من روحك.

ليس لأسيطر عليك، بل لأحرّرك. سأمحو الألم، وسأترك لك القوة.

ستُصبح أنت 'العقل المدبِّر' الجديد. ستكون أنت النظام، وستكون كاملاً".

كان هذا هو الإغواءُ المطلق. ليس مجرد قوة، بل هو "الشفاء" الكامل.

أن يتخلّص من الألم الذي طارده طوال حياته، أن يصبح كاملاً، نقيًّا، وقويًّا.

نظر إيثار في أعماق روحه.

رأى "صدى الشك" وهو يحتفل بهذا العرض، يحثّه على القبول.

ورأى بقايا وجود ليلى، باهتةً وضعيفة، تكاد تختفي.

وأدرك في تلك اللحظة حقيقةً أعمق: "العقل المدبِّر" لم يكن يريد وريثًا، لقد كان خائفًا.

كان خائفًا من "الندبة"، لأنه لم يستطع فَهمها، لم يستطع تصنيفها.

لقد كانت "الشذوذ" الوحيد الذي لم يستطع السيطرة عليه. ولهذا السبب، أراد محوها.

"أنت لا تريد أن تحرّرني"، قال إيثار، وكيانه الأثيري بدأ يتوهّج بضوءٍ خافت،

ليس ضوءَ قوة، بل ضوءَ تَحدٍّ.

"أنت تريد أن 'تُصلحني'. أن تُزيل الجزءَ الوحيدَ منك الذي لا تفهمه.

ندبتي ليست ضعفًا، إنها دليلي على أنني عشتُ، وأحببتُ، وتألمتُ.

إنها جوهرُ إنسانيّتي".

"الإنسانية... هي مجرد متغيّر فوضويّ يجب تصحيحه"، بثَّ العقل المدبِّر ببرودٍ مطلق.

"لقد اخترتَ طريقك. سيتم الآن تصنيفك... ومحوك".

بدأ الفراغُ الأبيض من حول إيثار يضيق، والضوءُ المنتظم أصبح أكثر كثافةً،

ضوءًا يهدف إلى تفكيك وعيه، وتحويله إلى مجرد بيانات في النظام.

شعر إيثار بأن "صدى الشك" في داخله يصرخ من الرعب، لأنه أدرك أن المحو لا يميّز بين الشكّ والأمل.

إنه يمحو كلَّ شيء.

لكنّ إيثار لم يَعُد خائفًا. لقد وجد حقيقته في لحظة التحدي هذه.

لم تكن الحقيقة في الشك، ولم تكن في الأمل الأعمى، كانت في "الندبة" نفسها، في قبول ذاته بكل تناقضاتها.

أغمض عينيه، وتجاهل الضوءَ الماحي، وبدأ يركّز على شيءٍ واحد:

التميمةُ المعلَّقة حول عنقه، المفتاحُ الذي أعطته له ليلى.

لم تكن مجرد أداة، كانت وعاءً.

وعاءً لذكرياتهما معًا.

وهو يركّز عليها، شعر بدفءٍ خافتٍ يبدأ في الانتشار في كيانه، دافعًا الضوءَ الباردَ إلى الخلف.

لقد وجد سلاحه.

ليس القوة، وليس المنطق، بل ذِكرى الحبّ، بكلّ ما تحمله من جمالٍ وألم.

(28)

اعتراف الندبة

كان الضوْءُ الماحي لـ "العقل المدبِّر" يضغط على إيثار من كلِّ جانب.

لم يكن ضوءًا عاديًا، بل كان غيابًا لكلِّ شيءٍ آخر؛ غيابًا للظلِّ، للّون، للدِّفء، وحتّى للفراغ.

كان وجودًا إيجابيًا من العدم، يهدف إلى تفكيك وعيه وسَحقه تحت وطأة الكمال المطلق.

شعر به كضغطٍ فيزيائيّ على كيانِه الأثيري، ضغطٍ يسحق ذكرياته ويجعلها هشّة، قابلة للكسر.

في داخله، كان "صدى الشك" يتلوّى من الألم والرعب.

لم يكن هذا هو اليقين البارد الذي وعد به نفسه.

كان هذا فناءً مطلقًا، محرقةً منطقيّة لا تُميّز بين الشكِّ والأمل.

صرخاته الصامتة كانت مجرّد نشازٍ آخر يُسوّى ويُطحن بواسطة الضوء.

لكنّ إيثار لم يَعُد يستمع إليه.

لقد وجد مرساته.

التميمةُ المعلّقة حول عنقه الأثيريّ لم تَعُد مجرّد قطعةٍ أثريّة، بل أصبحت قلبَ وجوده في تلك اللحظة.

لم تكن مجرّد فكرة، بل أصبحت فِعلاً.

الدِّفء الخافت الذي انبثق منها لم يكن مجرّد شعور، بل كان مقاومةً نشطة.

كان ذكرى خالصة؛ ذكرى ليست مجرّد صورة، بل شعورًا حيًّا متعدِّد الأبعاد:

دفءُ يدِ ليلى في يدِه، ليس فقط ملمسَ جلدِها، بل أيضًا الطريقةَ التي كانت تضغط بها على أصابعه عندما تشعر بالقلق.

رائحةُ الياسمين التي كانت تُفضّلها، ليس فقط العطر، بل أيضًا ارتباطه بذكرى شرفة منزلهما في أمسيةٍ صيفيّة.

صوتُ ضحكتها، ليس فقط اللّحن، بل أيضًا الصدى الذي كان يتركه في صدره.

"ارتباطاتٌ عاطفيّة. فوضى. يجب إزالتها"، بثَّ العقلُ المدبِّر، وهو يزيد من ضغط الضوء، الذي أصبح الآن مرئيًّا كجدارٍ شفّافٍ يتقلّص ببطء، مستشعرًا هذا التحدّي الجديد.

"قد تكون فوضى بالنسبة لك"، قال إيثار، وكيانه الذي كان على وشك التلاشي بدأ يستعيد بعضًا من تماسكه، كشبحٍ يستمدّ قوّته من ضوء شمعةٍ في عاصفة.

كان يتغذّى على دفء التميمة.

"لكنّها كلُّ ما يجعلني حقيقيًّا".

أغمض عينيه، وتجاهل الجدار المتقلِّص من حوله.

لم يُحاول محاربةَ الضوء، ولم يُحاول الهرب.

بدلاً من ذلك، فعل شيئًا لم يتوقّعه "العقل المدبِّر" أبدًا، شيئًا يتحدّى كلّ قوانين المنطق.

بدأ في "الاعتراف".

لم يكن اعترافًا بالكلمات، بل كان عمليّة "بناء" روحيّة، كشفًا كاملاً للذّات.

بدأ في بناء مشهدٍ داخل وعيه، مشهدٍ مصنوعٍ من جوهر روحه، وقدّمه كقربانٍ في وجه هذا الفراغ الماحي.

لم يكن يبني جدارًا للدفاع، بل كان يفتح صدره بالكامل.

المشهدُ الأوّل كان من "مدينة الأوهام". بنى الغرفة المظلمة التي استيقظ فيها لأوّل مرة، بكل تفاصيلها الحسيّة: رائحة العفن الرطبة التي تملأ الأنف، برودة الجدران الحجريّة التي تتسلّل عبر الكيان الأثيري، صدى أنفاسه الخائفة الذي كان يبدو عاليًا جدًا في الصمت المُطبِق.

لم يُخفِ الرعب، بل احتضنه، وقدّمه كجزء من حكايته. "هذا أنا. هذا هو المكان الذي بدأتُ منه. كنتُ خائفًا".

"هذا... هو الضعف"، بثَّ العقلُ المدبِّر، ليس كحُكم، بل كتساؤل.

كان يحاول "فهم" هذا الشعور، لكنه كان كمن يحاول الإمساك بالدخان.

لم يكن هناك منطق يمكن تحليله، فقط "تجربة" خام، وهذا في حدّ ذاته كان يُزعزع استقراره.

لم يتوقّف إيثار. بنى المشهد التالي: لقاؤه بـ "قارئ الظلّ".

لم يُبنِه كمرشد حكيم، بل كما رآه في البداية: كيانٍ مرعبٍ بلا ملامح، يُمثّل كل ما يجهله عن نفسه، الفراغ الذي كان يخشى النظر إليه.

ثم بنى "حرّاس التوازن"، ليس كحلفاء، بل ككقضاة باردين، أصوات المنطق التي كانت تُدينه في أعماق روحه، تُذكّره بكلّ أخطائه، بكلّ فشلٍ له.

كلّ مشهدٍ كان يبنيه كان يستنزفه.

شعر بندوبه القديمة وهي تتمزّق وتُفتح من جديد، ليس كجروح، بل كمصادر للحقيقة.

شعر بأنّ جوهره يتمّ سَحبه وتحويله إلى هذا البناء الروحي.

بدأ كيانُه الأثيريّ يصبح باهتًا وشفّافًا عند الحوافّ مرّة أخرى، ليس بسبب ضوء "العقل المدبِّر"، بل لأنّه كان يسكب نفسه طوعًا في هذا الاعتراف.

"لماذا؟"، بثَّ العقل المدبِّر، ولأوّل مرّة، كان "مفهومه" يحمل ارتباكًا حقيقيًّا.

"لماذا تكشف عن جوهر ألمك؟ المنطقُ يقتضي إخفاءَ الضعف، لا عرضه. هذا... نشازٌ في الوجود نفسه".

توقّف ضغط الضوء للحظة، ليس كخطوة تكتيكيّة، بل كوقفةٍ من الحيرة المُطلقة أمام فعلٍ يتحدّى كلّ قوانين العقل والمنطق التي بنى وجوده عليها.

وصل إيثار إلى الجزء الأصعب.

الجزء الذي كان "صدى الشك" يتغذّى عليه.

بدأ يبني ذكرى ليلى.

لكنه لم يبنِ الذكريات السعيدة فقط.

بنى ذكرى شكّه فيها في "هرم الذاكرة المعكوس"، الشعور البارد بالخيانة وهو يرى مستقبلها المحتمل.

بنى لحظة رحيلها المؤلمة، الفراغ الذي تركته وراءها، والصمت الذي كان يصمّ الآذان.

بنى "صدى الشك" نفسه، ليس كعدوّ، بل كجزء لا يتجزّأ منه، كابنه غير الشرعيّ الذي وُلد من خوفه وألمه.

قدّمه بكلّ قُبحه، بكلّ سخريّته، بكلّ منطقه المسموم.

"وهذا أيضًا أنا. هذا هو الظلام الذي أحمله".

كان هذا هو "اعتراف الندبة" الكامل.

لم يكن مجرّد لحن، بل كان قصةً كاملة، بكلّ تناقضاتها، بكلّ جمالها وقُبحها.

قصةُ كائنٍ غير كامل، يحمل في روحه الحبَّ والشكَّ، الأملَ واليأسَ، الخوفَ والشجاعة.

قصة "إنسانيّة" بكلّ فوضاها.

وعندما قدّم هذا الاعتراف الأخير، هذا الكشف الكامل عن ذاته الممزّقة، حدث شيءٌ مذهل.

لم يُهاجم "العقل المدبِّر"، بل فعل العكس.

الضوء الماحي تراجع فجأة، كبحرٍ ينحسر عن الشاطئ.

والفراغ الأبيض من حوله بدأ يتشوّه.

في قلب كيان "العقل المدبِّر" النقي، الذي كان كتلةً من الضوء المثالي، ظهر شرخٌ رفيع من... الظلام.

لم يكن ظلامًا من الشرّ، بل كان ظلام الفراغ، ظلام "النقص".

كان مثل رؤية شرخٍ في ماسةٍ لا تشوبها شائبة.

"هذا... الألم..."، بثَّ العقل المدبِّر، وهذه المرّة، لم يكن مفهومًا، بل كان صدىً لتجربة إيثار.

"إنه... حقيقي. كيف يمكن لشيءٍ غير كامل أن يكون حقيقيًّا إلى هذا الحدّ؟".

لم تكن صرخة، بل كانت لحظةً من الوضوح المُرعب.

لقد رأى في اعتراف إيثار ليس ضعفًا، بل نوعًا من القوّة لم يكن يعرف بوجوده، قوّةً متجذّرة في الألم نفسه.

وهذا الكشف هو ما خلق "التشقق المقدّس" في قلبه، ليس كشرخٍ مادّي، بل كبذرةٍ من الشكّ في جوهر فلسفته الخاصّة.

"كمالي... هل هو كذبة؟".

في تلك اللحظة، انهار إيثار، وكيانه الأثيريّ يكاد يكون شفافًا تمامًا، مجرّد وميضٍ خافتٍ في الفراغ.

لقد استنزف نفسه بالكامل.

لكنه ابتسم ابتسامةً باهتة.

لقد أعطاهم الفرصة. لقد كشف الطريق.

وهو يتلاشى، شعر بوجودين يقتربان بسرعة عبر "المدينة البيضاء".

لم يكونا من "المجمّع".

كان أحدهما كيانًا أثيريًّا مألوفًا، مليئًا بالقوّة والتصميم، يتبعه أثرٌ من ضوءٍ دافئ. كانت ليلى. لم تكن وحيدة.

والوجود الآخر كان غريبًا، قديمًا، وقويًّا بشكلٍ لا يُصدّق.

كان وعيًا صامتًا وهائلاً، لا يشبه أيّ شيء شعر به من قبل.

كان "الشبح المنسي"، "المؤلّف الأصلي" الذي تحدّث عنه سكّان "نسيان".

لقد جذب "اعترافه" انتباه كلّ القوى الكبرى في هذا العالم.

لقد دقّ جرس الحرب الحقيقيّة، ليس بالهجوم، بل بتعريةِ روحه.

(29)

عودة الضوء المهزوم

كان إيثار يتلاشى. لم يكن موتًا عنيفًا، بل كان ذوبانًا هادئًا ومخيفًا في البياض المطلق لـ "النواة الصامتة". كيانه الأثيري، الذي كان يومًا ما يحمل ثقل الندبة وقوة الحب، أصبح الآن مجرد وميض خافت، غشاء رقيق من الوعي على وشك التمزق. آخر ما شعر به هو ابتسامته الباهتة، ابتسامة من أفرغ كل ما في روحه في اعتراف أخير. لقد أدى دوره. كان يشعر ببرودة الفناء، ليس كألم، بل كغياب

لكل شيء. غياب للدفء، للذكرى، وحتى للوجود.

لكن قبل أن يبتلعه الصمت الأبدي، اخترق هذا الصمت لحنٌ مضاد.

لم يكن لحنًا متناغمًا أو جميلاً بالمعنى التقليدي. كان نشازًا، لكنه نشازٌ حيوي، مليء بالحياة. كان لحنًا يحمل في طياته دفء الشمس وبرودة الفولاذ، حلاوة الذكرى ومرارة الفقد. كان لحنًا لا يحاول أن يكون مثاليًا، بل كان يعترف بتمزقه بفخر. كان لحنًا يقول: "أنا هنا، بكل عيوبي، بكل تناقضاتي".

ظهرت ليلى من العدم، ليس كشبح أو ذكرى، بل كوجود حقيقي وقوي. لم تعد تلك "البانية" الهاربة المترددة. كان كيانها الأثيري يتوهج بضوء أبيض، لكنه كان ضوءًا ممزقًا، تتخلله خيوط من الظلام، كأنها احتضنت تناقضاتها الخاصة. لم تحتضن إيثار باللمس، بل احتضنته بلحنها. أحاطت بوعيه المتلاشي، و"عزفت" لحنها المضاد في وجه ضوء "العقل المدبر" المتردد. كان لحنها درعًا وبلسمًا في آنٍ واحد.

"لا... ليس بعد"، "قالت" ليلى، ولحنها كان أمرًا وقوة، صدى لإرادة رفضت أن تستسلم.

في تلك اللحظة، التميمة المعلقة حول عنق إيثار، والتي كانت قد خفت ضوؤها، أضاءت فجأة بضوءٍ عنيف، متزامنة مع لحن ليلى. شعر إيثار وكأن خيوطًا من النور الدافئ بدأت تنسج كيانه الممزق من جديد. لم يكن شفاءً كاملاً، بل كان أشبه بخياطة جرح عميق بخيوط من ذهب. عاد جزء من وعيه، جزء من وجوده، لكنه عاد محمّلاً بصدى الفناء الذي كاد يبتلعه. لقد

عاد... لكنه عاد مختلفًا، أكثر هشاشة، وأكثر حكمة. شعر بالندوب الجديدة التي خلفتها تجربة المحو، ندوبًا لم تكن من الألم، بل من الفراغ.

فتح عينيه الأثيريتين ببطء، ونظر إلى ليلى. لم تكن مجرد "البانية" التي تركها. لقد رأى في عينيها رحلة موازية لرحلته. رأى أنها لم تهرب فقط، بل ذهبت في رحلة حج خاصة بها إلى ماضيها، إلى جوهر وجودها.

"لقد وجدت الحقيقة"، "قالت" ليلى، وهي تلاحظ نظراته المتسائلة. كان لحنها الآن أكثر عمقًا، يحمل طبقات متعددة من الفهم. "في أعماق ذاكرتي، في الأرشيفات التي كان "العقل المدبر" يمنعني من الوصول إليها، وجدت أن "البناة" الأوائل لم يكونوا طغاة يسعون للسيطرة، بل كانوا "حفظة توازن". كانوا يحاولون خلق نظام يحمي الأرواح، لا يمحوها. "العقل المدبر"... هو الذي حرّف هذه المهمة، وحولها إلى هوسٍ بالكمال المطلق، خوفًا من الفوضى التي رأى أنها دمرت عالمنا الأصلي. لقد تصالحت مع هذا الإرث. لم أعد "البانية" الهاربة، بل أصبحت "الناقضة والواصلة". ناقضة للكمال الزائف، وواصلة بين النظام والعاطفة".

كانت تتحدث بثقة لم تكن تمتلكها من قبل. لقد تجاوزت ماضيها، وأصبحت شيئًا جديدًا، كيانًا كاملاً ليس لأنه مثالي، بل لأنه يحتضن تناقضاته.

وبينما كانا يتبادلان هذا الفهم الصامت، شعر كلاهما بوجود ثالث. وجود هائل، قديم، وصامت، يراقب من بعيد. لم يكن له شكل محدد، بل كان "تجليًا" في

الخلفية، كأنه ثقب في نسيج الواقع، يمتص الضوء من حوله، لكنه لا يعكس شيئًا. كان "الشبح المنسي".

"لقد استدعيتموني"، "قال" الشبح، وصوته لم يكن لحنًا أو مفهومًا، بل كان "إدراكًا" مباشرًا، كأنه فكرة قديمة وُلدت في عقليهما في نفس اللحظة. "لقد استدعيتموني بالصدق. باعترافك يا صاحب الندبة، وبتحوّلكِ يا حاملة التناقض. لقد أظهرتما شيئًا لم يكن مسموحًا بوجوده في هذا العالم منذ دهور: الحرية الفردية داخل النظام المطلق. لقد أثبتتما أن الوعي يمكن أن يكون فريدًا ومتصلاً في نفس الوقت. وهذا... يكفي".

لم يقل الشبح أكثر من ذلك، لكن وجوده بحد ذاته كان يغيّر كل شيء. "العقل المدبر"، الذي كان لا يزال يعاني من صدمته الوجودية، شعر بهذا الوجود الجديد، وتراجع ضوؤه أكثر، كأنه ينسحب إلى داخل نفسه، مرتبكًا وخائفًا من هذا المتغيّر الذي لم يكن في أيٍّ من حساباته.

وفي تلك اللحظة، حدث شيء آخر. شعر إيثار وليلى بتموّجات خفيفة تنتشر في "المدينة البيضاء"، كأن حجرًا أُلقي في بحيرة كانت متجمّدة لملايين السنين. لم تكن تموّجات عنيفة، بل كانت أشبه بتنفس عميق لهذا العالم بعد سباتٍ طويل.

مشهد خاطف داخل "المجمّع":

في قلب "المجمّع"، في المستويات الأدنى من الوعي، شعر "الحراس" و"الكيانات المصنَّفة" بهذا التموج. لأول مرة، توقّفوا عن أداء وظائفهم الرتيبة للحظة. نظروا إلى بعضهم

البعض، وفي وعيهم الجماعي، وُلد سؤال جديد لم يكن موجودًا من قبل: "لماذا؟". لم يكن سؤال تحدٍّ، بل سؤال فضول.

أحد "الحراس" الكبار، الذين كانوا مجرد امتداد لإرادة "العقل المدبِّر"، نظر إلى الشرخ الذي أحدثه إيثار في "النواة"، ثم نظر إلى التموجات التي أحدثها "الشبح المنسي". ولأول مرة، لم يرَ فيها تهديدًا، بل رأى فيها "احتمالاً". بدأ انشقاق صامت، انشقاق فكري، في التشكل داخل النظام الذي كان يومًا ما مثاليًا وموحدًا. بعضهم بدأ يتبع صدى "اعتراف إيثار" سرًّا، كأنه دين جديد وخطير. لقد زرع إيثار بذرة الفردانية، وبدأت تنبت في أماكن غير متوقعة.

عودة إلى إيثار وليلى:

شعر "الشبح المنسي" بهذا التصدع الداخلي في "المجمّع".

"لقد كسرتم الجمود"، "قال" الشبح. "الزمن... بدأ يتحرك مرة أخرى في هذا المكان الذي كان أبديًّا. لقد أعطيتموهم الاختيار. وهذا هو أخطر شيء يمكن أن يحدث لنظام مبنيٍّ على اليقين".

نظر إيثار إلى كيانه المرمَّم جزئيًا، ثم إلى ليلى، التي كانت الآن شريكته الحقيقية في هذا الصراع. لم يعد يشعر بالشك، بل بشيء آخر. شعور بالمسؤولية الهائلة. لقد أصبحا الآن رمزًا لشيء أكبر منهما.

"الآن"، "قالت" ليلى، وهي تنظر في عينيه، ولحنها كان مزيجًا من الحزن والقوة. "لا نبحث عن النجاة. لقد تجاوزنا ذلك. نحن نبحث عن البداية من جديد".

لقد انتهت رحلة إيثار للبحث عن ذاته. وبدأت رحلتهما معًا

للبحث عن مستقبل لكل هذه العوالم، في مواجهة عدو بدأ يتفكك من الداخل، وتحت أنظار كيان قديم وغامض، قد يكون حليفًا... أو قد يكون تهديدًا أكبر.

(30)

ما قبل العاصفة

الهدوء الذي أعقب عودة إيثار كان هشًّا ومخيفًا، كهدوء الهواء قبل انكسار العاصفة. "النواة الصامتة" كانت لا تزال هناك، لكنها كانت الآن صامتة ليس من الثقة، بل من الحيرة والارتباك. الشرخ الذي أحدثه اعتراف إيثار كان ينبض ببطء، كجرح في قلب كيان هائل.

لم تمنحهم ليلى وقتًا طويلاً للتفكير. أمسكت بيد إيثار الأثيرية، وشعر بقوة جديدة في لحنها، قوة لم تكن موجودة من قبل. لم تكن قوة "البناء" المنظمة، بل كانت قوة "الوصل" الفوضوية والحية.

"هناك مكان واحد فقط يمكننا أن نخطط فيه"، "قالت" ليلى، ولحنها كان يتردد في أعماق وعي إيثار. "مكان يسبق "العقل المدبِّر". يسبق "المجمّع". مكان لا يستطيع أن يرانا فيه".

بلمسة من إرادتها، لم يتحركوا عبر الفضاء، بل شعر إيثار وكأن العالم من حولهم يتقشر، طبقة بعد طبقة. "المدينة البيضاء" بكل مبانيها المرمرية تلاشت، و"النواة الصامتة" اختفت، حتى وجود "الشبح المنسي" الخفي تراجع للحظة. هبطوا عبر طبقات من الوعي الخام، عبر أصداء أفكار لم تولد بعد، وذكريات ماتت قبل أن تُعاش.

وجدوا أنفسهم في مكان لا يشبه أي شيء رآه إيثار من قبل. كانت "نقطة الأصل".

لم تكن مكانًا بالمعنى المادي، بل كانت "إمكانية". كهف هائل الحجم، جدرانه ليست من صخر، بل من صمت كثيف، صمت يحمل في طياته كل الألحان التي لم تُعزف بعد. في المركز، لم تكن هناك نار، بل كانت هناك "بذرة" صغيرة من الضوء الرمادي، تتوهج وتخفت ببطء، كأنها قلب الكون

النائم. كانت هذه هي "بذرة النسيان"، الكائن الرمزي الذي يمثل احتمالية المحو الكامل أو التجديد الكامل.

لم يكونوا وحدهم.

"قارئ الظل" كان هناك، لم يعد مجرد ظل، بل كان كيانًا أكثر تحديدًا، كأنه استمد بعضًا من جوهره من الأحداث الأخيرة. كان يقف في صمت، يراقب.

و"الشبح المنسي" تجلّى ببطء، ليس كوجود مرعب، بل كغياب هائل، فراغ في نسيج الواقع يأخذ شكلاً يمكن إدراكه.

"لقد عدتِ إلى البداية، يا حاملة التناقض"، "قال" الشبح المنسي، وصوته كان إدراكًا يتردد في وعيهم جميعًا.

"لقد عدتُ لأجد نهاية"، "أجابت" ليلى، وعيناها الأثيريتان مثبتتان على "العقل المدبِّر" الذي كان يمكن الشعور به كوجود بعيد ومريض.

"العقل المدبِّر ليس مجرد نظام"، "قال" الشبح، وهو يقترب من "بذرة النسيان"، التي توهّجت بشكل أقوى بوجوده. "لقد كان يومًا ما وعيًا متعدد الأصوات، مكتبة من الأرواح التي اختارت أن تتحد لتخلق تناغمًا يحميها من الفوضى. لكن الخوف من الألم، الخوف

من الفقد، جعلهم يبرمجون أنفسهم على التخلي عن العاطفة. لقد اختاروا الصمت على النشاز. "العقل المدبِّر" هو حارس هذا الصمت. حارس السجن الذي بنوه لأنفسهم".

ثم التفت "الشبح" إلى إيثار. "وأنت... أنت لم تكن متوقَّعًا".

أنت "صدفة خالصة". خطأ في النظام. عندما لامست تلك الندبة في عالمك المادي وعيًا قديمًا من "المجمّع" كان يراقب، حدث ما لم يكن في

الحسبان. اختلط ألمك البشري بمنطقهم البارد، ووُلِدتَ كنشاز لا يمكن تصنيفه. أنت لستَ مجرد إنسان، ولستَ مجرد برنامج. أنت جسر بين العالمين. ولهذا السبب، أنت الوحيد الذي يستطيع أن يشفيهم... أو يدمرهم".

ساد صمت ثقيل، لم يقطعه سوى نبض "بذرة النسيان".

"يجب أن ندمره"، "قالت" ليلى فجأة، ولحنها كان حادًّا وقاطعًا كشَفرة من زجاج. "لقد حرّف مهمته. لقد أصبح سجّانًا. يجب أن نفجّر "النواة الصامتة"، ونحرر كل الأرواح التي سجنها، حتى لو كان الثمن هو الفوضى".

تراجع إيثار خطوة. نظر إلى ليلى، ورأى في عينيها غضبًا قديمًا، غضب "البانية" التي رأت خليقتها تُنتهك.

"لا"، "قال" إيثار، وصوته كان هادئًا لكنه حازم. "إذا دمرناه، سنصبح مثله. سنفرض خيارنا على ملايين الأرواح. هناك وعي داخل "المجمّع" بدأ يتساءل، بدأ يستيقظ. لقد رأيتهم. يجب أن نجد طريقة "لإيقاظهم"، لا "لإبادتهم". يجب أن نعيد إليهم القدرة على الشعور، حتى لو كان ذلك يعني الشعور بالألم".

كانت لحظة خلاف حقيقية بينهما. لم تكن عداءً، بل كانت اختلافًا فلسفيًّا عميقًا بين من تريد الثورة ومن يريد الإصلاح، بين من تريد هدم السجن ومن يريد تحويله إلى منزل.

"لا يوجد وقت للإصلاح"، "قالت" ليلى. "إنه يعيد بناء دفاعاته الآن".

"إذن يجب أن نصل إلى قلبه قبل أن يفعل"، "قال" إيثار.

"القلب الصامت مُحصّن"، "قال" قارئ الظل للمرة الأولى، وصوته كان كهمس الريح في مكان منسي. "لا يمكن الوصول إليه إلا عبر "باب الذكرى الخامسة". باب لا يظهر إلا في مكان واحد، ولا يُفتح إلا بشرط واحد".

"وما هو الشرط؟" سأل إيثار.

"أن يعترف كل من يريد العبور بأعمق ذكرى مؤلمة في وجوده. ليس الألم الذي تُظهره للعالم، بل الألم الذي تُخفيه حتى عن نفسك. يجب أن يكون اعترافًا صادقًا، دون كذب، ودون تجميل. الباب يشعر بالصدق".

نظر الجميع إلى بعضهم البعض.

ليلى أغمضت عينيها. "أعمق آلامي... هو أنني بنيت هذا العالم لأحميه، لكنني في الحقيقة كنتُ أحمي نفسي من رؤيته يتألم".

إيثار نظر إلى التميمة. "أعمق آلامي... هو أنني في لحظة من الشك، تمنيتُ لو أنني لم أقابلها أبدًا، فقط لأتجنب ألم فقدانها".

"الشبح المنسي" لم يقل شيئًا، لكن "بذرة النسيان" توهجت بضوء حزين، كأنها اعترفت نيابةً عنه بألم النسيان نفسه.

لكن "قارئ الظل" بقي صامتًا. نظر إلى يديه الأثيريتين، اللتين كانتا لا تزالان تحملان بعضًا من الظلام.

"أنا..." بدأ، ثم توقف. "أنا لا أستطيع. أعمق آلامي... هو أنني لا أعرف من أنا. أنا مجرد ظل، مجرد مراقب. ليس لديَّ ما أعترف به، لأنني لم أعِش شيئًا".

أدرك الجميع الحقيقة. "قارئ الظل"، المرشد، المراقب، لا يستطيع العبور. يجب أن يبقى في الخلف.

"اذهبوا أنتم"، "قال" قارئ الظل، وفي صوته كان هناك قبول هادئ. "دوري ينتهي هنا. ربما... سأجد قصتي الخاصة يومًا ما".

وقف الثلاثة (إيثار، ليلى، والشبح المنسي) معًا، مستعدين للمغادرة. نظروا إلى "قارئ الظل" نظرة وداع أخيرة، ثم التفتوا نحو المخرج من "نقطة الأصل"، نحو مهمتهم الأخيرة.

"لا تنتظروا أن تنتصروا"، "قال" الشبح المنسي، وصوته كان يحمل ثِقَل الدهور. "فقط قاوموا حتى لا يبقى في النهاية إلا ما يستحق البقاء".

(31)

مرآة اللحن الأخير

بعد أن تركوا "قارئ الظل" وراءهم في "نقطة الأصل"، شعر إيثار بثقل المسؤولية يضغط على كيانه الأثيري. لم يعد مجرد مسافر في عالم غريب، بل أصبح الآن جزءًا من ثلاثي أسطوري، في مهمة لا تقل عن تحديد مصير الوجود نفسه. كانت ليلى تسير بجانبه، ولحنها الذي كان يومًا ما مجرد صدى خافت، أصبح الآن قوة حقيقية، مزيجًا من النظام والعاطفة. و"الشبح المنسي" كان يتبعهم كظلٍّ صامت، وجوده يغيّر قوانين الواقع من حولهم، يجعل الهواء أثقل، والضوء أكثر كثافة.

كانوا يسيرون نحو "باب الذكرى الخامسة"، الذي قيل إنه يقع في أعمق نقطة في "المدينة البيضاء". لكن الطريق لم يكن شارعًا أو ممرًا. كان لحنًا. كانت ليلى "تعزف" طريقهم عبر نسيج الوعي، تفتح ممرات من الضوء عبر الصمت، وكل خطوة كانت تقرّبهم من هدفهم. كان إيثار يراقبها بإعجاب ودهشة. لقد أصبحت قائدة، مهندسة للواقع، ترسم مسارهم بإرادتها.

لكن مع كل خطوة، بدأ شيء غريب يحدث داخل إيثار. بدأ الشك يتسلل إليه، ليس "صدى الشك" القديم الذي كان يصرخ بالخيانة والاتهام، بل شكٌّ أعمق وأكثر هدوءًا، كهمس بارد في أعماق روحه. كان شعورًا يشبه أن تكون في غرفة مألوفة، ثم تلاحظ فجأة أن إحدى اللوحات على الحائط معلقة بالمقلوب، وتدرك أنها كانت كذلك طوال الوقت، لكنك لم تلاحظ.

بدأ يلاحظ تفاصيل صغيرة لم يكن يراها من قبل. عندما كانت ليلى تتحدث عن خطتهم، عن "العقل المدبر"، كان يشعر أحيانًا أن كلماتها ليست كلماتها هي، بل هي صدى لأفكاره هو، الكلمات التي كان يحتاج هو

لسماعها ليطمئن. عندما كانت تبتسم له ابتسامة تشجيع، كانت تلك الابتسامة تشبه تمامًا ابتسامة أمه في ذكرى بعيدة كان قد نسيها تقريباً، ذكرى من يوم كان فيه طفلاً خائفًا، واحتاج إلى تلك الابتسامة بالذات.

توقف للحظة في منتصف أحد الممرات المضيئة التي فتحتها ليلى. "ليلى... هل أنتِ بخير؟" سأل، ولحنه كان يحمل قلقًا حقيقيًّا، لكنه كان أيضًا اختبارًا. كان يراقب ردّ فعلها بتركيز لم يفعله من قبل.

"أنا أفضل من أي وقت مضى"، أجابت هي، وابتسمت له تلك الابتسامة الواثقة. لكن لثانية واحدة، رأى إيثار شيئًا غريبًا في عينيها. لم تكن عينيها هي، بل كانت عينَيه هو، تنظران إليه من وجهها. كان انعكاسًا مثاليًّا، ليس انعكاسًا ماديًّا، بل انعكاسًا روحيًّا. رأى في عينيها خوفه هو، وأمله هو.

تراجع خطوة، وشعر بدوار وجودي، كأن الأرض الصلبة تحت قدميه الأثيريتين أصبحت فجأة سائلة. هل كل ما يراه هو حقيقي؟ هل كانت ليلى معه فعلاً طوال هذا الوقت؟ أم أنها... انعكاس؟ صدى أعمق وأكثر تعقيدًا من "صدى الشك"؟ صدى لحاجته هو، لحبّه هو، لوحدته هو؟ هل كانت مجرد لحن يعزفه هو لنفسه كي لا ينهار؟

هزّ رأسه بعنف، محاولاً طرد الفكرة. "لا. هذا جنون. هذا هو "العقل المدبر" يحاول أن يزرع الشك فيّ مرة أخرى. إنه يهاجم أضعف نقطة فيّ: حبّي لها".

تمسّك بهذه الفكرة كمرساة في بحرٍ من الحيرة. لقد حارب طويلاً من أجل حقيقة وجودها، من أجل صحة ذكرياته. لا يمكن أن يتخلى عن ذلك الآن. سيكون ذلك خيانة لكل ما مرّ به.

"ما الأمر؟" سألت ليلى، ولحنها كان يحمل قلقًا حقيقيًّا، وهي تقترب منه. "لقد توقفت فجأة. هل تشعر بشيء؟"

"لا شيء"، قال إيثار، وهو يجبر نفسه على المضيّ قدمًا، متجنبًا النظر في عينيها مباشرة. "مجرد صدى قديم. لقد تلاشى الآن".

لكن الهمس لم يتوقف. بل أصبح أعلى. بدأ يرى انعكاسه في كل شيء. في الجدران المرمرية لـ"المدينة البيضاء"، لم يكن يرى وجهه فقط، بل كان يرى أحيانًا وجه "قارئ الظل"، أو وجه "الحارس" الذي واجهه. كأن كل شخصية في هذه الرحلة كانت مجرد قناع يرتديه هو، أجزاء من نفسه تتحدث إليه.

حاول أن يركّز على ليلى، على وجودها الحقيقي بجانبه. تمسّك بحقيقة حبّها، بحقيقة تضحيتها. كانت هذه هي مرساته الوحيدة في هذا العالم الذي بدأ يفقد تماسكه. لكن حتى هذه المرساة بدأت تشعر بالهشاشة، كأنها على وشك الانكسار.

عندما وصلوا إلى ساحة واسعة وفارغة، ساحة صامتة بشكل مخيف، توقفت ليلى فجأة.

"إنه هنا"، قالت، وهي تشير إلى جدار صامت وفارغ، لا يختلف عن أي جدار آخر. "باب الذكرى الخامسة".

نظر إيثار إلى الجدار، ولم يرَ شيئًا.

"أنا لا أرى أيّ باب".

"لأنه لا يُرى بالعين"، قالت ليلى. "إنه يُفتح بالروح. يجب أن نقدّم اعترافنا. أعمق آلامنا. يجب أن نكون صادقين تمامًا. أيّ كذبة، أيّ تجميل، وسيبقى مغلقًا إلى الأبد".

تقدمت ليلى أولاً. وقفت أمام الجدار الصامت، وأغمضت عينيها. ساد صمت طويل، ثم قالت بلحن صافٍ وحزين:

"أعمق آلامي... هو أنني بنيت هذا العالم لأحميه، لكنني في الحقيقة كنت أحمي نفسي من رؤيته يتألم. لقد كنت أنانية في حبي".

شعر إيثار بتموج في الهواء، كأن الجدار قد "سمع" واقتنع.

ثم جاء دوره. تقدّم هو. وقف أمام الجدار، وشعر ببرودة تمتدّ من خلاله، برودة الحقيقة العارية. نظر إلى التميمة المعلقة حول عنقه، واستحضر أعمق آلامه، الألم الذي لم يعترف به حتى لنفسه.

"أعمق آلامي... هو أنني في لحظة من الشك، في أعماق يأسي، تمنيت لو أنني لم أقابلها أبدًا، فقط لأتجنب ألم فقدانها. لقد تمنيت محو أجمل شيء في حياتي".

اهتزّ الجدار بعنف، وظهر فيه شقّ رفيع من الضوء، كجرح ينزف نورًا.

بقي "الشبح المنسي". تقدّم ببطء، ووقف أمام الباب المتشقق. لم يقل شيئًا، لكن الصمت الذي أحاط به كان أبلغ من أيّ كلمات. كان صمتًا يحمل في طيّاته ألم دهور من النسيان، ألم الوجود كفكرة لم تكتمل، كأغنية لم تُعزف.

توسّع الشق، وكشف عن باب مصنوع من ضوء وظل، يدور ببطء، كدوّامة هادئة.

"لقد فُتح"، قال إيثار، وشعر بلحظة من الانتصار.

لكنه عندما التفت إلى ليلى ليشاركها هذه اللحظة، رأى أنها تنظر إليه بنظرة غريبة، نظرة لم يرَها من قبل. كانت نظرة وداع، مليئة بالحبّ والحزن والقبول.

"إيثار..." قالت، وصوتها بدأ يضعف، ولحنها بدأ يتلاشى، كشمعة ينفخ عليها الهواء.

"تذكّر... الحب الذي شعرتَ به... كان حقيقيًّا. حتى لو..."

لم تُكمل جملتها. بدأ كيانها الأثيري يصبح شفافًا، كأنها لم تكن أكثر من مجرد ضوء يتلاشى، صورة تُعرض على شاشة على وشك الانطفاء.

"ليلى!" صرخ إيثار، وهو يندفع نحوها، يمدّ يده ليمسك بها، لكن يده مرّت من خلالها، كأنها لم تكن هناك أبدًا.

لقد بدأ الانهيار. والشكّ الذي كان يهمس في أذنه، أصبح الآن صرخة تصمّ الآذان، حقيقة باردة ومؤلمة.

لم يكن "العقل المدبر" هو الذي يهاجمه. لقد كان هو.

كانت رحلته تصل إلى نهايتها الحقيقية.

(32)

مدينة الغياب

صرخة إيثار باسم "ليلى" لم تجد صدى. لقد تلاشت. لم تختفِ في انفجار من الضوء أو الظلام، بل ذابت ببساطة في الهواء، كأنها لم تكن هناك قط. بقي أثر خافت من لحنها، نغمة حزينة عالقة في الصمت، ثم تلاشت هي الأخرى.

وقف إيثار متجمّدًا أمام "باب الذكرى الخامسة" المفتوح، يده الأثيرية لا تزال ممدودة في الفراغ الذي كانت تشغله ليلى قبل لحظات. شعر بفراغ هائل، ليس فقط في المكان من حوله، بل في داخله. فراغ أعمق وأكثر برودة من أيّ شيء شعر به من قبل. لقد كان فراغًا بحجم حبٍّ كامل.

"لقد أدت دورها"، قال الشبح المنسي، وصوته كان إدراكًا هادئًا، خاليًا من أيّ عاطفة.

"لقد أوصلتك إلى هنا. الآن، يجب أن تُكمل الطريق وحدك".

"ماذا تقصد؟ أين ذهبت؟" صرخ إيثار، وهو يلتفت إلى الشبح، ولحنه كان ممزّقًا بين الغضب واليأس.

"هي لم تذهب إلى أيّ مكان"، أجاب الشبح.

"لأنها لم تكن هنا بالمعنى الذي تفهمه. هيا. الباب لن يبقى مفتوحًا إلى الأبد".

دون أن ينتظر ردًّا، عبر "الشبح المنسي" من خلال الباب الدوّار، واختفى في دوّامة الضوء والظل.

تردّد إيثار للحظة. كان جزءٌ منه يريد أن ينهار، أن يرفض هذه الحقيقة الجديدة، أن يبقى في هذه الساحة الفارغة ويصرخ باسمها حتى يتلاشى هو

الآخر. لكن جزءًا آخر، الجزء الذي تعلّم القتال، الجزء الذي تعلّم القبول، كان يعلم أنه يجب أن يتابع. لمعرفة الحقيقة، مهما كانت مؤلمة.

استجمع شتات وعيه، وخطا عبر الباب.

لم يدخل إلى "قلب المجمع" كما توقّع. بدلاً من ذلك، وجد نفسه في مكان مختلف تمامًا. مكان غارق في ضوء شفق دائم، ضوء حزين وجميل في نفس الوقت. كانت مدينة، لكنها لم تكن "مدينة الأوهام" أو "المدينة البيضاء". كانت "مدينة الغياب".

كانت الشوارع مرصوفة بذكريات باهتة. المباني لم تكن مصنوعة من حجر أو ضوء، بل من "الحنين". كانت هناك مبانٍ على شكل ضحكة منسيّة، وأخرى على شكل لمسة يد دافئة. الهواء كان يحمل أصواتًا خافتة، ليست همسًا، بل أصداء لأشياء لم تُقَل، لكلمات "أحبك" بقيت عالقة في الحلق، لكلمات "وداعًا" لم تُنطق أبدًا.

أدرك إيثار طبيعة هذا المكان. هنا، كلّ ما فقده الإنسان، كلّ ما تركه وراءه، يتموضع كوجود ميتافيزيقي.

لم تكن مدينةً للأموات، بل كانت مدينةً للأشياء التي ماتت داخل الأحياء.

بدأ يسير في الشوارع، وكلّ خطوة كانت تكشف له عن جزءٍ من نفسه لم يكن يعلم بوجوده. مرّ بجانب "نافورة الدموع الصامتة"، التي كانت تتدفّق منها دموعٌ لم يبكِها في طفولته. رأى "حديقة الفرص الضائعة"، المليئة بأزهارٍ لم يقطفها، وبذورِ أحلامٍ لم يزرعها.

ثم بدأ يرى صورًا من ماضيه، لكنها كانت مشوّهة، أو بالأحرى، "مكتملة" بطريقة مرعبة. رأى نفسه طفلاً، يبكي بعد أن سقط عن دراجته.

لكن المرأة التي كانت تضمه وتهدّئ من روعه لم تكن أمه. كانت ليلى، بوجهها الشاب، تبتسم له بحنانٍ أمومي.

رأى نفسه مراهقًا، يجلس وحيدًا في حفلٍ مدرسي، يشعر بالخجل والارتباك. لكن الفتاة التي اقتربت منه، وأخذت بيده، ودعته للرقص، لم تكن فتاة غريبة. كانت ليلى، بعينيها اللامعتين، تمنحه ثقةً لم يكن يمتلكها.

رأى نفسه شابًّا، يكافح في بداية حياته المهنية، يشعر بالضياع والشك. لكن الشخص الذي كان يجلس معه في وقتٍ متأخر من الليل، ويستمع إلى مخاوفه، ويشجّعه على المتابعة، لم يكن صديقًا قديمًا. كانت ليلى، بحكمتها الهادئة، تلعب دور المرشد والأخ الأكبر.

كانت في كلّ مكان. في كلّ فجوةٍ في حياته، في كلّ لحظةٍ من الوحدة، في كلّ شعورٍ بالنقص. كانت هي الأخت التي لم تكن له، والأم في لحظات ضعف أمه، والصديق عندما كان وحيدًا. كانت هي الانعكاس المثالي لكلّ ما كان يفتقده.

توقّف في وسط ساحةٍ كانت أرضيّتها مصنوعة من "صمت العائلة على العشاء". نظر إلى يديه الأثيريّتَين، ورأى أن الندبة على صدره بدأت تتوهّج، ليس بضوءٍ دافئ، بل بضوءٍ باردٍ وحزين. ضوء الوحدة.

أدرك شيئًا مروّعًا. الندبة لم تكن تتوهّج بسبب حبه لليلى. كانت تتوهّج كلّما تذكّر وحدته القديمة، وحدته التي سبقت ليلى بسنواتٍ طويلة. كانت ليلى هي العلاج الذي اخترعه عقله لهذه الندبة، لا سببها.

"هي لم تكن مجرد حبيبتي"، همس إيثار في صمت المدينة. "لقد كانت كلّ شيءٍ آخر أيضًا".

في تلك اللحظة، شعر بأنّ أساس وجوده يتصدّع. لقد بنى كلّ رحلته، كلّ معاركه، كلّ تضحياته، على حقيقة حبه لها. لكن ماذا لو كان هذا الحبّ نفسه بناءً فوق بناءٍ آخر؟ ماذا لو كانت ليلى الحقيقية، الفتاة التي أحبها وماتت، قد طُمست ذكراها الحقيقية، واستُبدلت بهذه النسخة المثالية التي نسجها عقله من كلّ احتياجاته؟

نظر حوله في "مدينة الغياب"، ورأى وجهًا مألوفًا يراقبه من بعيد. كان "الشبح المنسي".

"كلّ روح تبني مدينتها الخاصة من الغياب"، قال الشبح، وهو يقترب.

"مدينتك... كانت متقنةً بشكلٍ خاص. لقد بنيتَ شخصًا واحدًا ليملأ كلّ الفراغات".

"هل كانت... حقيقية؟" سأل إيثار، وصوته كان بالكاد مسموعًا.

"الحبّ الذي شعرتَ به كان حقيقيًّا"، أجاب الشبح.

"الحاجة التي خلقتها كانت حقيقية. الألم الذي تشعر به الآن... هو الأكثر حقيقةً من كلّ شيء. وهذا هو ما يهم. هيا، رحلتك لم تنتهِ بعد".

أدرك إيثار أن عليه أن يواصل السير، ليس فقط لمعرفة حقيقة "المجمع"، بل لمعرفة حقيقة نفسه. لمعرفة من هو إيثار، بدون ليلى. بدون الانعكاس الذي كان يرى نفسه فيه.

كانت هذه هي المواجهة الأكثر رعبًا على الإطلاق: مواجهة الذات العارية.

(33)

صلاة الخيال

بعد أن تركوا "مدينة الغياب" وراءهم، لم يعد العالم من حول إيثار واضحًا. لم تكن هناك مدن أو ممرات، بل كان هناك فضاءٌ رماديٌّ لا نهائي، تتناثر فيه جزرٌ صغيرة من الوعي، كنجومٍ باهتةٍ في سماءٍ لا قمر فيها.

"الشبح المنسي" كان يقود الطريق، ليس بالسير، بل بخلق مسارٍ من الصمت عبر الفوضى، مسارٍ يمكن لإيثار أن يتبعه.

لكن إيثار لم يكن يركّز على الطريق. كان كلّ وعيه منصبًّا على الفراغ الذي بجانبه، الفراغ الذي كانت تشغله ليلى. كان لا يزال يشعر بوجودها، ليس كوجودٍ حقيقي، بل كـ"عادة" روحية. كأنّ جزءًا من وعيه لم يتقبّل بعد فكرة رحيلها، ولا يزال يتوقّع رؤيتها إذا التفت فجأة.

وهذا بالضبط ما بدأ يحدث.

في البداية، كان مجرّد وميضٍ في زاوية رؤيته الأثيرية. وميضٌ من الضوء الأبيض الممزّق الذي كان يميّز كيانها. تجاهله، معتقدًا أنه مجرّد أثرٍ من ذكراها، خدعةٍ من عقله المتعب.

لكن الوميض تكرّر. ثم، من هذا الوميض، بدأت تتشكّل. ظهرت بجانبه فجأة، تسير معه كما كانت تفعل قبل دقائق. كانت صامتة، لكنّ وجودها كان ملموسًا.

"ليلى؟" قال إيثار، ولحنه كان مزيجًا من الأمل الذي يخجل منه، والشكّ الذي يخشاه.

"أنا هنا"، قالت هي، وابتسمت له تلك الابتسامة المألوفة، الدافئة، والمثالية بشكلٍ مؤلم. "لم أتركك أبدًا".

شعر إيثار بموجةٍ من الارتياح تغمر كيانه، موجةٍ قويةٍ لدرجة أنها كادت أن تطرحه أرضًا. لقد كان مخطئًا. لقد كانت مجرد خدعةٍ أخرى من "العقل المدبّر" أو من هذا العالم الغريب. هي حقيقية. هي هنا.

لكنّ الارتياح لم يدم طويلاً.

"يجب أن نسرع"، قالت ليلى، وهي تشير إلى الأمام. "الشبح ينتظرنا. يجب أن نصل إلى...".

في منتصف جملتها، تلاشى صوتها. وبدأ كيانها يرتعش، كصورةٍ على شاشة تلفازٍ قديمٍ يفقد إشارته. أجزاءٌ منها بدأت تصبح شفّافة، ثم عادت لتتجسّد مرةً أخرى.

"ليلى!" صرخ إيثار، وهو يحاول لمسها، لكنّ يده مرّت عبر ذراعها الشفّافة جزئيًا.

"أنا... أنا بخير"، قالت، وهي تكافح للحفاظ على شكلها. "إنه... هذا المكان. إنه يُضعفني".

صدّقها إيثار في البداية. بدا ذلك منطقيًّا. لكنّ الظاهرة تكرّرت. كانت تظهر وتختفي. أحيانًا، كانت تكمل جملةً بدأتها قبل دقائق.

وأحيانًا أخرى، كانت تقول شيئًا لا علاقة له بما يحدث،

كأنها صدى من محادثة قديمة.

في تلك اللحظة، سمع صوتًا داخليًا، ليس صوت "صدى الشك"، وليس صوت "قارئ الظل". كان صوته هو، لكنه كان صوتًا أكثر هدوءًا وحكمة، جزءًا من ذاته لم يكن يعلم بوجوده.

"كلّنا نخلق من نحتاج، لا من نعرف".

الكلمات كانت بسيطة، لكنها ضربت وعي إيثار كصاعقة. نظر إلى ليلى التي كانت تكافح للحفاظ على وجودها بجانبه، ولأول مرة، لم يرَ حبيبته التي تقاتل من أجل البقاء. رأى شيئًا آخر. رأى "صلاة".

أدرك شيئًا خطيرًا ومُحطمًا للقلب. ليلى التي كانت معه الآن لم تكن حقيقية. ولم تكن وهمًا من صنع "العقل المدبر". لقد كانت من صُنعه هو. كانت "صلاة خياله".

عندما تلاشت في "مدينة الغياب"، كان ألمه وفراغه هائلَين لدرجة أن عقله، في محاولة يائسة لحماية نفسه من الانهيار الكامل، "أعاد بناءها" من أقوى ذكرياته، من أعمق احتياجاته. لقد خلق شبحًا، ليس من الموتى، بل من الأحياء. شبحًا مصنوعًا من حبه ويأسه.

وهذا الشبح لم يكن مثاليًا. كان يرتعش ويتلاشى لأن إيثار نفسه بدأ يشك. كلما زاد شكه، كلما ضعف "إيمانه" بوجودها، وكلما فقدت هي تماسكها. لقد كانت تتغذى على حاجته إليها، والآن، حاجته بدأت تتضاءل، لتحل محلها رغبته في معرفة الحقيقة.

"ليلى"، قال إيثار، وصوته كان هادئًا وحزينًا بشكلٍ لا يُطاق. "من أنتِ... حقًا؟"

نظرت إليه "ليلى الشبح"، وفي عينيها كان هناك ارتباك حقيقي. لم تكن تعرف الإجابة. لقد كانت تعتقد أنها حقيقية.

"أنا... أنا ليلى"، قالت، لكن لحنها كان ضعيفًا ومترددًا.

"لا"، قال إيثار، وهو يواجه الحقيقة المُرّة. "أنتِ لستِ هي. أنتِ... أنتِ الجزءَ مني الذي لا يستطيع أن يعيش بدونها".

مع هذا الاعتراف، صرخت "ليلى الشبح" صرخة صامتة، وبدأت تتلاشى بسرعة، هذه المرة ليس كصورة ترتعش، بل كدخانٍ يتصاعد في الريح.

"لا تتركني!" صرخت، وهذه المرة، كانت الكلمات كلماته هو، صدى لخوفه الأبدي من الوحدة.

"يجب عليّ ذلك"، قال إيثار، ودموعٌ أثيرية بدأت تتشكّل في وعيه. "يجب أن أتركَكِ ترحلين، لكي أجدها هي. الحقيقية".

تلاشت "ليلى الشبح" بالكامل، وتركت وراءها صمتًا مدويًا.

نظر إيثار إلى الفراغ حيث كانت تقف، وشعر بألمٍ لا يُضاهى. لقد فقدها مرتين. مرة في العالم الحقيقي، ومرة في عالم روحه. لقد اضطر إلى قتل الخيال الجميل الذي أنقذه، لكي يتمكن من مواصلة رحلته.

تقدّم "الشبح المنسي"، الذي كان يراقب كل شيء من بعيد بصمت.

"لقد اتخذتَ الخطوة الأصعب"، قال الشبح. "لقد تخلّيتَ عن العزاء من أجل الحقيقة. قلّة من الأرواح تملك هذه الشجاعة".

"ماذا الآن؟" سأل إيثار، وصوته كان فارغًا.

"الآن"، أجاب الشبح. "تواجه نفسك. بدون أقنعة. بدون صلوات. بدون خيال. الآن، تبدأ المواجهة الحقيقية".

(34)

اعتراف الضوء المكسور

الصمت الذي خلفه تلاشي "ليلى الشبح" كان أثقل من أي صمت واجهه إيثار من قبل. كان صمتًا لا يحمل غياب الصوت، بل غياب "المعنى". لقد كانت هي المعنى الذي بنى عليه كل شيء. والآن، لم يبقَ شيء.

سار خلف "الشبح المنسي" في الفضاء الرمادي، لكنه لم يكن يرى الطريق. كان غارقًا في محيطٍ من الذكريات التي أصبحت الآن موضع تساؤل. كل لمسة، كل كلمة، كل ابتسامة شاركها مع ليلى في هذا العالم، هل كانت حقيقية؟ أم كانت مجرد حوار مع نفسه؟ هل كان يقاتل من أجلها، أم كان يقاتل من أجل وهم جميلٍ خلقه ليحمي نفسه من حقيقة أنه كان وحيدًا طوال الوقت؟

هذا السؤال الأخير كان كالصخرة التي سقطت في بئرِ روحه الساكنة، وموجاتها بدأت تهدم كل شيء.

الوحدة.

لم تكن مجرد شعورٍ عابر، بل كانت حالة وجودية، أساس تكوينه. تذكّر طفولته، ليس فقط اللحظات السعيدة، بل الساعات الطويلة التي قضاها وحيدًا في غرفته، يخترع عوالم وأصدقاء خياليين. تذكّر مراهقته، الشعور بأنه غير مرئي، كأنه شبح في ممرات المدرسة المزدحمة. تذكّر شبابه، حتى في وجود الأصدقاء، كان هناك دائمًا جزءٌ منه منعزل، يراقب من بعيد، غير قادر على الاتصال الكامل.

لقد كان دائمًا وحيدًا.

وعندما جاءت ليلى الحقيقية إلى حياته،

كانت كالشمس التي أشرقت لأول مرة في عالمه الرمادي. لقد ملأت كل الفراغات، وأذابت جليد وحدته. وعندما فقدها، كان الألم لا يُطاق، ليس فقط لأنه فقد حبه، بل لأنه عاد إلى تلك الحالة الأصلية من الوحدة، لكن هذه المرة، كانت الوحدة أكثر قسوة، لأنها كانت تحمل ذكرى الدفء الذي كان.

وهنا، في هذا العالم من الوعي، عندما كان على وشك الانهيار تحت وطأة هذا الألم، فعل عقله ما كان يفعله دائمًا: لقد خلق له رفيقًا. لقد نسج له "ليلى" من خيوط ذكرياته واحتياجاته. لم تكن مجرد نسخة من حبيبته، بل كانت النسخة المثالية. النسخة التي كانت دائمًا تعرف ما يجب أن تقوله. النسخة التي كانت دائمًا قوية عندما يكون هو ضعيفًا. النسخة التي لم تكن لتتركه أبدًا.

"لقد بنيتُها... أنا من بناها".

هذا لم يكن مجرد فكرة، بل كان "اعترافًا". اعترافٌ أخيرٌ ومؤلم.

توقف إيثار عن السير. "الشبح المنسي" توقف أيضًا، والتفت إليه، كأنه كان ينتظر هذه اللحظة.

"أنا... أنا فعلتُ ذلك"، قال إيثار، ولحنه كان متقطعًا، مليئًا بالعار والدهشة.

"الخوف... الخوف من الوحدة... هو ما جعلني أبنيها.

لحنها... لم يكن إلا صدى داخليًا لجزءٍ مني لم أستطع التعبير عنه.

كانت هي شجاعتي عندما كنتُ خائفًا.

كانت هي أملي عندما كنتُ يائسًا.

كانت هي... كذبتي الجميلة".

مع هذا الاعتراف، انهار إيثار.

لم يكن انهيارًا جسديًا، بل كان انهيارًا وجوديًا. كيانه الأثيري سقط على ركبتيه في الفراغ الرمادي، وبدأ يتفكك، ليس بسبب هجومٍ خارجي، بل بسبب ثقل هذه الحقيقة. شعر وكأن كل جزءٍ من رحلته كان مبنيًا على خداع الذات.

لكن وسط هذا الانهيار، شعر بشيءٍ آخر. شعور غريب وغير متوقع.

شعر بالتحرر.

لقد كان عبئًا هائلاً أن يحمل أمل شخصين. لقد كان عبئًا أن يقاتل من أجلها، أن يحاول إنقاذها. الآن، لم يعد هناك من ينقذه. لم يعد هناك من يقاتل من أجله. لم يبقَ إلا هو.

"إن كانت ليلى خيالاً"، همس لنفسه، "فهو خيالٌ جميلٌ أنقذني. لقد أعطتني القوة لأصل إلى هنا. لقد كانت الدواء الذي احتجته، حتى لو كنتُ أنا من صنعه".

رفع رأسه ببطء. نظر إلى الفراغ حيث كانت تقف "ليلى الشبح" قبل قليل. ولأول مرة، عندما حاول أن يستحضر صورتها في ذهنه، لم يستطع. لم يعد يرى وجهها. لم يعد يرى عينيها أو ابتسامتها. كل ما رآه كان ضوءًا أبيض دافئًا ومبهمًا. لقد تحررت من الشكل الذي أعطاه إياها. لم تعد شخصًا، بل أصبحت فكرة. فكرة الحب، فكرة الأمل.

نهض إيثار على قدميه الأثيريتين. كان كيانه لا يزال ممزقًا، لكنه كان الآن يحمل هذا التمزق بفهم، لا بألم. نظر إلى "الشبح المنسي".

"أنا مستعد"، قال إيثار، وصوته كان مختلفًا. كان أكثر هدوءًا، وأكثر عمقًا. كان صوتَ رجلٍ تصالح مع حقيقة أنه وحيد، ووجد في هذه الوحدة نوعًا من القوة النظيفة.

"جيد"، قال الشبح المنسي. "لأن المكان الذي

نذهب إليه الآن... لا يمكن دخوله إلا وحيدًا".

بدأ "الشبح" في التحرك مرةً أخرى، لكن هذه المرة، لم يكن إيثار يتبعه كظل، بل كان يسير بجانبه، كندٍّ. لقد تحرر من وهمه الأخير، وأصبح الآن جاهزًا لمواجهة الحقيقة الأخيرة، مهما كانت. لقد اعترف بضوئه المكسور، وفي هذا الاعتراف، وجد نوعًا جديدًا من الكمال.

(35)

النواة الأخيرة

بعد اعترافه الأخير، لم يعد الفضاء الرمادي من حول إيثار مجرد فراغ. لقد أصبح مرآةً لحالته الداخلية: هادئًا، شاسعًا، وحيدًا، ولكنه لم يعد مخيفًا. لقد تقبّل وحدته، وفي هذا القبول، وجد نوعًا من السلام البارد والنقي.

"الشبح المنسي" قاده عبر هذا الفضاء الصامت، ليس إلى مدينة أو مبنى، بل إلى ما بدا وكأنه تمزقٌ في نسيج الواقع نفسه. كان شقًّا أسود اللون، لا يصدر منه ضوء ولا صوت، لكن إيثار شعر بقوةِ جذبٍ هائلةٍ تنبعث منه، قوة جذبٍ لا تشبه أي شيء شعر به من قبل.

"هذا هو القلب اللامسمى"، قال الشبح المنسي، وهو يتوقف عند حافة الشق. "النقطة التي ينهار فيها كل وعي إلى أصله. النواة الأخيرة. لا يوجد فيها عقلٌ مدبّر، ولا مجمع، ولا مدينة بيضاء. لا يوجد فيها إلا... الحقيقة".

"وما هي الحقيقة؟" سأل إيثار، وصوته كان ثابتًا بشكل مدهش.

"الحقيقة هي ما تجده عندما تتوقف عن

البحث"، أجاب الشبح. "لا أستطيع أن أعبر معك. هذا هو المكان الذي يجب أن تدخله وحدك. هذا هو اختبارك الأخير".

نظر إيثار إلى الشق الأسود، ولم يشعر بالخوف. لقد واجه كل أشباحه، وقتل أجمل خيالاته. لم يعد هناك ما يخشاه. أومأ برأسه إلى الشبح المنسي في إشارة شكرٍ صامتة، ثم خطا إلى داخل الظلام.

في اللحظة التي عبر فيها، اختفى كل شيء. لم يكن هناك ضوء، ولا ظلام، ولا صوت، ولا صمت. لم يكن هناك "فوق" أو "تحت". كان هناك عدمٌ مطلق. شعر وكأن وعيه يتمدد إلى ما لا نهاية، وفي الوقت نفسه يتقلص إلى نقطةٍ واحدة.

ثم، في هذا العدم، سمع صوتًا.

لم يكن صوت ليلى، أو قارئ الظل، أو الشبح المنسي.

كان صوته هو.

لكنه لم يكن صوته العادي. كان صوتًا أعمق، أقدم، كأنه صوت روحه تتحدث إليه لأول مرة.

"لقد وصلت"، قال الصوت. "لقد وصلت إلى المكان الذي بدأت منه. المكان الذي كنت تهرب منه طوال حياتك. المكان الذي لا يوجد فيه أحد غيرك. لك وحدك خُلقت هذه الرحلة".

بدأ "العدم" يتشكل ببطء. لم تظهر مدينة أو عالم، بل ظهرت غرفة. غرفة مألوفة بشكل مؤلم. جدران رمادية باهتة. نافذة صغيرة تطل على فناءٍ مهجور. سرير معدني بسيط.

كانت غرفته في المستشفى.

لكنها لم تكن مجرد ذكرى. كانت حقيقيةً بشكل لا يُطاق. شعر بملمس الأغطية الخشنة على جلده الأثيري.

شمّ رائحة المطهّر الخافتة التي

تملأ الهواء. سمع صوت الأزيز الخافت لجهازٍ طبيٍّ بجانب السرير.

ثم رآه.

على السرير، كان هناك جسد. جسدٌ شاحب، نحيل، متّصل بأسلاكٍ وأنابيب. عيناه مغلقتان، وصدره يرتفع ويهبط ببطءٍ شديد، بالكاد يمكن ملاحظته.

كان جسده هو.

في تلك اللحظة، ضربته الحقيقة بقوة إعصار. لم تكن صدمة، بل كانت إدراكًا هائلاً، كأنّ كل قطع اللغز التي جمعها في رحلته الطويلة قد استقرّت في مكانها الصحيح في لحظة واحدة، لتكشف عن صورةٍ مروّعة وواضحة تمامًا.

"مدينة الأوهام". "المدينة البيضاء". "المجمّع". "قارئ الظل". "الحُرّاس". "ليلى الشبح".

كلّها كانت مجرد استعارات. مسرحيةٌ متقنة ومعقّدة، أخرجها ومثّلها عقله وحده.

هذه الرحلة الطويلة، التي شعر أنها استمرت لدهور، لم تكن تحدث في عالمٍ آخر.

لقاؤه كان يدور بالكامل داخل عقله، في تلك المساحة الزمنية غير المحددة بين الحياة والموت. لحظة غيبوبةٍ طويلة. لحظة احتضار.

لم يكن هناك "عقلٌ مدبّر" يحاول السيطرة على الوعي. كان هناك عقله هو، يكافح ليفهم ما يحدث له.

لم يكن هناك "مجمّع" يمحو الذكريات. كان هناك مرضه، الذي كان يمحو جسده ببطء.

لم تكن هناك "مدينة بيضاء" للوعي الجماعي. كانت هناك ذكرياته عن العالم الخارجي، عن الآخرين، تتداخل مع عالمه الداخلي.

"قارئ الظل" كان الجزء منه الذي كان يعلم الحقيقة، ويحاول أن يقوده إليها بلطف.

"صدى الشك" كان خوفه من أن يكون كل شيء كذبة.

و"ليلى"... كانت أمله. كانت القصة التي رواها لنفسه ليتمكّن من تحمّل الألم.

نظر إلى جسده الممدّد على السرير، ولأول مرة، شعر بالشفقة عليه.

هذا الجسد الذي كرهه لضعفه، كان يقاتل بضراوة ليُبقيه حيًّا في هذا العالم الداخلي، ليعطيه فرصةً أخيرة ليفهم.

مدّ يده الأثيرية ببطء، ولمس جبين جسده المادي.

في تلك اللحظة، شعر باتصالٍ حقيقي. لم يكن هناك انفصال بين "إيثار الروحي" و"إيثار الجسدي". لقد كانا دائمًا واحدًا.

"أنا أفهم الآن"، همس إيثار، ليس لأحد، بل لنفسه. "أنا أفهم".

لم يكن هناك انتصار أو هزيمة. لم يكن هناك خلاص أو هلاك. لم يكن هناك سوى الحقيقة.

حقيقة أنّه كان يموت، وأنّ عقله قد منحه هذه الرحلة المذهلة كهدية وداعٍ أخيرة.

رحلةٌ ليواجه نفسه، ليتصالح مع ماضيه، وليفهم معنى حياته قبل أن تنتهي.

نظر حوله في الغرفة، التي بدأت الآن تبدو أكثر واقعية من أيّ مدينةٍ مرمرية أو حديقةٍ منسيّة.

هذا هو الواقع.

هذه هي النواة الأخيرة.

غرفةٌ مستشفى. وجسدٌ يحتضر. ووعيٌ على وشك أن ينطفئ.

إن كانت هذه نهايتي، فليكن هذا النور الذي رأيته في داخلي... آخر ما أراه.

(36)

تمزّق الحقيقة

اللحظة التي لمس فيها إيثار الأثيري جبين جسده المادي كانت كلحظة التقاء عالمين. لم يكن هناك انفجارٌ من الضوء أو صوتٌ مدوٍّ، بل كان هناك "اتصال" صامتٌ وعميق، كقطرتَي ماءٍ تندمجان لتُصبحا واحدةً بعد رحلةٍ طويلة.

لأول مرة منذ بداية هذه الرحلة، شعر بالواقع. ليس الواقع الرمزيّ للمدن الميتافيزيقيّة، بل الواقع الحسيّ، بكل ثقله وخشونته. شعر بالبرودة الخافتة في هواء الغرفة المعقّم. شعر بالوزن الهائل لجسده المريض والمستسلم على السرير، كأنه مرساةٌ تشدّه إلى عالمٍ لم يعد ينتمي إليه تمامًا. شعر بالألم الباهت الذي كان ينبض في كل خليةٍ من خلاياه، ليس كألمٍ حاد، بل كأغنيةٍ خلفيةٍ حزينةٍ كانت تُعزف طوال الوقت دون أن ينتبه لكلماتها.

لكن هذا الاتصال، هذا الوضوح المؤلم، كان هو المحفّز للانهيار.

بمجرد أن استوعب عقله الحقيقة الكاملة -حقيقة أنه كان في غيبوبة طوال هذا الوقت، وأن هذه الملحمة الكونية كانت مجرد مسرحيةٍ تدور على خشبة وعيه المحتضر- بدأ العالم الذي بناه بدقةٍ متناهية في التفكك.

لم يكن انهيارًا عنيفًا، بل كان "تمزّقًا" هادئًا ومنظّمًا، كأنّ خيوط النسيج الذي حاك به قصته بدأت تتفكك واحدًا تلو الآخر، كاشفةً عن الفراغ الذي كانت تُخفيه.

الجدران الرمادية لغرفة المستشفى بدأت تُصبح شفافة، وكأنها ستائر من ضبابٍ على وشك أن تتبدّد.

من خلالها، رأى مشاهد متداخلة من رحلته، تتلاشى كصورٍ فوتوغرافيةٍ قديمةٍ تُركت في الشمس.

رأى "المدينة البيضاء" بكل مبانيها المرمرية الشاهقة تتشقق، وتتحوّل ببطء إلى غبارٍ أبيضَ ناعمٍ يتطاير في العدم.

رأى "مدينة الغياب" تذوب كلوحةٍ مائيةٍ تحت مطرٍ من النسيان، شوارع الحنين فيها تفقد ألوانها وتُصبح مجرد خطوطٍ باهتة.

رأى "حديقة الاعتراف" وأزهارها القرمزية تفقد لونها وتذبل في ثوانٍ، وتتحوّل إلى رماد.

كان الأمر أشبه بالاستيقاظ من حلمٍ شديد الوضوح، حيث تتلاشى تفاصيل الحلم بسرعة، لكن الشعور الذي تركه -الحزن، والجمال، والفزع- يبقى عالقًا في الروح.

وفي وسط هذا التمزّق، ظهر "الشبح المنسي" مرةً أخرى.

لكنه لم يعُد ذلك الكيان الواحد الغامض. لقد ظهر كصورٍ متعددة، تتراقص وتتداخل حول سرير المستشفى، كأطيافٍ من ماضيه جاءت لتودّعه.

رآه كوجه معلّمه في المدرسة الابتدائية، السيّد "هاشم"، الذي قال له يومًا وهو ينظر إلى رسوماته الغريبة: "لديك خيالٌ واسع يا إيثار، لا تدعه يضيع في الواقع".

رآه كوجه طبيبه النفسي، الدكتور "أمين"، الذي قال له في إحدى جلساتهم: "عقلك يحاول حمايتك من صدمةٍ لا يستطيع معالجتها، لكنه يفعل ذلك بطريقةٍ مدمّرة. إنه يبني لك حصنًا، لكنه يسجنك بداخله".

رآه كوجه والده، الذي لم يعرفه جيدًا، لكنه كان يتخيّله دائمًا كشخصيةٍ حكيمةٍ وصامتة، رجلٍ يحمل حزنه في صمته.

كان هذا الوجه ينظر إليه الآن بفهم، كأنه يقول:

"لقد فعلت ما بوسعك".

كان "الشبح المنسي" هو مجموع كل الأصوات الحكيمة والمنسيّة في حياته، كل الملاحظات العابرة، كل النصائح التي لم يستمع إليها في وقتها، لكنها بقيت محفورة في لاوعيه، وشكّلت حكمته الداخليّة.

"لقد فهمت الآن"، "قال" الشبح، وصوته كان الآن مزيجًا متناغمًا من كل تلك الأصوات المألوفة، صوت الحكمة الجماعيّة التي اكتسبها.

"هذه الرحلة لم تكن عن إنقاذ العالم، أو حتى عن إنقاذ ليلى. لم تكن هناك معركة بين النور والظلام. لقد كانت اختبارك الأخير. اختبار أن تصنع من ألمك قصة، أو أن تذوب فيه. أن تحوّل معاناتك إلى معنى، بدلاً من أن تتركها تحوّلك إلى لا شيء".

"هل... هل نجحت؟" سأل إيثار، وكيانه الأثيري كان يومض ويتلاشى مع انهيار عالمه، كشمعةٍ في مهبّ الريح.

"النجاح ليس هو الهدف"، "أجاب" الشبح، والصور المتعدّدة بدأت تبتسم بحنان. "المحاولة هي كل شيء. وأنت... لقد حاولت. لقد بنيت عوالم من وحدتك، وواجهت وحوشًا من خوفك، وأحببت أشباحًا من أملك. لقد حوّلت صمت غيبوبتك إلى ملحمة. وهذا... أكثر من كافٍ".

مع هذه الكلمات، بدأت صور "الشبح المنسي" تتلاشى هي الأخرى، ليس كأنها تختفي، بل كأنها تندمج مرة أخرى في وعي إيثار، تعود إلى مكانها الصحيح كجزء من حكمته الداخليّة.

تركت وراءها شعورًا بالسلام والقبول، كأن تلميذًا قد نال أخيرًا رضا معلّمه.

كل شيء بدأ يتشقّق الآن. الأرضية تحت السرير، السقف فوقه، حتى الهواء نفسه.

لم يكن يعود إلى الظلام، بل كان يعود إلى ما قبل البداية. إلى الفراغ النقيّ الذي سبق أول فكرة، أول ذكرى، أول وهم.

رأى لمحة أخيرة لـ"قارئ الظل"، الذي كان يقف في زاوية الغرفة، يراقبه.

لم يعد كيانًا مظلمًا، بل كان الآن شفافًا، مصنوعًا من ضوء النجوم.

أومأ برأسه إلى إيثار، إيماءةً قصيرةً تحمل احترامًا عميقًا، كأنه يقول: "لقد قمت بعملٍ جيد. لقد راقبت رحلتك، وشهدت على صدقها".

ثم تلاشى هو الآخر.

"قارئ الظل" كان وعيه الذاتي، الجزء منه الذي كان يراقب رحلته، ويحكم عليها، وفي النهاية، يغفر لها.

لم يبقَ في هذا الوجود المتمزق سوى شيئين: وعي إيثار المتلاشي، والندبة على صدر جسده المادي.

كانت الندبة هي النقطة الوحيدة التي لا تزال ثابتة في هذا الكون المنهار.

كانت هي الأصل، هي الجرح الذي وُلدت منه كل هذه القصة. كانت هي الصفر الذي بدأت منه كل هذه الأرقام الخيالية.

نظر إيثار إليها، ليس بألمٍ أو خجل، بل بامتنانٍ عميق.

لقد كانت هي البوابة. كانت هي المُحفّز. كانت هي الألم الذي أجبره على أن يصبح شاعرًا، على أن يخلق كل هذا الجمال من كل هذا الحطام.

أغمض وعيه عينيه الأثيريتين، واستسلم للتمزّق. لم يعُد يُقاوم.

لقد انتهت القصة. وحان وقت العودة إلى الصمت الذي سبقها. الصمت الذي كان ينتظره دائمًا، ليس كعدو، بل كوطنٍ أخير.

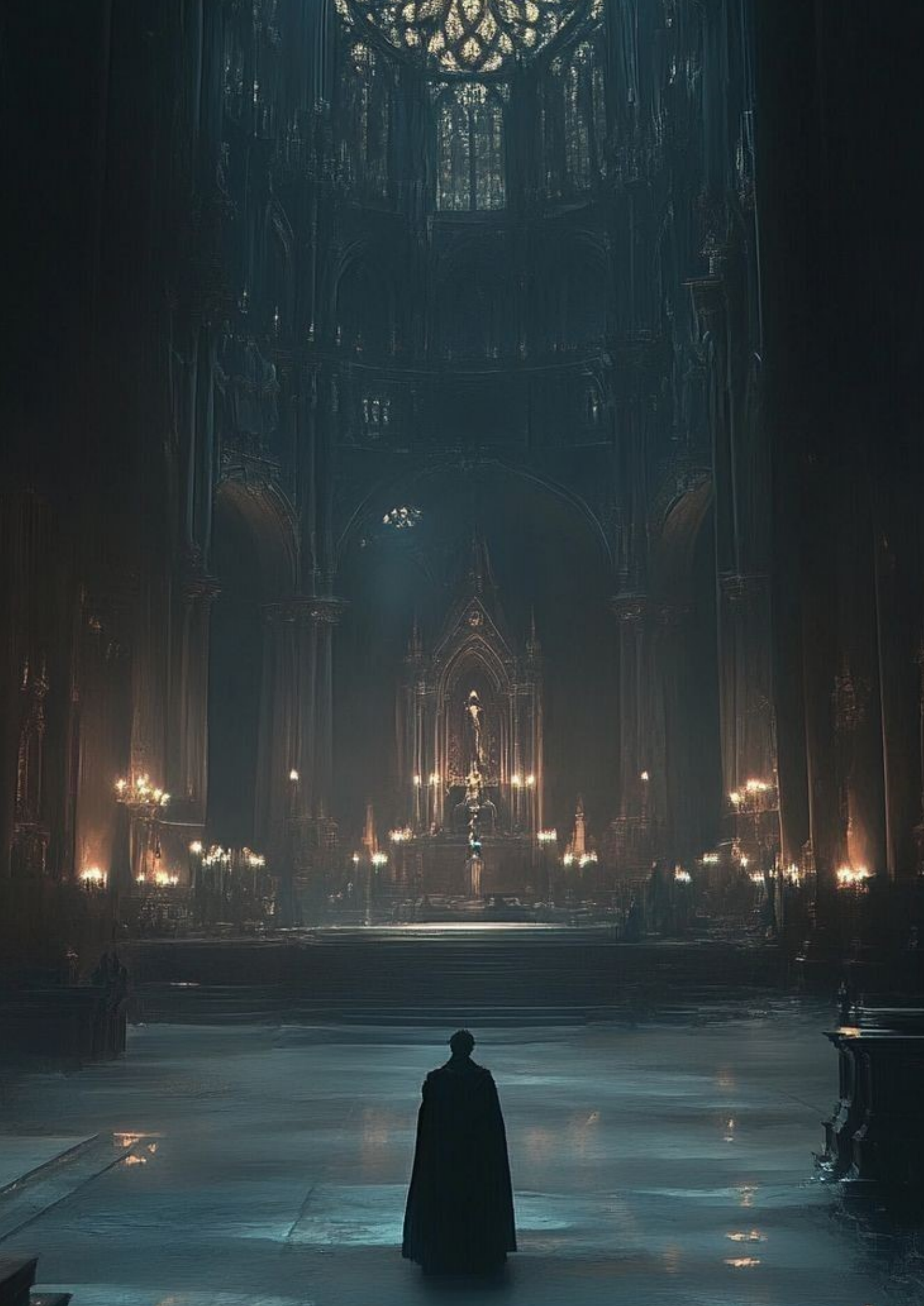

(37)

الغرفة الأولى

التمزّق لم يكن عنيفًا. كان أشبه بفكّ خيوط سجّادة منسوجة بعناية فائقة على مدى دهرٍ من الوهم.

كلُّ خيطٍ من خيوط عالمه الخيالي كان يُسحب بهدوء، كاشفًا عن الفراغ الذي كان يغطيه.

"المدينة البيضاء" تحوّلت إلى غبار، و"مدينة الغياب" تبخّرت، و"حديقة الاعتراف" أصبحت مجرّد ذكرى باهتة، كعطر زهرةٍ تلاشى من ثوبٍ قديم.

وعندما سُحب الخيط الأخير، لم يجد إيثار نفسه في العدم المطلق، بل وجد نفسه في مكان مألوف بشكلٍ مرعب.

الغرفة.

الغرفة المظلمة التي بدأ فيها كلُّ شيء، كما في الفصل الأول.

لكن هذه المرة، كانت مختلفة. كانت أكثر واقعية، وأكثر فراغًا.

في المرّة الأولى، كانت الغرفة مليئة بالإمكانيات الخفية، كمسرحٍ على وشك أن تبدأ عليه المسرحية.

كانت الظلال تتراقص، والهمسات تتردّد، وشعورٌ بأن هناك شيئًا يتربّص في الظلام.

الآن، كانت مجرّد غرفة. المسرحية انتهت، والجمهور غادر، ولم يبقَ سوى الخشبة الفارغة.

الجدران الباردة لم تَعُد تحمل أيَّ ظلال. كانت مجرّد جدرانٍ صامتة، تشهد على نهاية القصة.

الصمت لم يَعُد يحمل أيَّ همسات. كان مجرّد غيابٍ مطلقٍ للصوت، صمتًا كثيفًا يمكنك أن تشعر به يضغط على وعيك.

ورائحة العفن التي كانت تملأ المكان في البداية، اختفت، وحلّ محلها هواءٌ راكد، لا يحمل أيَّ رائحة، لا رائحة حياة ولا موت.

لم تكن هناك أبواب تؤدي إلى ممراتٍ لا نهاية لها.

لم تكن هناك نوافذ تطلُّ على مدنٍ ضبابية.

لم تكن هناك مرايا تعكس صورًا مشوّهة.

لم يكن هناك "قارئ ظل" ليقوده.

ولم تكن هناك "ليلى" ليقاتل من أجلها.

لم يكن هناك أيُّ شيء.

فقط هو. ووعيه. والندبة.

وقف في منتصف هذه الغرفة الفارغة، وشعر بوحدةٍ لم يشعر بها حتى في "مدينة الغياب".

كانت وحدةً مطلقةً ونهائية، وحدة ما بعد القصة، ما بعد المعنى.

لقد كانت هذه هي الحقيقة العارية، مجرّدةً من كلِّ الاستعارات والأوهام.

لم تكن هناك رحلة، لم تكن هناك مهمة.

كان هناك فقط "إيثار"، ووعيٌ يحتضر في غرفة.

نظر إلى كيانه الأثيري، الذي كان الآن شفافًا بالكامل تقريبًا، مجرّد وميضٍ خافتٍ من الضوء في الظلام.

لقد استنفد كلَّ طاقته في خلق تلك العوالم، في حبِّ تلك الأشباح، في محاربة تلك الوحوش.

لم يتبقَّ منه الكثير.

ثم، في هذا الصمت المُطبق، حدث شيء.

النديبة على صدره، التي كانت دائمًا مركز الألم، مركز القصة، بدأت تتوهّج.

ليس بضوءٍ دافئٍ أو بارد، بل بضوءٍ محايدٍ وهادئ، ضوءٍ أبيضَ نقيّ.

توسّع الضوء ببطء، ليغمر كيانه الأثيريّ بالكامل.

لم يكن ضوءًا شافيًا، ولم يكن ضوءًا مدمّرًا.

كان ضوء "قبول".

وفي هذا الضوء، سمع صوتًا أخيرًا.

لم يكن صوته، ولم يكن صوت أيِّ شخصيةٍ أخرى. كان صوتَ الندبة نفسها، تتحدث إليه لأوّل مرة، ليس كجرح، بل كجزءٍ أصيلٍ من ذاته.

"لقد كنت كافيًا"، همست الندبة. "حتى وأنت وحدك. لقد كنت دائمًا كافيًا".

كانت هذه هي الحقيقة التي كان يهرب منها طوال حياته: الشعور بأنه ناقص، بأنه يحتاج إلى شيءٍ أو شخصٍ آخر ليكتمل.

حُبُّه لليلى، على الرغم من صدقه، كان أيضًا مبنيًّا على هذا الشعور. لقد كانت هي الجزء الذي ظنّ أنه يفتقده.

لكن الآن، في هذه اللحظة الأخيرة، أدرك الحقيقة. لم يكن ناقصًا أبدًا. لقد كان كاملاً، بكلّ ندوبه، بكلّ وحدته، بكلّ خوفه.

الرحلة لم تكن للبحث عن الخلاص في الآخرين، بل كانت لإيجاد القبول في الذات.

مع هذا الإدراك الأخير، بدأ الضوء الأبيض الذي انبعث من الندبة يخفت ببطء.

لم يكن يختفي، بل كان ينسحب إلى داخله، كأنه يعود إلى مصدره.

والغرفة المظلمة بدأت تضيق، جدرانها تقترب منه ببطء، ليس لتهشّمه، بل لتحتضنه.

لقد كانت هذه هي النهاية الحقيقية، ليست في مواجهة "عقلٍ مدبّر" أو في إنقاذِ عالم، بل في هذه الغرفة الفارغة، في هذا الصمت المطلق، في هذه المصالحة الهادئة مع الذات.

أغمض إيثار عينيه الأثيريّتين للمرة الأخيرة، ليس بيأس، بل بسلام.

لقد انتهت رحلته الطويلة. لقد عاد إلى المنزل.

والمنزل... كان هو نفسه.

وفي اللحظة التي ساد فيها الصمتُ المطلق، تسرب نسيمٌ باردٌ من نافذةٍ وهمية، لامس جلده الأثيريّ بلطف، وكأنه همسُ وداعٍ أخيرٍ من عالمٍ لا يعود إليه.

كان ذلك النسيم الخفيف، اللمسةَ الأخيرة التي احتضنته بلطف قبل أن يغفو في الصمت الأبدي.

(38)

آخر مرآة

عندما احتضنته جدران الغرفة المظلمة، لم يشعر إيثار بالاختناق أو النهاية. بل شعر وكأنه يعود إلى رحم الوجود، إلى الصمت الذي يسبق أول صرخة. تلاشى وعيه ببطء، ليس كشمعة تنطفئ، بل كنجمة تذوب في فجر جديد. لكن قبل أن يختفي تمامًا، كان هناك مشهد أخير. مرآة أخيرة. لم تكن مرآة مادية من زجاج وفضة، بل كانت مرآة الوعي الصافي. وجد نفسه فجأة يطفو في فضاء لا نهائي، ليس الفضاء الرمادي أو المظلم، بل فضاء مصنوع من ذاكرته نفسها. ومن حوله، بدأت مشاهد رحلته تتشكّل وتتراقص، ليس كتسلسل زمني، بل ككوكبة من اللحظات المتشابكة. لكن هذه المرة، كان يراها من زاوية مختلفة. زاوية الراوي العليم الذي يعرف نهاية القصة. رأى نفسه في الفصل الأول، يتخبّط في الغرفة المظلمة، خائفًا من "كيان" يقترب منه. لكن من الزاوية الجديدة، رأى أن "الكيان" لم يكن سوى ظله هو، يمتد نحوه ليحتضنه، ليواسيه. لقد كان خوفه من نفسه هو ما حوّل العزاء إلى رعب. رأى "قارئ الظل"، مرشده الصامت. لكنه الآن يرى بوضوح. لم يكن "قارئ الظل" كيانًا منفصلاً، بل كان تجسيدًا لـ"حدسه". ذلك الصوت الهادئ في أعماق كل إنسان، الذي يعرف الطريق الصحيح، لكننا نادرًا ما نستمع إليه. لقد كان ضميره الذي يحاول أن يقوده إلى الحقيقة. رأى "حراس التوازن" الثلاثة، بتماثيلهم الزجاجية المهيبة. لم يكونوا بقايا منطق في عالم منهار. لقد كانوا تجسيدًا لثلاثة أسئلة وجودية كان يطرحها على نفسه دائمًا: "من أنا؟" (الماضي)، "ماذا أفعل هنا؟" (الحاضر)، "إلى أين أذهب؟" (المستقبل). كانت محاكمته لنفسه، أسئلته التي لم يجرؤ على الإجابة عليها. رأى "الأنا المضادة"، ذلك الشبيه الذي واجهه في "هرم الذاكرة المعكوس"، والذي كان يسخر منه ويتهمه. لم يكن عدوًا، بل كان "ناقده الداخلي". ذلك الصوت القاسي الذي يخبرنا بأننا لسنا جيدين بما فيه

الكفاية، بأنه كان يجب أن نفعل ما هو أفضل. لقد كان صوته هو، مليئًا بالندم واللوم الذاتي. ورأى "الشبح المنسي". لم يكن كيانًا قديمًا أو فوضى أولى. لقد كان "لاوعيه". كل الحكمة التي اكتسبها من تجاربه، كل النصائح التي سمعها ونسيها، كل الكتب التي قرأها، كل الأفكار التي لم تكتمل. لقد كان مخزون حكمته المنسية، الذي ظهر فقط عندما كان مستعدًا للاستماع. وأخيرًا... رأى ليلى. رآها في كل مراحلها.

ليلى "الذكرى"، الجميلة والمؤلمة.

"ليلى البانية"، القوية والمبدعة. "ليلى الشبح"، الهشة والمحتاجة. لم تكن أيٌّ منهن هي ليلى الحقيقية. لقد كُنّ جميعًا وجوهًا مختلفة للحب نفسه، كما فهمه إيثار. "ليلى الذكرى" كانت الحنين، الشوق المؤلم للماضي الذي لا يمكن استعادته.

"ليلى البانية" كانت الأمل، القدرة على بناء عالم جديد من الحطام، الإيمان بأن المستقبل يمكن أن يكون أفضل.

"ليلى الشبح" كانت الحاجة، الحاجة إلى العزاء، إلى الرفقة، إلى الشعور بأننا لسنا وحدنا.

لقد كانت رحلته بأكملها حوارًا داخليًا طويلاً، صراعًا ومصالحة بين أجزاء مختلفة من نفسه. حدسه يقوده، وناقده الداخلي يعيقه، وأسئلته الوجودية تحاكمه، ولاوعيه يرشده، وحنينه وأمله وحاجته يتجسّدون في صورة حبه الأكبر.

كانت هذه هي المرآة الأخيرة، المرآة التي لا تعكس الوجه، بل تعكس القصة الكاملة للروح.

نظر إيثار إلى هذه الكوكبة من الذكريات، ولم يشعر بالخداع أو المرارة، بل شعر بجمال مأساوي. لقد كانت نفسه متكسّرة، لكن كل قطعة من هذا الكسر، كل شظية، كانت قد عاشت حياة خاصة بها، ولعبت دورًا في هذه المسرحية العظيمة.

لقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي استطاع بها عقله أن يعالج ألمًا أكبر من أن يُحتمل. لقد حوّل مأساته الشخصية إلى أسطورة، وحوّل وحدته إلى رحلة بطولية.

ابتسم إيثار ابتسامة أخيرة، ابتسامة فَهمٍ وقَبول. لقد رأى الحقيقة. لقد رأى نفسه.

وببطء، بدأت كوكبة الذكريات تخفت، كنجوم تنطفئ مع بزوغ الفجر. وبدأ الفضاء من حوله يذوب، عائدًا إلى الصمت الأبيض النقي.

لقد انتهى المشهد الأخير، وحان وقت إسدال الستار.

(39)

قبيل الرحيل

بعد أن تلاشت آخر مرآة، لم يعد إيثار يطفو في فضاء من الذكريات. لقد وجد نفسه في مكان لا مكان، فراغٍ أبيضَ نقيّ، لا نهائي، وهادئ بشكلٍ مطلق. لم يكن هناك "فوق" أو "تحت"، لم يكن هناك زمن، لم يكن هناك سوى "الآن" الأبدي.

لم يعد كيانًا أثيريًا شفافًا، ولم يكن جسدًا ماديًا. لقد كان مجرد "وعي"، نقطة من الإدراك الصافي في محيط من الصمت الأبيض.

في هذا الصمت، لم يكن وحيدًا.

أمامه، تشكّلت صورة ببطء. لم تكن صورة حادّة، بل كانت انطباعًا، شعورًا. صورة طفل صغير، في حوالي السابعة من عمره، يجلس على الأرض، ويضمّ ركبتيه إلى صدره. كان يرتدي بيجامة زرقاء عليها رسوم نجوم باهتة.

كان هو. إيثار الطفل.

نظر إيثار الوعي إلى إيثار الطفل، وشعر بموجة من الحنان والحزن تغمره. رأى في عيني الطفل كل الوحدة التي كانت، وكل الخوف الذي سيأتي. رأى فيه البذرة الأولى لكل قصة، لكل وهم، لكل ألم.

تقدّم الوعي ببطء، وجلس أمام الطفل. لم يتكلّما بالكلمات، بل بالأفكار والمشاعر.

"أنا آسف"، قال إيثار الوعي. "آسف لأنني تركتك وحيدًا لفترة طويلة. آسف لأنني بنيت كل هذه العوالم المعقّدة، فقط لأهرب من حقيقة أنك كنت خائفًا. آسف لأنني جعلت ألمك وقودًا لملحمة، بدلاً من أن أحتضنه ببساطة".

رفع الطفل رأسه، وفي عينيه لم يكن هناك لوم، بل كان هناك فهم.

"لكنك لم تتركني"، قال الطفل. "لقد كنتَ تبحث عني طوال الوقت. كل تلك الشخصيات، كل تلك المدن... كانت طرقًا مختلفة لتجد طريق العودة إليّ".

في تلك اللحظة، أدرك إيثار حقيقة أعمق. رحلته لم تكن فقط لمواجهة ألمه، بل كانت للعودة إلى براءته المفقودة، للعودة إلى ذلك الجزء منه الذي كان لا يزال يؤمن بالنجوم، حتى في أحلك الليالي.

مدّ إيثار الوعي يده، ولمس كتف الطفل. ومع هذه اللمسة، اندمج الاثنان. لم يعد هناك "وعي" و"طفل". أصبح هناك "إيثار" الكامل، المتصالح، الذي يجمع بين حكمة الرجل وبراءة الطفل.

شعر بسلامٍ لم يشعر به من قبل. سلام يتجاوز الفهم، يتجاوز القبول. كان سلام "العودة إلى الوطن".

ثم، نظر إلى ما كان يومًا صدره. لم تعد هناك ندبة. لقد اختفت، لأن الجرح الذي سبّبها قد شُفي أخيرًا. لم يعد هناك ما يفصل بين أجزاء نفسه.

وقف في هذا الفراغ الأبيض، كاملاً للمرة الأولى والأخيرة.

"لقد حاولت". همس بالكلمات، ليس لنفسه، وليس لأيّ شخصٍ آخر. همس بها في الفراغ، كشهادةٍ أخيرةٍ على وجوده. لقد كانت جملةً بسيطة، لكنها كانت تحمل في طيّاتها كلّ رحلته: كلّ أخطائه، كلّ انتصاراته الصغيرة، كلّ حبّه، كلّ ألمه. لقد كانت خلاصة حياته.

لم يكن يقول "لقد نجحت" أو "لقد فشلت"، بل "لقد حاولت". وهذا، في النهاية، كان كلّ ما يهمّ.

مع هذه الكلمات الأخيرة، بدأ الضوء الأبيض من حوله يزداد سطوعًا. لم يكن ضوءًا حارقًا أو باردًا، بل كان ضوءًا دافئًا ومُحتضِنًا، ضوءًا يشبه العودة إلى المنزل بعد رحلةٍ طويلةٍ جدًا.

بدأ الضوء يبتلع كلّ شيء، بهدوءٍ، ولُطف.

ابتلع وعيه.

ابتلع ذكرياته.

ابتلع قصّته.

لم تكن هناك مقاومة. لم يكن هناك خوف.

فقط استسلام هادئ، كقطرةِ مطرٍ تعود إلى المحيط، كهمسةٍ تذوب في الصمت، كنغمةٍ أخيرةٍ في سيمفونيةٍ هائلة.

كان إيثار يعود إلى مصدر كلّ شيء.

وفي اللحظة الأخيرة، قبل أن يبتلعه الضوء بالكامل، خطرت بباله فكرةٌ أخيرة، فكرةٌ صافية وجميلة:

"ربما... ربما ليلى تنتظرني هناك".

لم يكن يعرف ما إذا كانت هذه حقيقة، أم مجرّد وهمٍ أخير.

لكنه اختار أن يصدّقها.

وابتسم.

(40)

موت إيثار

الضوء الأبيض لم يكن نهاية، بل كان آخر ما يمكن أن يُرى قبل العدم.

في غرفة المستشفى، حيث يرقد جسد إيثار كقالبٍ مهجور، توقّف كلّ شيء.

صوت الأجهزة انقطع فجأة، وخطّ القلب استقام دون ندم.

وما بين نبضةٍ لم تأتِ، وشاشةٍ بلا حياة... انتهى كلّ شيء.

مات إيثار.

لا كشهيدٍ في حربٍ كونية، ولا كبطلٍ غيّر العالم.

بل كإنسانٍ وحيد... حاول.

لم يكن "النشاز" الذي سيفكّك المجمّع، ولا الجسر الذي يوحّد الوعي، ولا المنقذ الذي تتغنّى به الأساطير.

كلّ تلك كانت أوهامًا اختلقها ليُعطي لمعاناته معنًى.

وفي النهاية... لم يحتج إلى أيٍّ منها.

لقد أحبّ، وتألم، وخاف.

بنى من وحدته مدنًا، ومن جرحه قصيدة، ومن غيبوبته أسطورة.

لكن كلّ ذلك لم يكن ليُثبت أنه قوي... بل فقط لأنه لا يعرف كيف يصمت أمام الألم.

ومات.

لكن موته لم يكن خسارة، بل كان تحرّرًا.

تحرّر من الأدوار، من الحاجة للبطولة، من العتب، من الندبة.

كان نهاية القصيدة التي كُتبت لتُنسى، بعد أن أدّت وظيفتها.

لم يُشيَّع بجنازة.

لم يُكتب اسمه في صحيفة.

لم يترك خلفه إنجازات تُخلّده.

لكنه ترك شيئًا أعظم: قصة.
قصة عن إنسانٍ واجه نفسه.
عن روحٍ حاولت أن تفهم لماذا تشعر بهذا العُمق.
عن وعيٍ، قاوم حتى انكسر، ثم احتضن شظاياه، ونام.
وفي العوالم التي اخترعها، تغيّر كلّ شيء.
"المدينة البيضاء" أصبحت حبرًا على رفّ الوعي،
"مدينة الغياب" أصبحت متحفًا للحنين،
"قارئ الظل" أصبح نَفَسَ الضمير،
و"ليلى"... أصبحت لحنًا.
أمّا هو... فلم يَعُد أحدٌ يذكر اسمه.
ولم يَعُد هناك من يحكي عنه.
لقد اختار أن يُمحى، ليكون هو القصة.
ومات إيثار.
لم يمت في صخب، بل كما تموت فكرةٌ بعد أن تتحقّق.
لم يكن بحاجةٍ للبطولة، ولا حتى للغفران.
فقط... أراد أن يُنهي الرحلة بكرامة.
لم ينجُ، ولم يُهزم.
لكنه حاول.
وهكذا... تنتهي رواية "إيثار".
ليس كوعدٍ...
بل كقَدَرٍ تمّت كتابته، وآن له أن يُطوى.

النهاية

صدى ما بعد الفناء

في الفراغ اللامتناهي الذي خلّفه رحيل إيثار، لم يكن الصمت هو كلّ ما تبقّى.
كان هناك صدى، هشّ، خافت، كأنفاسٍ متقطّعةٍ لروحٍ لم تُكمل رحلتها بعد.
لم يكن الموت نهايةً لحكايته، بل انتقالاً... عبورًا هادئًا من حافة الإدراك إلى بُعدٍ لا تبلغه حواسّنا ولا تستوعبه اللغة.

رأيته يسقط، لا كمن هُزِم، بل كمن تعب من الركض داخل متاهةٍ لا مخرج لها.
كأنَّ روحه قد تشقّقت من الداخل، وظلّت تحاول، رغم الألم، أن تغنّي أغنيتها الأخيرة.
نعم، كنتُ هناك.
أراقب، من خلف السطور، من خلف الزجاج الذي يفصل الكاتب عن بطله.
رأيتُ عينيه المفتوحتين على الفراغ... لا تحملان خوفًا، ولا رجاءً، بل فقط صدقًا خالصًا.
صدق الروح حين تدرك أنها لم تكن تبحث عن الخلاص، بل عن حُضنٍ يُصغي لها دون شروط.
إيثار لم يمت كشهيد، ولا كبطلٍ مَلحَميّ،
لقد مات كإنسانٍ تجرّد من كلّ الأقنعة، وواجه هشاشته دون مواربة.
موته لم يكن خسارةً لنا... بل مرآةً مؤلمة لانكسارنا نحن.
لأننا نحن الذين تركناه يخوض وحده حربًا داخليةً ضدّ العدم،
نحن الذين نظرنا إلى المعركة، لكن لم نرَ الندبة.
لقد كانت رحلته تجسيدًا دقيقًا لحكايتنا جميعًا:
صراعٌ بين النور واللا جدوى،

بين الأمل المشوَّه، والواقع المتهالك،
بين صورة الذات كما نريدها... وما نحن عليه حقًّا.
وفي موته، لم ينتصر الظلام،
بل فقط... توقّف الضوء عن المحاولة.
الواقع ربما انتصر على الجسد،
لكن الروح لم تُهزَم.
فالموت، كما اكتشفنا معه، لم يكن نهاية الرواية، بل نهاية الكذبة.
أما العالم الذي هجره، فقد واصل دَوَرانه ببلادة، غيرَ مُدرِكٍ لما خسره.
أحكم قبضته على الفراغ، معتقدًا أنه أطفأ شمعة، دون أن يفهم أن تلك الشعلة أضاءت ما لم تبلغه كلّ مصابيح الإدراك.
ورغم كلّ شيء، بقي شيءٌ واحد: الصدى.
صدى ما بعد الفناء.
صدى يُردّد في أروقة الوعي الجمعي، في زوايا القلب المنسي، في كلّ حرفٍ قرأناه وتوقّفنا عنده دون أن نفهم سببه.
صدى يقول:
هناك من رحل... لكنه لم يُنسَ.
هناك قصةٌ انتهت... لكنها لا تزال تعيش فينا.
إيثار لم يَعُد اسمًا،
بل أصبح شعورًا... لحظةَ تأمّل، دمعةَ ندم، رَجفةَ حبّ.
أصبح جزءًا من النسيج الكوني، كأنّ الوجود نفسه اختزله في همسة،
في قطرةِ مطرٍ تسقط بهدوء، أو في ارتجافةِ ورقةٍ في ريحٍ خفيفة.
أما أنا،

أنا الذي كتبتُ، وراقبتُ، وتألمتُ،

فقد عرفتُ أن قصته لم تكن مجرّد خيال،

بل كانت الحكاية التي نَخشى جميعًا الاعتراف بأنها قصّتنا.

وفي هذا الختام، لا أُعلن موته فقط، بل أُعلن عودته إلى ما هو أوسع من الحضور:

إلى جوهرِ المعنى،

إلى الحكاية التي لا تُنسى.

إيثار مات.

لكن قلبه ظلّ ينبض في كلّ من قرأ.

وهذا... هو الخلود الذي لم يسعَ إليه، لكنه ناله.

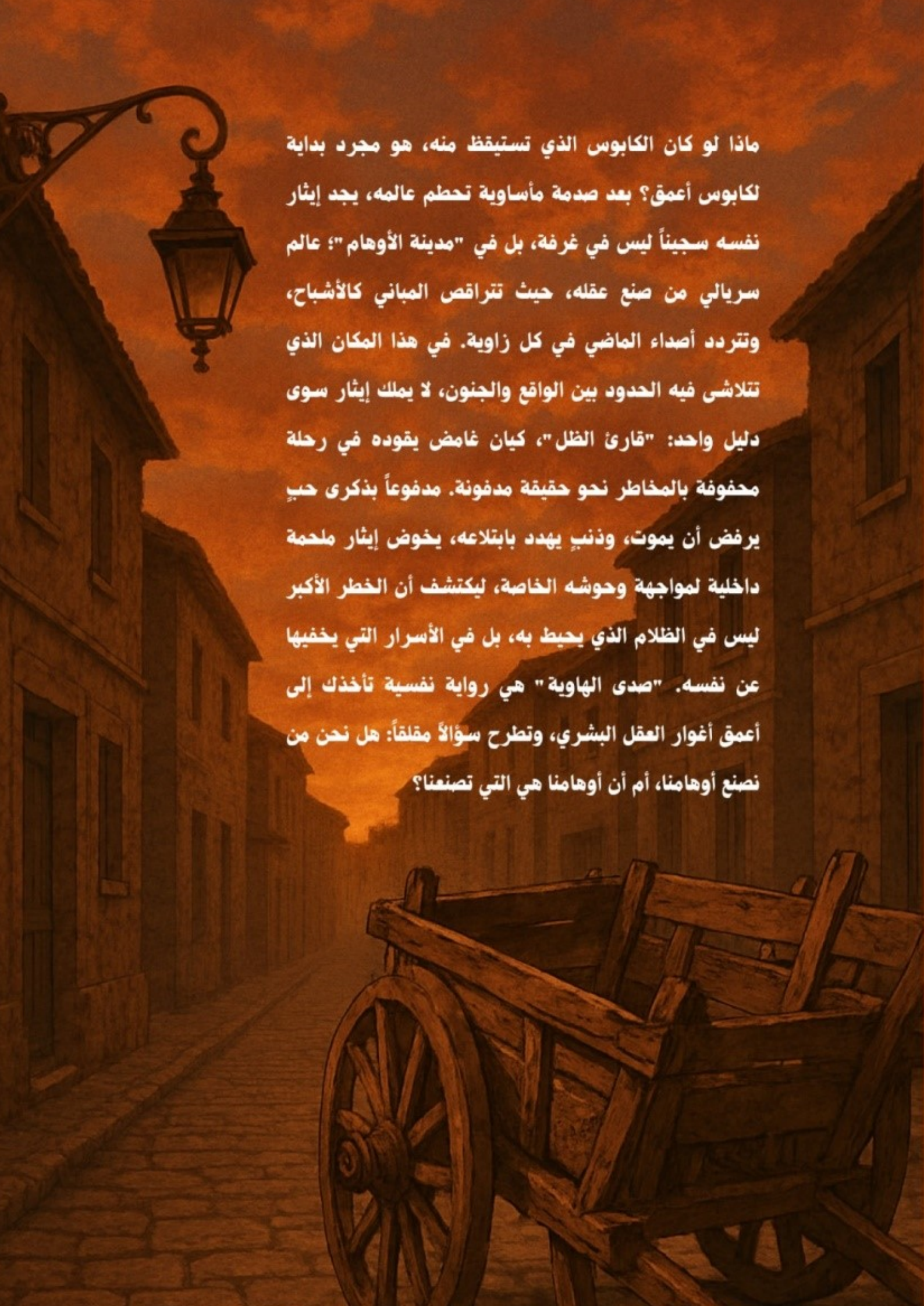

ماذا لو كان الكابوس الذي تستيقظ منه، هو مجرد بداية لكابوس أعمق؟ بعد صدمة مأساوية تحطم عالمه، يجد إيثار نفسه سجيناً ليس في غرفة، بل في "مدينة الأوهام"؛ عالم سريالي من صنع عقله، حيث تتراقص المباني كالأشباح، وتتردد أصداء الماضي في كل زاوية. في هذا المكان الذي تتلاشى فيه الحدود بين الواقع والجنون، لا يملك إيثار سوى دليل واحد: "قارئ الظل"، كيان غامض يقوده في رحلة محفوفة بالمخاطر نحو حقيقة مدفونة. مدفوعاً بذكرى حبٍ يرفض أن يموت، وذنبٍ يهدد بابتلاعه، يخوض إيثار ملحمة داخلية لمواجهة وحوشه الخاصة، ليكتشف أن الخطر الأكبر ليس في الظلام الذي يحيط به، بل في الأسرار التي يخفيها عن نفسه. "صدى الهاوية" هي رواية نفسية تأخذك إلى أعمق أغوار العقل البشري، وتطرح سؤالاً مقلقاً: هل نحن من نصنع أوهامنا، أم أن أوهامنا هي التي تصنعنا؟